

كتاب : أعلام النبوة

المؤلف : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أحكم ما خلق وقدر وعدل فيما قسم ودبر وأنشأ وأظهر واستأثر بما أخفى وأسر وأنعم بما أمر وحظر وأرشد إلى إنذاره بنوعي تفضيل تميز بهما جنس البشر عن كل حيوان بهيم وهما نطق يفضي إلى الفهم وعقل يؤدي إلى العلم ليعان بهما على ما كلف من أوان التعبد فيصّل بالعقل إلى علمه واستعلامه وبالنطق إلى فهمه واستفهامه فيصير مهياً لقبول ما كلف من التعارف ومعاناة على ما تعبد به من الشرائع نعمة بها قطع الأعذار وعم بما المصالح ليكون الخلق على رغب يدعوهم إلى الطاعة ورهب يكفهم عن المعصية فيعم الخير بالرغبة وينحسم الشر بالرهبة وهذا لا يستقر في النفوس إلا برسل مبلغين عن الله ثوابه فيما أمر وعقابه فيما حظر فوجب أن يوضح في إثبات النبوات ما ينتفي عنه ارتياب مغرور وشبهة معاند وقد جعلت كتابي هذا مقصوداً على ما أفضى ودل عليه ليكون عن الحق موضحاً وللسرائر مصلحاً وعلى صحة النبوة دليلاً ولشبه المستريب مزيلاً وجعلت ما تضمنه مشتملاً على أمرين

أحدهما ما اختص بإثبات النبوة من إعلامها

والثاني : فيما يختلف من أقسامها وأحكامها ليكون الجمع بينهما أنفى للشبهة وأبلغ في الإبانة وجعلت ما تضمنه هذا كتاباً مشتملاً على أحد وعشرين باباً

الباب الأول

في مقدمة الأدلة

الباب الثاني في معرفة الإله المعبود

الباب الثالث في صحة التكليف

الباب الرابع في إثبات النبوات

الباب الخامس في مدة العالم وعدة الرسل عليهم الصلاة والسلام

الباب السادس في إثبات نبوة محمد

الباب السابع فيما يتضمنه القرآن من أنواع إعجازه

الباب الثامن في معجزات عصمته

الباب التاسع فيما شوهد من معجزات أفعاله

الباب العاشر فيما سمع من معجزات أقواله

الباب الحادي عشر فيما أكرمه الله تعالى به من إجابة دعوته

الباب الثاني عشر في إنذاره بما يستحدث بعده

الباب الثالث عشر في معجزه بما ظهر من البهائم

الباب الرابع عشر في ظهور المعجز من الشجر والجماد

الباب الخامس عشر في بشائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نبوته

الباب السادس عشر في هتوف الجن نبوته

الباب السابع عشر فيما هجست النفوس من إلهام العقول نبوته

الباب الثامن عشر في مبادئ نسبه وطهارة مولده

الباب التاسع عشر في آيات مولده وظهور بركته

الباب العشرون في شرف أخلاقه وكمال فصائله

الباب الحادي والعشرون في مبتدى بعثته واستقرار نبوته

وأنا أسأل الله تعالى حسن معونته وأرغب إليه في توفيقه وهدايته وعلى آله وصحابه وهو حسبي ونعم الوكيل

في مقدمة الأدلة

و الأدلة ما أوصلت إلى العلوم بالمدلول عليه و الدليل معلوم بالعقل و الدليل عليه معلوم بالدليل فيكون العقل موصلا إلى الدليل و ليس بدليل لأن العقل أصل كل معلوم من دليل و مدلول عليه و لذلك سمي أم العلم فصار العقل مستدلا و إن لم يكن دليلا و العلم الحادث عنه ما تميز به الحق من الباطل و الصحيح من الفاسد و الممكن من الممتنع و هو على ضربين : علم اضطرار و علم اكتساب علم الاضطرار :

فأما علم الاضطرار فهو ما أدرك ببداهة العقول وهو نوعان : حسن ظاهر و خير متواتر و علم الحس متأخر عن العقل و علم الخير متقدم عليه و لا يفتقر علم الاضطرار إلى نظر و استدلال لإدراكه ببديهة العقل و يشترك فيه الخاصة و العامة و لا يتوجه إليه جحد و لا تحسن المطالبة فيه بدليل لأنه غاية لتناهي النظر علم الاكتساب :

و أما علم الاكتساب فطريقة النظر و الاستدلال : لأنه غير مدرك ببديهة العقل فصح أن يتوجه إليه الاعتراض فيه بطلب الدليل عليه فلذلك لم يتوصل إليه إلا بالنظر و الاستدلال و هو على ضربين :

أحدهما : ما كان من قضايا العقول

و الثاني : ما كان من أحكام السمع

قضايا العقول :

فأما قضايا العقول فضربان أحدهما : ما علم استدلالا بضرورة العقل و الثاني : ما علم استدلالا بدليل العقل فأما المعلوم بضرورة العقل فهو ما لا يجوز أن يكون على خلاف ما هو به كالتوحيد فيوجب العلم الضروري و إن كان عن استدلال للوصول إليه بضرورة العقل و أما المعلوم بدليل العقل فهو ما يجوز أن يكون على خلاف ما هو به كأحد الأنبياء إذا ادعى النبوة فيوجب علم الاستدلال و لا يوجب علم الاضطرار لحدوثه عن دليل العقل لا عن ضرورته

ثبوت النبوات :

و اختلف في أصل النبوات على العموم هل يعلم بضرورة العقل أو بدليله على اختلافهم في العبد بالشرائع هل اقترن بالعقل أو بعقبه فذهب من جعله مقترنا بالعقل إلى إثبات عموم النبوات بضرورة العقل و ذهب من جعله متأخرا عن العقل إلى إثباتها بدليل العقل و ذهب أصحاب الإلهام إلى إسقاط الاستدلال بقضايا العقول و جعلوا إثبات المعارف بالإلهام أصلا يغني عن أصل و هذا فاسد بقول الله تعالى : { فاعتبروا يا أولي

الأبصار { فجعله بالاعتبار مدركا دون الإلهام يقال لمن أثبت المعارف بالإلهام لم قلت بالإلهام فإنه استدلال ناقص قال قلته بالإلهام قيل له انفصل عن أسقط الإلهام بالإلهام و عن قال في الإلهام بغير إلهامك في جميع أقوالك فلا تجد فصلا و كفى في ذلك فسادا فإذا ثبت أن كلا الضربين مدرك بقضية العقل فيما علم بضرورته من التوحيد أو بدليله من النبوة صار بعد العلم به واجبا

وجوب الإيمان بالأنبياء :

و اختلف في وجوبه هل و جب بما صار معلوما به من قضية العقل أو بالسمع ؟ فذهب قوم إلى وجوب التوحيد و النبوة بالعقل كما علم بالعقل و يكون التوحيد و عموم النوات قبل السمع فرضا

و ذهب آخرون إلى وجوبهما بالسمع و إن علما بالعقل لأن الوجوب تعبد لا يثبت إلا بالسمع و اختلف من قال بهذا في وجوب ورود السمع به فأوجبه بعضهم و لم يوجبه آخرون منهم و أسقطوا فرض التوحيد عن العقلاء إذا لم يرد سمع بإيجابه

و ذهب آخرون إلى أن ما علم بضرورة العقل من التوحيد واجب بالعقل و ما علم بدليل العقل من النبوة واجب بالسمع لأن التوحيد أصل و النبوة فرع والاجتهاد فيهما فرض على أعيان ذوي العقول إذا اقترن بكمال عقله قوة الفطنة و صحة الروية فيستغني بكمال عقله و صحة رويته عن تنبيه ذوي العقول الوافرة ليصل باجتهاد عقله من اضطرار أو استدلال إلى قضايا العقول ليصير عالما بها و مستغنيا عن عقل غيره فيها و إن ضعفت فطنته و قلت رويته لزمه أن يتنبه بذوي العقول على الوصول إليها بعقله لا بعقولهم فيعلمها بالتنبيه كما علمها غيره بالنظر و إن لم يصل إليها بالتنبيه فليس بكامل العقل و يصير تبعا لذوي العقول لأن عدم الموجب دال على سقوط الموجب ما هو العقل :

و العقل : هو ما أفاد العلم بموجباته و قيل : بل هو قوة التمييز بين الحق و الباطل و قيل : هو العلم بخفيات الأمور التي لا يوصل إليها إلا بالاستدلال و النظر و هو ضربان : غريزي هو أصل و مكتسبي هو فرع فأما الغريزي فهو الذي يتعلق به التكليف و يلزم به التعبد و أما المكتسب فهو الذي يؤدي إلى صحة الاجتهاد و قوة النظر و يمتنع أن يتجرد المكتسب عن الغريزي و لا يمتنع أن يتجرد الغريزي عن المكتسب لأن الغريزي أصل يصح قيامه بذاته و المكتسب فرع لا يصح قيامه إلا بأصله و من الناس من امتنع من تسمية المكتسب عقلا لأنه من نتائجه و لا اعتبار بالنزاع في التسمية إذا كان المعنى مسلما الإيمان بالسمع :

و أما أحكام السمع فمأخوذة عن يلزم طاعته من الرسل و العقل مشروط في التزامها و إن لم يكن السمع مشروطا في قضايا العقول و ما يتضمنه السمع نوعان : تعبد و إنذار فالتعبد الأوامر و النواهي و الإنذار الوعد و الوعيد فإن جمع الرسول بين التعبد و الإنذار فهو الشرع الكامل المعني عن غيره و إن انفرد بالتعبد دون الإنذار فإن تقدمه إنذار غيره كمل الشرع بعبدته و إنذاره من تقدمه و إن لم يتقدمه إنذار من غيره إما في مبادئ النوات أو في من لم تبلغهم دعوة الأنبياء هل تقتضي العقول الثواب ؟

فقد اختلف في قضايا العقول هل تقتضي الثواب على الطاعة و العقاب على المعصية ؟ فذهب فريق إلى اقتضاءهما

لذلك فعلى هذا يكون شرعا كمل بتعبد الرسول و إنذار العقول
و ذهب فريق إلى أن قضايا العقول لا تقتضي ثوابا و لا عقابا فعلى هذا اختلف في التعبه هل يكون مستحقا على ما
تقدم من نعم الله تعالى على خلقه أو لجزاء مستقبل ؟
فذهب فريق إلى استحقاقه بسابق النعمة فإن وعد الله تعالى ثوابا عليه كان تفضلا منه يستحق بالوعد دون التعبه
فعلى هذا يكون التعبه فرضا مستحقا يقتضي تركه عقابا و إن لم يقتض فعله ثوابا
و ذهب آخرون إلى استحقاقه بما يقابله من الجزاء بالثواب عليه و ما تقدم من النعمة تفضل منه فعلى هذا يكون
التزام التعبه مستحبا و ليس بمستحق فلا يلزم على تركه عقاب كما لم يستحق على فعله ثواب لأنه لم يقتترن به
وعد بثواب يوجب التزام التعبه
و إن انفرد الرسول بالإذار دون التعبه فالإذار لا يكون إلا على فعل و إلا كان عبثا لا يصدر عن كليم فإن كان
إنذاره على شرع تقدمه تضمن إنذاره إثبات ذلك الشرع و كان هذا المنذر من أمة ذلك المعبه و إن كان المعبه
قد أذار كان هذا الإذار تأكيدا و لم يحتج هذا المنذر إلى إظهار معجز و إن لم يكن المعبه قد أذار تكامل شرع
المعبه بإنذار المتأخر و تكامل إنذار المتأخر بتعبه المتقدم و احتاج هذا المنذر إلى إظهار معجز إلى إنذاره موجب
لكمال الشرع و إن أذار المتأخر على فعل الخير و اجتناب الشر خرج عن حكم الشرع إلى الوعظ و الزجر بأمر
إلهي يستحق له بسط اليد في الإنكار و استيفاء ما تضمنه الإذار

في معرفة الإله المعبود

لا يصح التعبه بعبثة الرسل إلا بعد معرفة المعبود المرسل ليعلم أنهم رسل مطاع معبود فيطاعوا لقرض طاعة المعبود
و المعبود هو الله عز و جل المنعم على عباده بما كلفهم من عبادته و افترض عليهم من طاعته بعد النعمة عليهم بخلق
ذواتهم و الإرشاد إلى مصالحهم و استودعهم علم اضطرار يدرك ببداية العقول و علم اكتساب يدرك بالفكر و
النظر و لما كانوا محجوبين عن ذاته لم يدركوه ببداية الحواس اضطرابا و قد ظهر من إظهار آثار صنعته و إتقان
حكيمته ما يوصل إلى معرفة ذاته و صفاته اكتسابا لإدراكها بالاعتبار و النظر و لو شاء لخلق ما يدرك ببداية
الحواس لكن معرفته بالاستدلال أبلغ في الحكمة لظهور التباين في الرتبة فلذلك ما امتنع الوصول إلى معرفته
اضطرابا و وصل إليها استدلالا و اكتسابا يخرج عن بداية العقول إلى استدلال معقول و الذي يؤدي إلى معرفته
جل جلاله ثلاثة فصول :

أحدهما : أن العالم محدث و ليس بقديم

و الثاني : أن للعالم محدثا قديما

و الثالث : أنه واحد لا شريك له

حلوث العالم :

فأما الفصل الأول في حلوث العالم فالحدث ما كان له أول و القديم ما لا أول له و الدليل على حلوث العالم شيان
:

أحدهما : أن العالم جواهر و أجسام لا تنفك عن أعراض محدثة من اجتماع و افتراق و حركة و سكون و إنما كانت
الأعراض محدثة لأمرين :

أحدهما : أنه لا يصح قيامها بذواتها و الثاني : لوجودها بعد علمها و زوالها بعد وجودها و ما لم ينفك عن الأعراض

الحدث لم يسبقها لأنه لو سبقها لكان لا مجتمعا و لا مفترقا و لا متحركا و لا ساكنا و هذا مستحيل فاستحال سبقه و ما لم يسبق الحدث فهو محدث

فإن قيل : فليس يستكر أن تكون الحوادث الماضية لا أول لها فلم يلزم حدوث العالم قيل : إذا كان لكل واحد من الحوادث أول استحالة أن لا يكون لجميعها أول لأنها ليست غير آحادها فصارت جميعها محدثة لأنها ذوات أوائل محدثة

و الدليل الثاني على حدوث العالم : وجوده محدودا متناهيا الأجزاء و الأبعاد و ما تناهت أجزاؤه و أمكن توهم الزيادة عليه و النقصان منه كان تقديره على ما هو به دليلا على أن غيره قدره إذ ليس كون ذاته على صفة بأولى من كونه على غيرها لولا تدبر غيره لها

فإن قيل : فلم لا كانت طينته قديمة و أعراض تركيبه و تصويره حادثة كأفعال الله تعالى حادثة عن ذاته القديمة قيل : لأن حدوث أعراضه فيه وهو لا ينفك منها فصار محدثا بها و أفعال الله تعالى حادثة في غيره فلم يمنع حدوثها من قدمه و لو حدثت فيه لمنعت من قدمه

محدث العالم قديم :

و أما الفصل الثاني أن للعالم محدثا قديما فالدليل على أن له محدثا قديما شيان أحدهما : أنه لما استحال أن يكون للعالم محدثا لذاته لإفضائه إلى وجوده قبل حدوثه دل على أن محدثه غيره و الثاني : أن وجود ما لم يكن يوجب أن يقتضي موجدا كما يقتضي المبني بانيا و المصنوع صانعا و الدليل على قدم محدثه شيان أحدهما : أنه لا أول له و ما لا أول له قديم و الثاني : أنه لو لم يكن قديما لاحتاج محدثه إلى محدث و لا تنتهي إلى ما لا غاية له فامتنع و ثبت قدمه أنه لم يزل و لا يزال فلم يكن له أول و لا يكون له آخر و إذا كان محدثه قديما و جب أن يكون قادرا مريدا و الدليل على قدرته أنه يصح نه أن يفعل و لا يفعل مع انتفاء الموانع و قد فعل فدل وجود الفعل منه على قدرته عليه و الدليل على أنه مريد أنه لما وجد منه الفعل و هو غير ساه و لا مكروه و لا عابث لانتفاء السهو عنه بعلمه و انتفاء الإكراه عنه بحكمته دل على إرادته كما كانت كتابة الكاتب مع انتفاء هذه العوارض دليلا على إرادة كاتبه فصار إحداثه للعالم دليلا على قدمه و حدوث أفعاله و قدمه يوجب أن يكون صفات ذاته قديمة لقدمه و حدوث أفعاله يوجب أن تكون صفات أفعاله محدثة

الحدث واحد لا شريك له :

و أما الفصل الثالث : أنه واحد لا شريك له و لا مثل فالدليل عليه شيان : أحدهما : أن عموم قدرته شامل لجميع الأحداث فوجب أن يكون محدث بعضها محدثا لجميعها إذ ليس بعضها بأخص بقدرته من بعض فأوجب تكافؤ الأمرين عموم الجميع

و الثاني : أنه لو كان معه غيره لم يخل أن يكون ماثلا أو مخالفا فإن خالفه بطل أن يكون قادرا و إن ماثله استحال وجود إحداث واحد من محدثين كما استحال وجود حركة واحدة من متحركين زعم من أشرك :

و ذهب الثنوية من المتباينة إلى إثبات قديمين هما عندهم : نور و ظلمة يحدث الخير عن النور و الشر عن الظلمة و هذا فاسد من وجهين :

أحدهما : أن النور و الظلمة لا ينفكان أن يكونا جسما أو جوهر أو عرضا و جميعها محدثة فدل على حدوثهما و الثاني : أن الظلمة ليست بذات و إنما هي فقد النور عما يقبل النور و لهذا إذا فقدنا النور في الهواء تصورناه

مظلما فلم يجوز أن يرصف بقدم و لا يضاف إليها فعل

و ذهب الجوس إلى أن الله تعالى و الشيطان فاعلان فالله تعالى فاعل الخير و خالق الحيوان النافع و الشيطان فاعل الشر و خالق الحيوان الضار قالوا : لأن فاعل الشر شرير و يتعالى الله عن هذه الصفة و جعلوا الله تعالى جسما و إن كان قديما و اختلفوا في قدم الشيطان فقال به بعضهم و امتنع من قدمه زرادشت و أكثرهم و اختلفوا في علة حدوثه فزعم زرادشت أن الله تعالى اسوحش ففكر فكرة رديئة فتولد منها أهرمن و هو إبليس و قال غيره بل شك فتولد الشيطان من شكه و قال آخرون بل حدث عفن فتولد الشيطان من عفنه و هذه أقاويل تدفعها العقول أما جعلهم الله تعالى جسما : فدللنا على حدوث الأجسام يمنع أن يكون الله تعالى مع قدمه جسما : و دللنا على الثبوتية يمنع أن يكون الشيطان معه ثانيا و إثبات قدرته يمنع أن يكون مغلوبا و علمه يمنع أن يكون شاكاً أو مفكراً و انتفاء الحزن عنه يمنع أن يكون مسوحشا و امتناع الفساد عليه يمنع أن يكون عفنا و قولهم : إن فاعل الشر شرير قيل خروجه عن قدرته مثبت لعجزه فوجب أن يدخل في عموم قدرته دين النصارى :

فأما النصارى فقد كانوا قبل أن تنصر قسطنطين الملك على دين صحيح في توحيد الله تعالى و نبوة عيسى عليه السلام ثم اختلفوا في عيسى بعد تنصر قسطنطين و هو أول من تنصر من ملوك الروم فقال أوائل النسطورية إن عيسى هو الله و قال أوائل اليعاقبة إنه ابن الله و قال أوائل الملكانية إن الآلهة ثلاثة أحلهم عيسى ثم عدل أو اخرهم عن التصريح بهذا القول المستكر حين استنكرته النفوس و دفعته العقول فقالوا : إن الله تعالى جوهر واحد هو ثلاثة أقانيم : أقتوم الأب و أقتوم الابن و أقتوم القدس و إنما واحدة في الجوهرية و ان أقتوم الأب الذات و أقتوم الابن هو الكلمة و أقتوم روح القدس هو الحياة

الأقانيم عند النصارى : و اختلفوا في الأقانيم فقال بعضهم : هي خواص و قال بعضهم هي أشخاص و قال بعضهم : هي صفات و قالوا : إن الكلمة اتحدت بعيسى و اختلفوا في الاتحاد

فقال النسطورية : معنى الاتحاد أن الكلمة ظهرت حتى جعلته هيكلًا و أن المسيح جوهران أقتومان أحدهما إلهي و الآخر إنساني فلذلك صح منه الأفعال الإلهية من اختراع الأجسام و إحياء الموتى و الأفعال الإنسانية من الأكل و الشرب

و قال اليعاقبة : الاتحاد هو الممازجة حتى صار منها شيء ثالث نزل من السماء و تجسد من روح القدس و صار إنسانا هو المسيح و هو جوهر من جوهرين و أقتوم من أقتومين جوهر لاهوتي و جوهر ناسوتي و قال الملكانية المسيح جوهران : أقتوم واحد و ليس لهذه المذاهب شبهة تقبلها العقول و فسادها ظاهر في المعقول الرد على النصارى :

أما قولهم : إن الله تعالى جوهر فقد دللنا على حدوث الجواهر فاستحال أن يكون القديم جوهرًا و أما قولهم : إنه ثلاثة أقانيم فإن جعلوها أشخاصا و قالوا بالتثليث و امتنعوا من التوحيد و قد دللنا على أن القديم واحد و إن جعلوا الأقانيم خواص و صفات لذات واحدة فقد جعلوه أبًا و ابنا من جوهر أبيه فشاركوا بينهما في الجوهر الإلهي و فضلوه على الأب بالجوهر الإنساني فلم يكن مع اشتراكهما في الجوهر الإلهي أن يتولد من الأب بأولى أن يتولد منه الأب مع تفضيله بالجوهر الإنساني و كيف يكون قديما ما تولد عن قديم ؟ و إنما ظهرت منه الأفعال الإلهية لأنها من قبل الله تعالى إظهارا لمعجزته و ليست من فعله : كخلق البحر لموسى عليه السلام و ليس ذلك من إلهية موسى و قولهم جوهر لاهوتي و جوهر ناسوتي فناسوت المسيح كناسوت غيره من الأنبياء و قد زال ناسوته

فبطل لاهوته

معنى الوجدانية : فإذا ثبت أن الله تعالى واحد قديم فقد اختلف في معنى وحدانيته فقالت طائفة : المراد بأنه واحد : أن جميع الأحداث منسوبة إلى قدرة واحدة أحدث القادر بها جميع الأحداث
وقالت طائفة أخرى : المراد به نفي القسمة عن ذاته واستحال التبعض والتجزئة في صفته
وقال الجمهور : — وهو المذهب المشهور — : إنه واحد الذات قديم الصفات تفرد بالقدم عن شريك مماثل و
اختص بالقدرة عن فاعل معادل لا شبه لذاته تنتفي عنه الحوادث والأعراض ولا تناله المنافع والمضار ولا يعت
بكل ولا بعض ولا يوصف بمكان يحل فيه أو يخلو منه لحدوث الأمكنة استحالة التجزئة : { ليس كمثلته شيء وهو
السميع البصير } كما وصف نفسه في كتابه و دلت عليه آثار صنعته وإتقان حكمته وقد سئل علي بن أبي طالب
كرم الله تعالى وجهه عن العدل والتوحيد فقال : [التوحيد أن لا توهمه والعدل أن لا تتهمه] ففصح بما بهر
إيجازه وقهر إعجازه وقد لحظ دلائل التوحيد من السعداء من قال :
(أيا عجباً كيف يعصي الإله ... أم كيف يجحده جاحد)
(و في كل شيء له شاهد ... دليل على أنه واحد)

الباب الثالث — في صحة التكليف

معنى التكليف :

التكليف هو إلزام ما ورد به الشرع تعبدًا وهو نوعان :
أحدهما : ما تعلق بحقه من أمر بطاعة ونهي عن معصية
والثاني : ما تعلق بحقوق عباده من تقدير الحقوق وتقرير العقود ليكونوا مدبرين بشرع مسموع ومنقادين لدين
متبوع فلا تختلف فيه الآراء ولا تتبع فيه الأهواء وليعلموا به ابتداء النشأة وانتهاء الرجعة فتصلح به سرائرهم
الباطنة له وتخضع له قلوبهم القاسية وتجتمع به كلمتهم المتفرقة وتتفق عليه أحوالهم المختلفة ويسقط به تنازعهم
في الحقوق المتجاذبة ويكونوا على رغب في الثواب يبعثهم على الخير ورهب من العقاب يكفهم عن الشر وهذه
أمور لا يصلح الخلق إلا عليها ولا يوصل بغير الدين المشروع إليها إذ ليس في طباع البشر أن يتفقوا على مصالحهم
من غير وازع ولا يتناصفوا في الحقوق من غير دافع لحرصهم على اختلاف المنافع وبهذا يفسد ما ذهبت إليه
البراهمة من الاقتصار على قضايا العقول وإبطال التعبد بشرائع الرسل
فالتكليف حسن في العقول إذا توجه إلى من علمت طاعته واختلف في حسنه إذا توجه إلى من علمت معصيته و
استحسنه المعتزلة لأن فيه تعريضاً للثواب ولم يستحسنه الأشعرية لأنه بالمعصية معرض للعقاب والأول أشبه
بمذهب الفقهاء وإن لم يعرف لهم فيه قول يحكى
التكليف بالأصلح :

واختلف في التكليف هل يكون معتبراً بالأصلح فالذي عليه أكثر الفقهاء : أنه معتبر بالأصلح لأن المقصود به
منفعة العباد وذهب فريق من الفقهاء والمتكلمين إلى أنه موقوف على مشيئة الله تعالى من مصلحة وغيرها لأنه
مالك لجميعها

فمن اعتبر الأصلح منع من تكليف ما لا يطاق ومن اعتبره بالمشيئة جوز تكليف ما لا يطاق ويصح تكليف ما
لحق فيه المشقة المحتملة

و اختلف في صحة التكليف فيما لا مشقة فيه فجوزها الفقهاء و منع منها بعض المتكلمين و قد ورد التعبد بتحويل القبلية عن بيت المقدس إلى الكعبة و ليس فيه مشقة و إذا اعتبر التكليف بالاستطاعة لم يتوجه إلى ما خرج عن الاستطاعة و اختلف في المانع منه فقال فريق : منع منه العقل لامتناعه فيه و قال فريق : منع منه الشرع و إن لم يمنع منه العقل بقواه تعالى : { لا يكلف الله نفسا إلا وسعها }

وجوب التكليف :

فإذا تقرر شروط التكليف مع كونه حسنا فقد اختلف في وجوبه فأوجب من اعتبر الأصلح و جعله مقترنا بالعقل لأنه من حقوق حكمته و لم يوجب من حمله على الإرادة لأن الواجب يقتضي علو الموجب و هذا منتف عن الله تعالى و اختلف من قال بهذا في تقدم العقل على الشرع

فقال فريق : يجوز أن يقتصر بالعقل و يجوز أن يتأخر عنه بحسب الإرادة و لا يجوز أن يتقدم على العقل لأن العقل شرط في لزوم التكليف

و قال فريق : بل يجب أن يكون التكليف واردا بعد كمال العقل و لا يقتصر به كما يتقدم عليه لقوله الله تعالى : { أيحسب الإنسان أن يترك سدى } و هذه صفة متوجهة إليه بعد كمال عقله التكليف الشرعي :

و قد استقر بما قدمناه أن التكليف الشرعي ما تضمنه الأوامر و النواهي في حقوق الله تعالى و حقوق عباده و المأمور به ضربان : واجب و ندب

فالواجب ما وجب أن يفعل والندب ما الأولى أن يفعل

و المنهي عنه ضربان : مكروه و محظور فاحظور ما وجب تركه والمكروه ما الأولى تركه

فأما المباح فما استوى فعله و تركه فلا يجب أن يفعل و لا الأولى أن يفعل و لا يجب أن يترك و لا الأولى أن يترك و اختلف في دخول المباح في التكليف

فذهب بعض أصحاب الشافعي رحمه الله إلى دخوله في التكليف و اختلف قائل هذا هل دخل فيه بإذن أو بأمر على وجهين أحدهما : بإذن ليخرج حكم الندب والثاني : بأمر دون أمر الندب كما أن أمر الندب دون أمر الواجب و ذهب آخرون من أصحاب الشافعي رحمه الله إلى خروجه من التكليف بإذن أو أمر لاختصاص التكليف بما تضمنه ثواب أو عقاب و اتفقوا في المباح أنه لا يستحق عليه حمد و لا ذم و يخرج عن القبيح و اختلفوا في دخوله في الحسن فادخله بعضهم فيه و أخرجه بعضهم منه

التكليف والإرادة :

و الأمر بالتكليف هو استدعاء الطاعة بالانقياد للفعل و اختلفوا في اقتران الإرادة به هل يكون شرطا في صحته ؟

فذهب الأشعري إلى أن الإرادة غير معتبرة فيه و يجوز أن يأمر بما لا يريد و لا يكون أمرا كالذي يريده و ذهب

المعتزلة إلى أنه لا يكون أمرا إلا بالإرادة فإن لم تعلم إرادته لم يكن أمرا

و اختلفوا هل تعتبر إرادة الأفراد إرادة المأمور به فاعتبر بعضهم إرادة الأمر المنطوق به و اعتبر آخرون منهم إرادة الفعل المأمور به

و الذي عليه جمهور الفقهاء أن الأمر دليل على الإرادة و ليست الإرادة شرطا في صحة الأمر و إن كانت موجودة

مع الأمر فيستدل بالأمر على الإرادة و لا يستدل بالإرادة على الأمر

هل صحة الأمر موافقة العقل ؟

و من صحة الأمر أن يكون بما لا يمنع منه العقل فإن منه العقل لم يصح الأمر به لخروج التكليف عن محظورات العقول

و اختلف هل يعتبر صحته بحسنه في العقل ؟ فاعتبره فريق و أسقطه فريق و إذا لم يكن يستوعب نصوص الشرع قضايا العقول كلها جاز العمل بمقتضى العقل فيها

و اختلف في إلحاقها بأحكام الشرع فألحقها فريق بها و جعلها داخلة فيها لأن الشرع لا يخرج عن مقتضاها و أخرجهما فريق منها وإن جاز العمل بها كالمشروع لأن الشرع مسموع و العقل متبوع الأمر يكون بالقول :

و الأمر يكون بالقول أو ما قام مقام القول إذا عقل منه معنى الأمر و اختلف فيه متى يكون أمرا فذهب جمهور الفقهاء و المتكلمين إلى أنه يكون أمرا وقت القول و يتقدم على الفعل

و ذهب شاذ من الفقهاء و المتكلمين إلى أنه يكون أمرا وقت الفعل و ما تقدمه من القول إعلام بالأمر و ليس بأمر و هذا فاسد لأن الفعل يجب بالأمر فلو لم يكن ما تقدمه أمرا لاحتاج مع الفعل إلى تجديد أمر

أمر الإعلام و أمر الإلزام :

و الأمر ضربان : أمر إعلام و أمر إلزام

فأما أمر الإعلام فمختص بالاعتقاد دون الفعل و يجب أن يتقدم الأمر على الاعتقاد بزمان واحد و هو وقت العلم به و أما أمر الإلزام فمتوجه إلى الاعتقاد و الفعل فيجمع بين اعتقاد الوجوب و إيجاد الفعل و لا يجزئه الاقتصار على أحدهما فإن فعله قبل اعتقاد وجوبه لم تجزه و إن اعتقد وجوبه و لم يفعله كان مأخوذا به

و لا يلزم تجديد الاعتقاد عند فعله إذا كان على ما تقدم من اعتقاده لأن الاعتقاد تعبد التزام و الفعل تأدية مستحق و يجب أن يتقدم الأمر على الفعل بزمان الاعتقاد و اختلف في اعتبار تقديمه بزمان التأهب للفعل على مذهبين

أحدهما : و هو قول شاذ من الفقهاء يجب تقديمه على الفعل بزمانين أحدهما : زمان الاعتقاد و الثاني : زمان التأهب للفعل و به قال من المتكلمين من اعتبر القدرة قبل الفعل

و المذهب الثاني : و هو قول جمهور الفقهاء يعتبر تقديم الأمر على الفعل بزمان الاعتقاد وحده و التأهب للفعل شروع فيه فلم يعتبر تقدمه عليه و به قال من المتكلمين من اعتبر القدرة مع الفعل

الباب الرابع — في إثبات النبوات

حاجة الناس إلى الرسل :

و الأنبياء هم رسل الله تعالى إلى عباده بأوامر و نواهيه زيادة على ما اقتضته العقول من واجباتها و إلزاما لما جوزته من مباحاتها لما أراد الله من كرامة العاقل و تشريف أفعاله و استقامة أحواله و انتظام مصالحه حين هيأه للحكمة و طبعه على المعرفة ليجعله حكيما و بالعواقب عليما لأن الناس بنظرهم لا يدركون مصالحهم بأنفسهم و لا يشعرون لعواقب أمورهم بغرائزهم و لا ينزجرون مع اختلاف أهوائهم دون أن يرد عليهم آداب المرسلين و أخبار القرون الماضية فتكون آداب فيهم مستعملة و حدوده فيهم متبعة و أوامره فيهم ممثلة و وعده و وعيده فيهم زاجرا و قصص من غير من الأمم و اعظافا فإن الأخبار العجيبة إذا طرقت الأسماع و المعاني الغريبة إذا أيقظت الأذهان

استمدتها العقول فزاد علمها و صح فهمها و أكثر الناس سماعا و أكثرهم خواطر و أكثرهم تفكرا و أكثرهم تفكرا أكثرهم علما و أكثرهم علما أكثرهم عملا فلم يوجد عن بعثته الرسل معدل و لا منهم في انتظام

الحق بدل

منكر و النبوات :

و أنكر فريق من الأمم نبوات الرسل و هم فيها ثلاثة أصناف :

أحدها : ملحدة دهرية يقولون يقدم العالم و تدبير الطبائع فهم يأنكار المرسل أجدر أن يقولوا يأنكار الرسل
و الصنف الثاني : براهمة موحدة يقولون بملوث العالم و يحددون بعثة الرسل و يبطلون النبوات و هم المنسوبون إلى
بهر من صاحب مقالاتهم و شذ فريق منهم فادعى أنه آدم أبو البشر و منهم من قال هو إبراهيم و من قال من هذه
الفرقة الشدة منهم أنه أحد هذين أقر بنبوتهما و أنكر نبوة من سواهما و جمهورهم على خلاف هذه المقالة في
اعتراضهم لصاحب مقالاتهم و إنكار جميع النبوات عموما

و الصنف الثالث : فلاسفة لا يتظاهرون بإبطال النبوات في الظاهر و هم مبطلوها في تحقيق قولهم لأنهم يقولون : إن
العلوم الربانية بعد كمال العلوم الرياضية من الفلسفة و الهندسة ليضعها من كملت رياضته إذا كان عليها مطبوعا
الرد على منكري النبوات :

و اختلف من أبطل النبوات في علة إبطالها فذهب بعضهم إلى أن العلة في إبطالها أن الله تعالى قد أغنى عنها بما دلت
عليه العقول من لوازم ما تأتي به الرسل و هذا فاسد من وجهين : أحدهما : أنه لا يمنع ما دلت عليه العقول جواز
أن تأتي به الرسل وجوبا و لو كان العقل موجبا لما امتنع أن تأتي به الرسل وجوبا و لو كان العقل موجبا لما امتنع أن
تأتي به الرسل تأكيدا كما تترادف دلائل العقول على التوحيد و لا يمنع وجود بعضها من وجود غيرها
و الثاني : إنه لا تستغني قضايا العقول عن بعثة الرسل من وجهين : أحدهما : إن قضايا العقول قد تختلف فيما
تكافأت فيه أدلتها فانحسم ببعثه الرسل اختلافها

و الثاني : أنه لا مدخل للعقول فيما تأتي به الرسل من الوعد و الوعيد و الجنة و النار و ما يشعرونه من أوصاف
التعبد الباعث على التأله فلم يغن عن بعثة الرسل
و ذهب آخرون منهم إلى أن العلة في إبطال النبوات أن بعثة الرسل إلى من يعلم من حالتهم أنهم لا يقبلون منهم ما
بلغوه إليهم عبث يمنع من حكمة الله تعالى و هذا فاسد من وجهين
أحدهما : أنه ليس بعبث أن يكون فيهم من لا يقبله كما لم يكن فيما نصبه الله تعالى من دلائل العقول على توحيده
عبثا و إن كان منهم من لا يستدل به على توحيده كذلك بعثة الرسل
و الثاني : أن وجود من يقبله فهم على هذا التعليل يوجب بعثة الرسل و هم بمنعون إرسالهم إلى من يقبل و من لا
يقبل فبطل هذا التعليل

و قال آخرون منهم : بل العلة فيه أن ما جاء به الرسل مختلف ينقض بعضه بعضا و نسخ المتأخر ما شرعه المتقدم و
قضايا العقول لا تتناقض فلم يرتفع بما يختلف و يتناقض و هذا فاسد من وجهين : أحدهما : أن ما جاء به الرسل
ضربان أحدهما : ما لا يجوز أن يكون إلا على وجه واحد و هو التوحيد و صفات الرب المربوب فلم يختلفوا فيه و
أقواله متاصرة عليه

و الضرب الثاني : ما يجوز أن يكون من العبادات على وجه و يجوز أن يكون على خلافه و يجوز أن يكون في وقت
و لا يجوز أن يكون في غيره و هذا النوع هو الذي اختلفت فيه الرسل لا اختلاف أوقافهم : إما بحسب الأصلح و إما
بحسب الإرادة و هذا في قضايا العقول جائز

و الوجه الثاني : أن قضايا العقول قد تختلف فيها العقلاء و لا يمنع ذلك أن يكون العقل دليلا كذلك ما اختلف فيه

الرسول لا يمنع أن يكون حجة

وقال آخرون منهم : بل العلة في إبطال النبوات أنه لا سبيل إلى العلم بصحتها لغيبها و أن ظهور ما ليس في الطباع من معجزاتهم ممنوع الطباع الدافعة لها فهذا فاسد من وجهين أحدهما : أن المعجزات من فعل الله تعالى فيهم فخرجت عن حكم طباعهم و الثاني : لما تميزوا بخروجهم عن الطباع من الرسالة تميزوا بما يخرج عن عرف الطباع من الإعجاز

وقال آخرون منهم : بل العلة في إبطال النبوات إن ما يظهره من المعجز الخارج عن العادة قد يوجد مثله في أهل الشعبة و المخرفة و أهل النارنجيات و ليس ذلك من دلائل صدقهم فكذلك أحكام المعجزات و هذا فاسد من وجهين أحدهما : أن الشعبة تظهر لنوي العقول و تدلس على الغر الجهول فخالفت المعجزة التي تنهل لها العقول و الثاني : أن الشعبة تستفاد بالتعليم فيتعلمها من ليس يحسنها فيصير مكافئا لمن أحسنها و يعارضها بمثلها و المعجزة مبتكرة لا يتعاطاها غير صاحبها و لا يعارضه أحد بمثلها كما انقلبت عصا موسى حية تسعى تلتقف ما أفكه السحرة فخروا له سجدا

إثبات النبوات :

و لئن كان في إبطاله هذه الشبهة دليل على إثباتها فيستدل على إثبات النبوات من خمسة أوجه و إن اشتملت تلك الأجوبة على بعضها :

أحدها : أن الله تعالى منعم على عباده بما يرشدهم إليه من المصالح و لما كان في بعثة الرسل ما لا تدركه العقول كان إرسالهم من عموم المصالح التي تكفل بها

و الثاني : أن فيما تأتي به الرسل من الجزاء بالجنة ثوابا على الرغبة في فعل الخير و بالنار عقابا يبعث على الرهبة في الكف عن الشر صار سببا لتلافي الخلق و تعاطي الحق

و الثالث : إن في غيوب المصالح ما لا يعلم إلا من جهة الرسل فاستفيد بهم ما لم يستفد بالعقل

و الرابع : أن التأله لا يخلص إلا بالدين و الدين لا يصلح إلا بالرسول المبلغين عن الله تعالى ما كلفت

و الخامس : أن العقول ربما استكبرت من موافقة الأكفاء و متابعة النظراء فلم يجمعهم عليه إلا طاعة المعبود فيما

أداه رسله فصارت المصالح بهم أعم و الإتقان بهم أتم و الشمل بهم أجمع و التنازع بهم أمتع

و يجوز إثبات التوحيد و النبوات بدقيق الاستدلال كما يجوز بجليه فإن ما دق في العقول هو أبلغ في الحكمة و قد

تلوح لابن الرومي هذا المعنى فنظمه في شعره فقال :

(غموض الحق حين يذب عنه ... يقلل ناصر الخصم الحق)

(يجل عن الدقيق عقول قوم ... فيقضي للمجل على المدق)

كيفية بعثة الرسل :

فإذا ثبت جواز النبوات و بعثة الرسل بالعبادات فهم رسل الله تعالى إلى خلقه إما بخطاب مسموع أو بسفارة ملك

منزل و منع قوم من مثني النبوات أن تكون نبوتهم عن خطاب أو نزول ملك لانتفاء المخاطبة الجسمانية عنه تعالى

لأنه ليس بجسم و الملائكة من العالم العلوي بسيط لا تقبض كما أن العالم السفلي كثيف لا يعلو و اختلف من قال

بهذا فيما جعلهم به أنبياء

فقال بعضهم : صاروا أنبياء بالإلهام لا بالوحي و هذا فاسد من وجهين

أحدهما : أن ما بطل به الإلهام المعارف في التوحيد كان إبطال المعارف به في النبوة أحق

و الثاني : أن الإلهام خفي غامض يدعيه الحق و المبطل فإن ميزوا بينهما طلبت أمانة و إن عدلوا عن الإلهام فذلك دليل يطل الإلهام

و قال آخرون منهم : إنما صاروا أنبياء لأن الله تعالى في العالم خواص و أسراراً تخالف مجرى الطبائع فمن أظفره الله تعالى بها من خلقه استحق بها النبوة و هذا فاسد من وجهين :

أحدهما : خفاؤها فيه غير دليل على صدقه

و الثاني : أنه يكون نبيا عن نفسه لا عن ربه فصار كغيره

و قال آخرون : بل صاروا أنبياء لأن الله تعالى خصهم من كمال العقول بما يتواصلون به إلى حقائق الأمور فلا يشبه عليهم منها ما يشبهه على غيرهم فصاروا أنبياء عن عقولهم لا عن ربه و هذا فاسد من وجهين :

أحدهما : أن هذا يقتضي فضل العلم في حقه و لا يقتضيه في حق غيره

و الثاني : أنه إن أخبر عن نفسه لم يكن رسولا و إن أخبر عن ربه كان كاذبا

و قال آخرون : إنما صاروا أنبياء لأن التور فيهم صفا و نما بالنور الأعظم الإلهي الذي تخلص به الأفهام و تصح به الأوهام حتى ينتقلوا إلى الطباع الروحانية و يزول عنهم كدر الطباع البشرية فيخرجوا عن شبح الكائنات بصفاء نورهم و خلاصهم و هذا قول الثنوية و هذا فاسد من وجهين :

أحدهما : أنهم دفعوا أسهل الأمور من بعثة الرسل بأغظهما من إعطاء نوره و أولى أن يدفعوا عن الأغظ بما دفعوا به عن الأسهل و الثاني : أنهم أثبتوا به ممازجة الباري سبحانه فيما اختص بذاته و مخالفة الذات تمنع من ممازجته الرد على المعترض :

و الجواب عما قالوه من امتناع المخاطبة الجسمانية عن ليس بجسم من وجهين :

أحدهما : أنه لا يمنع أن يظهر منه كخطاب الأجسام و إن لم يكن جسما كما يظهر منه كأفعال الأجسام و إن لم يكن جسما

و الثاني : أن الله تعالى يجوز أن يودعه خطابه في الأسماع حتى تعيه الأذان و تفهمه القلوب بقدرته التي أخفاها عن خلقه

و الجواب عما ذكره من : أن جرم الملائكة علوي لا ينهبط من وجهين :

أحدهما : أنه ليس يمنع أن ينتقل جرم سماوي لطيف إلى جرم أرضي كثيف إما بزيادة أو انقلاب كما يقولون في العقل و النفس إنهما جرمان علويان هبطا إلى الجسم فحلا فيه

و الثاني : أنهم يقولون باقتراب الأجرام الطبيعات فيقولون : إن الهواء المركب من حرارة و رطوبة إذا ارتفعت حرارته ببرودة صار ماء باردا

و إن الماء المركب من برودة و رطوبة إذا ارتفعت برودته بحرارة صار هواء و أن الهواء المركب من حرارة و رطوبة إذا ارتفعت رطوبته بيبوسة صار نارا فإذا جاز ذلك عندهم في انقلاب الطبائع كان في فعل الله تعالى أجوز و هو عليها أقدر و لا يمكن أن يدفع أقاويلهم الخارجة عن قوانين الشرع إلا بمثلها و إن خرج عن حجاج أمثالنا ليقض قلوبهم بقولهم فلا يتدلس به باطل و لا يضل به جهول فما يضل عن الدين إلا قاذح في أصوله و مزر على أهله شروط صحة النبوة :

فإذا ثبت أن النبوة لا تصلح إلا ممن أرسله الله تعالى بوحيه إليه فصحتها إليه معتبرة بثلاثة شروط تدل على صدقه و وجوب طاعته

أحدها : أن يكون مدعي النبوة على صفات يجوز أن يكون مؤهلا لها لصدق لهجته و ظهور فضله و كمال حاله فإن اعتوره نقص أو ظهر منه كذب لم يجوز أن يؤهل للنبوة من عدم آلتها و فقد أمانتها
بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم خالد بن الوليد إلى بعض أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام فقالوا يا خالد :
صف لنا محمدا قال : بإيجاز أم بأطناب قالوا : بإيجاز قال : هو رسول الله و الرسول على قدر المرسل
و الشرط الثاني : إظهار معجز يدل على صدقه و يعجز البشر عن مثله لتكون مضاهية للأفعال الإلهية ليعلم أنها منه
فيصبح بها دعوى رسالته لأنه لا يظهرها من كاذب عليه و يكون المعجز دليلا على صدقه و صدقه دليلا على
صحة نبوته

و الشرط الثالث : أن يقرن بالمعجز دعوى النبوة فإن لم يقرن بالمعجزة دعوى لم يصير بظهور المعجزة نيبا لأن المعجز يدل على صدق الدعوى فكان صفة لها فلم يجوز أن تثبت الصفة قبل وجود الموصوف
فإن تقدم ظهور المعجز على دعوى النبوة كان تأسيسا للنبوة ككلام عيسى عليه السلام في المهد تأسيسا لنبوته
فاحتاج مع دعوى النبوة إلى إحداث معجز يقرن بها ليدل على صدقه فيها
و إن تقدمت دعوى النبوة على المعجز اكتفى بحدوث المعجز بعدها عن اقترانه بها لأن استصحابه للدعوى مقترن بالمعجز فإن ظهر المعجز المقترن بالدعوى لبعض الناس دون جميعهم نظر فإن كانوا عددا يتواتر بهم الخبر و يستفيض فيهم الأثر كان الغائب عنه محجوبا بالمشاهد له في لزوم الإجابة و الانقياد للطاعة كما يكون العصر الثاني محجوبا بالعصر الأول و إن كان المشاهد للمعجز عددا لا يستفيض بهم الخبر و لا يتواتر بهم الأثر لإمكان تواطئهم على الكذب و يتوجه إلى مثلهم الخطأ و الزلل كان المعجز حجة عليهم و لم يكن حجة على غيرهم حتى يشاهدوا من المعجز ما يكونوا محجوبين به و سواء كان من جنس الأول أو من غير جنسه فإن قصر من شاهد الأول عن عدد التواتر و قصر من شاهد الثاني عن عدد التواتر لم يثبت حكم التواتر فيهما و لا في واحد منهما لجواز الكذب على كل واحد من العددين

المعجزات تحرق العادات

و إذا كانت حجج الأنبياء على أممهم هي المعجز الدال على صدقهم فالمعجز ما خرق عادة البشر من خصال لا تستطيع إلا بقدرة إلهية تدل على أن الله تعالى خصه بها تصديقا على اختصاصه برسالته فيصير دليلا على صدقه في ادعاء نبوته إذا وصل ذلك منه في زمان التكليف و أما عند قيام الساعة إذا سقطت فيه أحوال التكليف فقد يظهر فيه من أسراطها ما يخرق العادة فلا يكون معجزا مدعي نبوة و إنما اعتبر في المعجز خرق العادة لأن المعتاد يشمل الصادق و الكاذب فاخص غير المعتاد بالصادق دون الكاذب
أنواع المعجزات :

و إذا تقرر أن المعجز محدود بما ذكرناه من خرق العادة فقد ينقسم ما خرج عن العادة على عشرة أقسام :
أحدها : ما يخرج جنسه عن قدرة البشر كاختراع الأجسام و قلب الأعيان و إحياء الموتى فقليل هذا و كثير معجز خروج قليله عن القدرة كخروج كثيره

و القسم الثاني : ما يدخل جنسه في قدرة البشر لكن يخرج مقداره عن قدرة البشر كطي الأرض البعيدة في المدة القريبة فيكون معجزا لخرق العادة

و اختلف المتكلمون في المعجز منه فعند بعضهم أن ما خرج عن القدرة منه يكون هو المعجز خاصة لا اختصاصه

بالمعجز و عند آخرين منهم إن جميعه يكون معجزا لاتصاله بما لا يتميز منه

و القسم الثالث : ظهور العلم بما خرج عن معلوم البشر كالإخبار بحدوث الغيوب فيكون معجزا بشرطين :

أحدهما : أن يتكرر حتى يخرج عن حد الاتفاق

و الثاني أن يتجرد عن سبب يستدل به عليه

و القسم الرابع : ما خرج نوعه عن مقدور البشر و إن دخل جنسه في مقلور البشر كالقرآن في خروج أسلوبه عن أقسام الكلام فيكون معجزا بخروج نوعه عن القدرة فصار جنسا خارجا عن القدرة و يكون المعجز مع القدرة على آله من الكلام أبلغ في المعجز

و القسم الخامس : ما يدخل في أفعال البشر و يفضي إلى خروجه عن مقدار البشر كالبراء الحادث عن المرض و الزرع الحادث عن البذر فإن برئ للمرض المزمع لوقته و استحصد الزرع التآكل قبل أوانه كان بحرق العادة معجزا لخروجه عن القدرة

و القسم السادس : عدم القدرة عما كان داخلا في القدرة كإصدار الناطق بعجزه عن الكلام و إخبار الكاتب بعجزه عن الكتابة فيكون ذلك معجزا يختص بالعاجز و لا يتعداه لأنه على يقين من عجزه لنفسه و ليس غيره على يقين من عجزه

و القسم السابع : إنطاق حيوان أو حركة جماد فإن كان بأسدعائه أو عن إشارته كان معجزا له و إن ظهر بغير استدعاء و لا إشارة لم يكن معجزا له و إن خرق العادة لأنه ليس اختصاصه به بأولى من اختصاصه بغيره و كان من نواذر الوقت و حوادثه

و القسم الثامن : إظهار الشيء في غير زمانه كإظهار فاكهة الصيف في الشتاء و فاكهة الشتاء في الصيف فإن كان استبقاؤهما في غير زمانهما ممكنا لم يكن معجزا و إن لم يمكن استبقاؤهما كان معجزا سواء بدأ بإظهاره أو طوالب به و القسم التاسع : انفجار الماء و قطع الماء المنفجر إذا لم يظهر بحدوثه أسباب من غيره فهو من معجزاته لخرق العادة به

و القسم العاشر : إشباع العدد الكثير من الطعام اليسير و إرواؤهم من الماء القليل يكون معجزا في حقهم غير معجز في حق غيرهم لما قدمناه من التعليل و هذه الأقسام و نظائرها الداخلة في حدود الإعجاز متساوية الأحكام في ثبوت الإعجاز و تصديق مظهرها على ما ادعاه من النبوة و إن تفاوت الإعجاز فيها و تبين كما أن دلائل الوحيد قد تختلف في الخفاء و الظهور و إن كان في كل منها دليل فأما فعل ما يقدر البشر على ما يقاربه و إن عجزوا عن مثله فليس بمعجز لأن الجنس مقدور عليه و إنما الزيادة فضل حذق به كالصنائع التي يختلف فيها أهلها فلا يكون لأحلقهم بما معجز يجوز أن يدعي به النبوة لا تقبل الخوارق ممن يكذب نفسه :

فإن قيل : فقد جاء زرادشت و بولص بآيات مبهرة و لم تدل على صدقهما في دعوى النبوة قيل : لأنهما قد أكذبا أنفسهما ما ادعياه في الله تعالى مما يدل على جهلهما به لأن بولص يقول إن عيسى إله و زعم زرادشت أن الله تعالى كان وحده و لا شيء معه فحين طالت وحدته فكر فتولد من فكرته : أهرمن و هو إبليس فلما مثل بين عينيه أراد قتله و امتنع منه فلما رأى امتناعه وادعه إلى مدته و سالمه إلى غايته و من قال بهذا في الله تعالى و لم يعرف لم يجز أن يكون رسولا له ثم دعوا إلى القبائح و الأفعال السيئة كما شرع زرادشت الوضوء بالبول و غشيان الأمهات و عبادة النيران و كذلك بولص و ماني فخذلهم الله تعالى و لو دعوا إلى

محاسن الأخلاق كانت الشبهة بهم أقوى و الاغترار بهم أكثر و لكن الله تعالى عصم بالعقول من استرشدوا و قاد إلى الحق من أيقظه بها

لا يظهر الله المعجز إلا لنبي :

و لا يجوز أن يظهر الله تعالى المعجز مما يجعله دليلا على صدقه في غير النبوة و إن كان فيه مطيعا لأن النبوة لا يوصل إلى صدقه فيها إلا بالمعجز لأنه مغيب لا يعلم إلا منه فاضطر إلى الإعجاز في صدقه و غير النبوة من أقواله و أفعاله قد يعلم صدقه فيها بالعيان و المشاهدة و تخرج عن صورة الإعجاز و إن نفذت و إن تشبه معجزات الأنبياء بغيرها و أما مدعي الربوبية إذا أظهر آيات بهرة فقد ذهب قوم إلى أنها قد تكون معجزة بطلت بكذبه فلم يتمتع لظهور بطلانها أن توجد منه و إن لم توجد منه إذا كان كاذبا في ادعاء النبوة لأنه لم يقترب بدعواه ما يبطلها كمدعي

الربوبية

و الذي عليه قول الجمهور أنه لا يجوز أن يظهر المعجز على مدعي الربوبية كما لا يجوز أن يظهر على مدعي النبوة لأن معصيته في ادعاء الربوبية أغلظ و إفكه فيها أعظم فكان بأن لا تظهر عليه أجدر و إذا استوضح ما أظهره مدعي الربوبية من الآيات ظهر فسادها و بان اختلالها فخرجت عن الإعجاز إلى سحر أو شعبذة ثبوت المعجزات بالأخبار المتواترة :

و لما علم الله تعالى أن أكثر عباده لا يشهدون حجج رسله و لا يحضرون آيات أنبيائه إما لعباد الدار أو لتعقب الأعصار طبع كل فريق على الأخبار بما عاين فيعلمه الغائب من الحاضر و يعرفه المتأخر من المعاصر و قد علم مع اختلاف الهمم أن خبر التواتر إذا انتفت عنه الريب حق لا يعترضه شك و صدق لا يشبهه بإفك فصار و روده كالعيان في وقوع العلم به اضطررا فثبت به الحجة و لزم به العلم و قد قال الطفيل الغنوي مع أعرابية في وقوع العلم باستفاضة الخبر ما دلته عليه الفطرة و قاده إليه عليه الطبع فقال :

(تأويني هم من الليل منصب ... و جاء من الأخبار ما لا يكذب)

(تظاهرون حتى لم يكن لي ريبة ... و لم يك عما أخبروا متعقب)

ما يجوز لمدعي النبوة :

و أما ما يجوز لمدعي النبوة فيقسم ثلاثة أقسام : أحدها : أن يكلمه الله تعالى بغير واسطة الثاني : أن يخاطبه بواسطة من ملائكته و الثالث : أن يكون عن رؤيا منام

١ - - كلام الله بلا واسطة :

فأما القسم الأول إذا كلمه الله تعالى بغير واسطة مثل كلامه لموسى عليه السلام حين نودي من الشجرة على ما قدمناه في الاختلاف في صفته فيعلم اضطرارا أنه من الله تعالى و فيما وقع به علم الاضطرار في كلامه لأهل العلم قولان :

أحدهما : أنه يضطره إلى العلم به كما يضطر خلقه إلى العلم بسائر المعلومات فعلى هذا يستدل بمعرفة كلامه على معرفته و يسقط عنه تكليف معرفته و يجوز أن يكون كلامه من غير جنس كلام البشر للاضطرار إلى معرفة ما تضمنه

و القول الثاني : أن يقترب بكلامه من الآيات ما يدل على أنه منه فعلى هذا لا يسقط منه تكليف معرفة و لا يصح أن يكلمه إلا بكلام البشر لعدم الاضطرار إلى معرفته

٢ - — كلام الله بواسطة ملك

و أما القسم الثاني و هو أن يكون خاطبه بواسطة من ملائكته الذين هم رسله إلى أنبيائه فعلى الأنبياء معرفة الله تعالى قبل ملائكته في رسالته و طريق علمهم به الاستدلال ثم يصير بعد نزول الملائكة بمعجزاتهم الباهرة علم الاضطراب و على الملائكة إذا نزلوا بالوحي على الرسول إظهار معجزاتهم له كما يلزم الرسول إظهار معجزته لأمتة روي أن جبريل عليه السلام لما تصدى لرسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة في الوادي قال له قل يا محمد للشجرة أقبلي فقال لها ذلك فأقبلت و قال له : قل لها : أدبري فقال لها ذلك فأدبرت فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم حسبي يعني في العلم بصلقتك فيما أتيتني به عن ربي فتستدل الرسل بالمعجزات على تصديق الملائكة بالوحي و تستدل الأمم بمعجزات الأنبياء على تصديقهم بالرسالة و يكون أخطب الملك لفظا إن كان قرآنا أو ما قام مقام اللفظ إن كان وحيا و لا يجوز أن يؤدي الملك إلى الرسول ما تحمله عن ربه إلا بلسان الرسول كما لا يؤدي الرسول إلى قومه إلا بلسانهم و يكون الملك واسطة بين الرسول و بين ربه و الرسول واسطة بين الملك و بين قومه و ما يؤديه الملك إلى الرسول ليؤدي الرسول إلى قومه ضربان : قرآن و وحي فأما القرآن فيلزم الملك أن يؤديه إلى الرسول بصيغة لفظه و ليس للملك و لا للرسول أن يعدل بلفظه إلى غيره و يكون ما تضمنه من الخطاب المنزل متوجها إلى الرسول و إلى أمتة إذا تضمن الوحي تكليفا :

و أما الوحي إذا تضمن تكليفا بأمر أو نهي فصربان :

أحدهما : أن يكون نصا غير محتمل و صريحا غير متأول فهذا يعلمه الرسول من الملك بنفس الخطاب و تعلمه الأمة من الرسول بالبلاغ من غير نظر و لا استدلال و ليس للملك أو للرسول أن يعدل بالنص إلى إجمال أو احتمال له و الضرب الثاني : أن يكون من الجمل أو المحتمل لمعان مختلفة فهذا يعلم المراد به من دليل يقترون بالخطاب و دليله ضربان : أحدهما عقل المستمع و الثاني : توقيف المبلغ فأما ما عقل دليله ببديهة العقل فمحمول على مقتضى العقل و يكفي فيه تبليغ الخطاب و أما ما دليله التوقيف الذي لا مدخل فيه لبداية العقول كالعبادات فمحمول على التوقيف من الله تعالى إلى ملائكته و من الملائكة إلى الرسول و من الرسول إلى أمتة فأما معرفة الملك من ربه فهو غير مشاهد لذاته

و اختلف أهل العلم في معرفته به على مذهبين كالرسول إن كلمه أحدهما : بأن يضطره إلى العلم به و الثاني : بسماع الخطاب المقترن بالآيات و أما معرفة الرسول من الملك و معرفة الأمة من الرسول فالرسول مشاهد لذات الملك و الأمة مشاهدة لذات الرسول و لمشاهدة الذوات تأثير في العلم بمراد الخطاب : فيتنوع بيان توقيفه فيما أريد بالخطاب أنواعا فيكون بعضه باللفظ الصريح و بعضه بالفعل الظاهر و بعضه بالإشارة الباطنة و بعضه بالإشارات التي تضطر المشاهد إلى العلم بما أريد بها و ليس لها نعت موصوف و لا حد مقدر و إنما يعلمه المشاهد بمفهوم أسبابه فيصير البيان باختلاف أنواعه توقيفا من الملك إلى الرسول و من الرسول إلى الأمة و يجوز أن يختلف نوع بيانهما إذا عرف

٣ - — كلام الله في الرؤيا :

فأما القسم الثالث : و هو أن يكون عن رؤيا منام فإن لم يكن ممن تصدق رؤياه لكثرة أحلامه لم يجوز أن يدعي به النبوة و إن كان ممن تصدق رؤياه فقد روي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : [أصدقكم رؤيا أصدقكم

حديثاً [لم يجز أن يدعي النبوة من أول رؤيا لجواز أن يكون من حديث النفس و أن الرؤيا قد تصح تارة و تبطل أخرى فإن تكررت رؤياه مرارا حتى قطع بصحتها و لم يخالجه الشك فيها جاز أن يدعي النبوة فيما كان حفظا لما تقدمها من شرع و بعثا على العمل بها من بعيد و لم يجز أن يعتد بها في نسخ شرع و لا استئناف شرع و لا تعبد و يجوز أن يعمل على رؤيا نفسه فيما يلتزمه من استئناف شرع و لا يجوز أن يعمل عليها في نسخ ما لزمه من شرع ليكون بها ملتزما و لا يكون بها مسقطا شروط خطاب الرسول لأمتة :

و أما خطاب الرسول لأمتة فيما بلغهم من رسالة ربه بعد ظهور معجزته و الإخبار بنبوته و لزومه للأمة فمعتبر بخمسة شروط :

أحدها : العلم بانتفاء الكذب عنه فيما ينقله عن الله تعالى من خبر أو يؤديه من تكليف كما انتفى عنه الكذب في ادعاء الرسالة و يكون المعجز دليلا على صدقه في جميع ما تضمنه الرسالة و الثاني : أن يعلم من حاله أنه لا يجوز أن يكتم ما أمر بأدائه : لأن كتمانها يمنع من التزام رسالته لجواز أن يكتم إسقاط ما أوجب و إن جاز أن يكتم بيانه قبل وقت الحاجة و لا يكون كتماننا و الثالث : أن ينتفي عنه ما يقتضي التنفير من قبول قوله لأن الله تعالى حماه من الغلطة لئلا ينفر من متابعتة و كان أولى أن لا ينفر عن قبول خطابه

و الرابع : أن يقتصر بخطابه ما يدل على المراد به لينتفي عنه التلبيس و التعمية في أحكام الرسالة حتى يعلم حقوق التكليف و إن جاز تعمية خطابه فيما لم يتضمنه التكليف قد اعترض رسول الله صلى الله عليه و سلم رجل في أطراف بدر و قال له : ممن أنت ؟ فقال : من ماء فوري عن نسبه بما استبهم على سائله لخروجه عما يؤديه شرعا إلى أمتة

و الخامس : العلم بوجوب طاعته ليعلم بها وجوب أوامره و اختلف في طاعته هل وجبت عقلا أو سمعا بحسب اختلافهم في بعثة الرسل هل هو من موجبات العقل أم لا خطاب الرسول مفهوم أو مبهم :

و إذا تكلمت شروط الالتزام لم يخل خطابه من أن يكون مفهوما أو مبهما فالمفهوم أربعة : النص و فحوى الكلام و لحن القول : و مفهوم اللفظ و فحوى الكلام ما دل على ما هو أقوى من نطقه و لحن القول ما دل على مثل نطقه و مفهوم اللفظ مأخوذ من معنى نطقه فهذه الأربعة مفهومة المعاني بألفاظها مستقلة بنواتها معلومة المراد بظواهرها فلا احتياج بعد البلاغ إلى بيان

و أما المبهم فثلاثة : الجمل و المحتمل و المشتبه فأما الجمل فما أخذ بيانه من غيره و لا يدخل العقل في تفسيره فلا يعلم إلا بسمع و توقيف و أما المحتمل فهو ما تردد بين معان مختلفة فإن أمكن الجمع بين جميعها حمل على جميع ما تضمنه و استغني عن البيان إلا أن يرد بالاقتصار على بعضها بيان و إن لم يمكن حملها على الجميع لتنافيها و كان المقصود أحد معانيها فإن أمكن الاستدلال عليه بمخرج الخطاب أو بمشاهدة الحال كان فيه بيان أو تعذر بيانه من هذا الوجه حمل على عرف الشرع فإن تعذر حمل على عرف الاستعمال فإن تعذر حمل على عرف اللغة فإن تعذر فيبانه موقوف على التوقيف و أما المشتبه فما أشكل لفظه و استبهم معناه شاهد على المبهم :

[روي أن عمر رضي الله تعالى عنه قال : يا رسول الله إنك تأتينا بكلام لا نعرفه و نحن العرب حقا فقال : رسول

الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن ربي علمني فتعلمت و أدبني فتأدبت [فإن تلوح في المشتبه إشارة إلى معناه جاز أن يكون استنباطه موقوفا على الاجتهاد و إن تجرد عن تجرد عن إشارة كان موقوفا على التوقيف و على الرسول تبليغ بيانه كما كان عليه تبليغ أصله و على من سمعه من الرسول أن يبلغه من لم يسمعه حتى ينتقل إلى عصر بعد عصر على الأيد فيعلمه القرن الثاني من الأول و الثالث من الثاني و كذلك أبدا لتدوم الحجة بهم إلى قيام الساعة و لذلك [قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليبلغ الشاهد الغائب]

الفرق بين الأنبياء و الرسل :

فأما الفرق بين الأنبياء و الرسل فقد جاء بهما القرآن جمعا و مفصلا بقول الله تعالى : { وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته } و يختلف أهل العلم في الأنبياء و الرسل على قولين : أحدهما أن الأنبياء و الرسل واحد فالنبي رسول و الرسول نبي و الرسول مأخوذ من تحمل الرسالة و النبي مأخوذ من النبأ و هو الخبر إن همز لأنه مخبر عن الله تعالى و مأخوذه من النبوة إن لم يهمز و هو الموضع المرتفع و هذا أشبه لأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد كان يخاطب بهما و القول الثاني : أنهما يختلفان لأن اختلاف الأسماء يدل على اختلاف المسميات و الرسول أعلى منزلة من النبي و لذلك سميت الملائكة رسلا و لم يسموا أنبياء و يختلف من قال بهذا في الفرق بينهما على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الرسول هو الذي تنزل عليه الملائكة بالوحي و النبي هو الذي يوحى إليه في نومه و القول الثاني : أن الرسول هو المبعوث إلى أمة و النبي هو الحدث الذي لا يبعث إلى أمة قاله قطرب و القول الثالث : أن الرسول هو المبتدئ بوضع الشرائع و الأحكام و النبي هو : الذي يحفظ شريعة غيره قاله الجاحظ

وجوب البلاغ و زمانه :

و إذا نزل الوحي على الرسول و عين له زمان الإبلان لم يكن له تقديمه عليه و لا تأخير عنه و إن لم يعين له زمانه فعليه تبليغه في أول أوقات إمكانه فإن خاف من تبليغ ما أمر به شدة الأذى و عظم الضرر لزمه البلاغ و لم يكن الأذى عذرا له في الترك و التأخير لأن الأنبياء يتكلفون من احتمال المشاق ما لا يتكلفه غيرهم لعظم منزلتهم و ما أملوا به من القوة على تحمل مشاقهم

و إن خاف منه القتل فقد اختلف المتكلمون في وجوب البلاغ فذهب بعضهم إلى اعتبار أمره البلاغ فإن أمر به مع تخوف القتل لزمه أن يبلغ و إن قتل و إن أمر به مع الأمن لم يلزمه البلاغ إذا خاف القتل و ذهب آخرون منهم إلى اعتبار حاله فإن لم يبق عليه من البلاغ سوف ما يخاف منه القتل

فإن لم يكن الأمر بالبلاغ مرتبا لزمه أن يقدم بلاغ ما يأمن منه القتل ثم يبلغ ما يخاف منه القتل فإن قتل فإن كلام الأمر البلاغ مرتبا بابتداء ما يخاف منه القتل فإن الله تعالى يعصمه من القتل حتى يبلغ جميع ما أمر به لما تكفل به من إكمال دينه و الله تعالى أعلم

الباب الخامس — في مدة العالم و عدة الرسل

مدة الدنيا :

مدة الدنيا من ابتداء خلق العالم إلى اقتضائه و فناءه سبعة آلاف سنة على ما جاءت به التوراة المنزلة على موسى عليه السلام و ذكره أنبياء بني إسرائيل و قد وافق عليه من قال بتيسير الكواكب و إنها مسير الكواكب السبعة فسير كل كوكب منها ألف سنة

و قد روي [عن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم أنه قال : الدنيا سبعة آلاف سنة أنا في آخرها ألفا]
[و قال صلى الله تعالى عليه و سلم : بعثت و الساعة كهاتين] و جمع بين أصبعيه الوسطى و السبابة يعني أن الباقي منها كزيادة الوسطى على السبابة

[و روى سلمة بن عبد الله الجهني عن أبي مسجعة الجهني عن أبي رحاب الجهني أنه قال للنبي صلى الله تعالى عليه و سلم : رأيته على منبر فيه سبع درج و أنت على أعلاها فقال : الدنيا سبعة آلاف سنة أنا في آخرها ألفا]
[و روى أبو نصر عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بعد صلاة العصر يقول أيها الناس إن الدنيا خضرة حلوة و إن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعلمون و أخذ في خطبته إلى أن قال : لأعرفن رجلا معتنه مهابة الناس أن يتكلم بحق إذا رآه و شاهده ثم قال و قد أزف غروب الشمس إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منه كبقية يومكم هذا فيما مضى منه يوفى بكم سبعون أمة قد توفي تسع و ستون و أنتم آخرها] فصارت هذه المدة المقدرة في عمر الدنيا سبعة آلاف متفقا عليها فيما تضمنته الكتب الإلهية و وردت به الأنباء النبوية مع ما سلك به الموافق من تسيير الكواكب السبعة و إن كان المعول في المغيب على الأنباء الصادقة الصادرة عن علام الغيوب الذي لم يشرك في غيبه إلا من أطلعه عليه من رسله فخلق العالم في ستة أيام ابتداءها يوم الأحد و اقتضاؤها يوم الجمعة

ابتداء الخلق :

و اختلف أهل الكتب السالفة و أهل العلم في شرعنا فيما ابتدئ بخلقه على ثلاثة أقاويل :
أحدها : و هو قول طائفة : أنه بدأ بخلق الأرض في يوم الأحد و الاثنين لقول الله تعالى : { قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين } و خلق الجبال في يوم الثلاثاء و خلق الماء و الشجر في يوم الأربعاء خلق السماء في يوم الخميس و خلق الشمس و القمر و النجوم و الملائكة و آدم في يوم الجمعة
قال الشعبي : و لذلك سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق كل شيء
و الثاني : و هو قول فريق : أنه بدأ بخلق السموات قبل الأرض في يوم الأحد و الاثنين لقول الله تعالى : { فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها } فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أسكن في كل سماء ملائكتها

و الثاني : خلق في كل سماء ما أودعه فيها من شمس و قمر و نجوم

و الثالث : أوحى إلى كل سماء من الملائكة ما أمرهم به من العبادة ثم خلق الأرض و الجبال في يوم الثلاثاء و الأربعاء و خلق ما سواهما من العالم في يوم الخميس و الجمعة

و الثالث : و هو قول آخرين : أنه خلق السماء دخانا قبل الأرض ثم فتقها سبع سموات بعد الأرض بقول الله تعالى : { ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها } فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أي أعطيا الطاعة في السير المقدر لكما باختيار أو إجبار قاله سعيد بن جبير

الثاني : أخرجما طوعا و كرها

الثالث : كونا كما أردت من شدة و لين و حزن و سهل و ممتنع و ممكن { قالنا أتينا طائعين } أي كما أردت أن تكون

و في قولهما ذلك وجهان :

أحدهما : أن ظهور الطاعة منهما قام مقام قولهما

و الثاني : إنه خلق فيهما كلاما نطق بذلك

قال أبو النظر السكسكي : فنطق من الأرض موضع الكعبة و نطق من السماء ما يحياها فوضع الله فيها حرمه خلق آدم :

فأما آدم فهو آخر ما خلق الله تعالى في يوم الجمعة خلقه من تراب الأرض و نفخ في أنفه من نسمة الحياة فهو أنفس من كل ذي حياة روى أبو زهر [عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم : الأحمر و الأبيض و الأسود و بين ذلك و الحزن و السهل و الخبيث و الطيب و بين ذلك]

و في تسميته بآدم قولان : أحدهما : أنه اسم عبراني نقل إلى العربية و القول الثاني : إنه اسم عربي و فيه قولان أحدهما : أنه سمي بذلك لأنه خلق من أديم الأرض و أديمها وجهها

و الثاني : سمي بذلك لاشتقاقه من الأدمة و هي السمرة

خلق حواء :

فلما تكامل خلق آدم استوحش فخلق له حواء

و اختلف فيما خلقت منه على قولين

أحدهما : أنه خلقها من مثل ما خلق منه آدم و هذا قول تفرد به ابن بحر

و القول الثاني : و هو ما عليه الجمهور أنه خلقها من ضلع آدم الأيسر بعد أن ألقى عليه النوم حتى لم يجد لها مسا

قال ابن عباس : فلذلك تواسلا و لذلك سميت امرأة لأنها خلقت من المرء

و في تسميتها حواء قولان أحدهما : لأنها خلقت من حي

و الثاني : لأنها أم كل حي فقال آدم : لما خلقت منه حواء : هذا الشخص عظمه من عظمي و لحمه من لحمي

فلذلك صار الرجل و المرأة كجسد واحد من شدة الميل و فضل الحنو قال الله تعالى : { يا أيها الناس اتقوا ربكم

الذي خلقكم من نفس واحدة } يعني آدم { وخلق منها زوجها } يعني حواء

فروي عن النبي صلى الله تعالى عليه و سلم أنه قال : [خلق الرجل من التراب فهمه في التراب و خلقت المرأة من

الرجل : فهمها الرجل]

مضى خلقت حواء :

و اختلف في الوقت الذي خلقت فيه حواء على قولين :

أحدهما : أنها خلقت منه في الجنة بعد أن استوحش من وحدته و هذا قول ابن عباس و ابن مسعود

و القول الثاني : أنها من ضلعه قبل دخوله الجنة ثم أدخلها معها إليها و هو أشبه بقول الله تعالى : { وقلنا يا آدم اسكن

أنت و زوجك الجنة و كلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين }

قال ابن عباس خلق آدم يوم الجمعة و أدخل الجنة يوم الجمعة و أخرج منها يوم الجمعة و فيها تقوم الساعة

الجنة التي دخلها آدم :

و اختلف في الجنة التي أسكنها على قولين :

أحدهما : أنها جنة الخلد

و القول الثاني : أنها جنة أعدها الله تعالى لهما دار ابتلاء و ليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء و فيها على هذا قولان :

أحدهما : أنها في السماء لأنه أهبطها منها

و القول الثاني : إنها في الأرض لأنه امتحنها فيها بالأمر و النهي

الشجرة التي أكل منها آدم :

و اختلف في الشجرة التي نهيها عن أكلها فقيل : إنها شجرة الخلد

و قيل إنها شجرة العلم و في هذا العلم قولان :

أحدهما : علم الخير و الشر

و الثاني : علم ما لم يعلم

و قيل في الشجرة غير ذلك من الأقاويل فلما أكلا منها بدت لهما سوءاتهما بالمعصية و طلقا يخرصان عليهما من

ورق الجنة قال الله تعالى : { فأزلهما الشيطان عنها } حين بعثهما على أكل الشجرة { فأخرجهما مما كانا فيه } و فيه تأويلان :

أحدهما : عما كانا فيه من الطاعة إلى ما صار إليه من المعصية

و الثاني : عما كانا فيه من النعيم في الجنة إلى ما صار إليه من النكد في الأرض فحزن آدم حين أهبط إلى الأرض و

بقي في حزنه مائة سنة لا يقرب فيه حواء ثم غشيها فولدت له بعد المائة قاييل ثم غشيها فولدت له هابيل فقتل قاييل

هابيل فحزن آدم لذلك حزنا شديدا

و قيل : إنه جعل حزنه جزاء على معصيته في الأكل و قد يصاب الأبناء في أولادهم من أجل معاصيهم ثم خف حزنه

فغشي حواء فولدت له شيئا

علم الله آدم الأسماء :

و علم آدم الأسماء كلها كما ذكره الله تعالى في كتابه و فيما علمه من الأسماء قولان :

أحدهما : علم النجوم قاله حميد

الثاني : إنها أسماء مسميات و فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أسماء الملائكة قاله الربيع بن أنس

و الثاني : أسماء جميع ذريته قاله عبد الرحمن بن زيد

و الثالث : أسماء جميع الأشياء و فيه على هذا قولان

أحدهما : أن تعليمه كان مقصورا على الأسماء دون معانيها

و الثاني : أنه علمه الأسماء و معانيها لأنه لا فائدة في علم الأسماء بلا معان لأن المعاني هي المقصودة و الأسماء دلائل عليها

هبوط آدم إلى الأرض :

و لما هبط آدم إلى الأرض قيل إنه أهبط إلى شرقي أرض الهند و حواء مجدة و إبليس على ساحل نهر الأبله و الحية

في البرية

و كانت نبوة آدم مقصورة عليه و ما نزل عليه من الوحي متوجها إليه فكان المصطفين دون المرسلين و اختلف فيه أهل الكتاب هل خلق في ابتدائه قابلا للموت أو جعل الموت عقوبة له على معصيته فقال بعضهم خلق آدم في ابتداء نشأته على الطبيعة الباقية و الطبيعة الميتة ليكون إن مال إلى الشهوات الجسمانية و أثرها وقع في التغيرات الجسمانية و ناله الموت و إن أثر فضائل النفس الأمانة بالخير نال البقاء الذي سعدت به الملائكة فلم تمت فلما عصى بأكل الشجرة عدل إلى التغيرات فناله الموت و استشهدوا عليه من التوراة بما ذكر فيها : إنك إن أكلت من الشجرة يوم تأكل منها فموتا تموت فلم يجز أن يتوعد بالموت عند معاقبته و هو يموت لو لم يعاقب

و قال آخرون منهم — و هو أشبه بمقتضى العقول : إنه خلق في ابتداء إنشائه قابلا للموت في الدنيا و إن لم يعص لأنه أحوجه إلى الغذاء كذريته و ليس شيء من الجواهر التي لا يباها الموت محتاجة إلى الغذاء و لم يجعل الموت عقوبة على المعصية و لذلك لم يمت من عصى من الملائكة و إن في التوراة مكتوبا إن مديده في الجنة إلى شجرة الحياة و أكل منها حيي الدهر كله فدل على أنه مطبوع على قبول الموت خلق الله آدم على أكمل عقل :

و لما خلق الله تعالى آدم ابتداء و لم يخلقه بتوسط طبيعة كما خلق نسله كان على أفضل اعتدال و أكمل عقل فصار قلبه معدنا للحكمة الإنسانية و جسده مهيا للأفعال البشرية فلم يمتنع عليه شيء منها حتى أحاط علما و قدرة بجميعها و لذلك علم الأسماء كلها و ألهم الحكمة بأسرها و اطلع على أسرار النجوم و عملها و عرف منافع الحيوان و النبات و مضارها و لولا ذلك لما فرق بين الغذاء و الدواء و لا بين السموم القاتلة و الشفاء و لا اهتدى بالنجوم في بر و لا بحر و كان هو المدبر لأولاده مدة حياته حتى مات بعد تسعمائة و ثلاثين سنة من عمره ثم قام بالأمر من بعده شيث بن آدم فبرع في الحكمة و فاق في علم النجوم بما أخذه عن أبيه آدم و بما استفاده بالتجربة و مرور الزمان أولاد آدم :

و اختلف أهل الكتاب في نبوة شيث فادعاه بعضهم و أنكروا آخرون منهم و ولد بعد مائتين و ثلاثين سنة من عمر أبيه آدم و مات و له تسعمائة و اثنتا عشرة سنة فكان قيامه بالأمر بعد موت آدم مائتين و اثنتي عشرة سنة و اتفق أهل الكتاب أنه لم يكن بين شيث و إدريس نبي غير إدريس ثم قام بالأمر بعد شيث ولده أنوش بن شيث و كان مولده بعد مائتين و خمسين سنة من عمر شيث و مات أنوش و له تسعمائة و خمسون سنة فكان قيامه بالأمر بعد شيث مائتين و ثمانين سنة

ثم قام بالأمر بعد أنوش ولده قينقان بن أنوش و ولد بعد مائة و تسعين سنة من عمر أنوش و مات قينان و له تسعمائة و عشرون سنة فكان قيامه بالأمر بعد أنوش مائة و تسعين سنة ثم قام بالأمر بعد قينان و لده مهلايل و ولد بعد ثمانمائة و خمس و سبعين سنة فكان قيامه بالأمر بعد قينان مائة و عشر سنين ثم قام بالأمر بعد مهلايل ولده يارد بن مهلايل و ولد بعد مائة و خمس و ستين سنة من عمر مهلايل و مات يارد و له تسعمائة و اثنتان و ستون سنة فكان قيامه بالأمر بعد مهلايل مائتين و اثنتين و خمسين سنة ثم قام بالأمر بعد يارد ولده أخنوخ بن يارد و هو إدريس و ولد بعد مائة و اثنتين و ستين سنة من عمر يارد و هو نبي على قول جميع أهل الملل

و اختلف أهل الكتاب هل هو أول الأنبياء أو ثانيهم فقال من زعم أن شيثا نبي هو ثاني الأنبياء

و قال من زعم أن شيئا ليس بنبي أن إدريس أول الأنبياء و هو أول من شرع الأحكام و أول من اتخذ السلاح و جاهد في سبيل الله تعالى و سبى و قتل بني قاييل و لبس الثياب و كانوا يلبسون الجلود و أول من كتب الخط في قول الأكثرين و أول من وضع الأوزان و الكيول ثم رفعه الله تعالى إليه حيا بعد سبعمائة و خمس و ثمانين سنة من عمره أقام فيها داعيا و أبوه حي على ما يقتضيه تاريخ هذه المواليد و الأعمار المأخوذة من التوراة المنزلة قال ابن قتيبة : و سمي إدريس لكثرة ما كان يدرس من كتب الله تعالى و سنن الإسلام نوح عليه السلام :

ثم كثر الناس فافترقوا بعد إدريس و زادوا إلى زمن نوح بن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ و هو إدريس و هو آخر نبي بعث قبل الطوفان على قول من زعم أن شيئا نبي

و نزل الطوفان بعد ستمائة سنة من عمره و أنذر قومه فكذبوه و صنع السفينة فسحروا منه و أمره الله تعالى أن يصنعها في طول ثلاثمائة ذراع و عرض خمسين ذراعا و علو ثلاثين ذراعا و تكون ثلاث طبقات ليركب فيها هو و أهله و يأخذ من كل جنس من الحيوان زوجا ذكرا و أنثى ليكونوا أصولا لنسلهم فيحيا بهم العالم ثم وعده أن يستمطره بعد سبعة أيام أربعين يوما و أربعين ليلة فلم يبق في الأرض ذرورح إلا من ركبها و غاض الطوفان بعد مائة و خمسين يوما فاستوت على الجودي و هو جبل بأرض الجزيرة شهرا و سمي الماء طوفانا لأنه طفا فوق كل شيء

و اختلف فيما عاش نوح بعد الطوفان فقال الأكثرون : ثلاثمائة و خمسين سنة و هو ظاهر و ما نزل به القرآن و قال آخرون ستمائة و خمسين سنة لأنه لبث تسعمائة و خمسين سنة داعيا لقومه و كان له قبل دعائه ثلاثمائة سنة التاريخ من آدم إلى نوح عليهما السلام :

و اختلف فيما بين هبوط آدم من الجنة إلى مجيء الطوفان فقال اثنان و سبعون حجرا من بني إسرائيل نقلوا التوراة إلى اليونانية : بينهما ألفان و مائتان و اثنتان و أربعون سنة

ثم تبللت الألسن بعد الطوفان بستمائة و سبعين سنة فافترق اثنان و سبعون لسانا في اثنتين و سبعين أمة قال و هب بن منبه : منها في ولد سام بن نوح تسعة عشر لسانا و في ولد حام سبعة عشر لسانا و في ولد يافث ستة و ثلاثون لسانا و من تبليل الألسن إلى مولد إبراهيم الخليل عليه السلام أربعمائة و إحدى عشرة سنة و من مولد إبراهيم إلى موسى بن عمران عليه السلام أربعمائة و خمس و عشرون سنة و أخرج بني إسرائيل من مصر بعد ثمانين سنة و دبر أمرهم أربعين سنة و مات وله مائة و عشرون سنة فصار من هبوط آدم إلى وفاة موسى ثلاثة آلاف و ثمانمائة و ثمانين سنة و ستين سنة

و قال آخرون من بني إسرائيل المقيمين على التوراة العبرانية التي يتداولها جمهور اليهود في وقتنا إن من هبوط آدم من الجنة إلى مجيء الطوفان ألفا و ستمائة و ستا و خمسين سنة و من اقضاء الطوفان إلى تبليل الألسن مائة و إحدى و ثلاثين و إحدى و ثلاثين سنة و من تبليل الألسن إلى مولد إبراهيم مائة و إحدى و ستين سنة و من مولد إبراهيم إلى وفاة موسى خمسمائة و خمسا و أربعين سنة فصار الوقت من هبوط آدم إلى وفاة موسى ألفين و أربعمائة و ثلاثا و تسعين سنة

و قالت السامرة من اليهود عن تاريخ توراتهم إن من هبوط آدم من الجنة إلى مجيء الطوفان ألفا و ثلثمائة و سبعا و ستين سنة و من الطوفان إلى تبليل الألسن خمسمائة و ستا و عشرين سنة و من تبليل الألسن إلى مولد إبراهيم أربعمائة و إحدى عشرة سنة و من مولد إبراهيم إلى وفاة موسى خمسمائة و خمسا و أربعين سنة فصار من هبوط

آدم إلى وفاة موسى ألقين و ثمانمائة وتسعا و أربعين سنة

أول نبي بعد نوح عليه السلام :

و أول نبي بعد نوح إبراهيم و هو أول من قص شاربه و استحد و اختتن و قلم أظفاره و استاك و تمضمض و استشق و استنجى بالماء

و اول من أضاف الضيف و أطعم المساكين و ثرد الثريد و كان داعيا إلى عبادة الله تعالى و توحيده ثم ولده إسحق بن إبراهيم ولد له عيصو و يعقوب توأمين في بطن واحد فخرج عيصو ثم خرج بعده يعقوب ويده عالقة على عقبه فسمى يعقوب فعيصو أبو الروم و كان أصفر فلذلك سميت الروم بني الأصفر و يعقوب هو إسرائيل أبو الأسباط و أيوب بن بولص كان أبوه ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق و كان في زمن يعقوب و كان صهره زوجه يعقوب بنته ليا وهي التي ضربها بالضغث

أول نبي من بني إسرائيل :

و أول نبي من بني إسرائيل موسى و آخريهم عيسى و كانت نبوة يعقوب بن إسحق بن إبراهيم و من بعده من ولده قبل موسى مقصورة على أنفسهم حتى دعا موسى إلى نبوته بني إسرائيل و من وفاة موسى إلى ملك يختصر تسعمائة و ثمان و سبعون سنة و إلى ملك الإسكندر ألف و أربعمائة و ثلاث عشرة سنة آخر أنبياء بني إسرائيل :

و ولد عيسى ليلة الأربعاء الخامس و العشرون من كانون الأول لسبعمائة و تسع و ثلاثين سنة من ملك يختصر و لثلاثمائة و أربع سنين من ملك الإسكندر و من ملك يختصر إلى ابتداء الهجرة ألف و ثلثمائة و تسع و ستون سنة و من ملك الإسكندر إلى ابتداء الهجرة ألفان و ثلثمائة و سبع و أربعون سنة فكان بين موت موسى و ابتداء الهجرة ألفان و ثلثمائة و سبع و أربعون سنة و مولد عيسى بعد ألف و سبعمائة و سبع عشرة سنة من موت موسى و قيل بعد ستمائة و ثلاثين سنة من ابتداء الهجرة

مدة الدنيا :

فإذا تقرر ما ذكرناه من مدة الدنيا أنها مقدرة في الكتب الإلهية بسبعة آلاف سنة كان الماضي منها إلى ابتداء الهجرة محمولا على ما قدمناه من اختلاف أهل التوراة فيكون على القول الأول المأخوذ عن الأحبار الناقلين لها إلى اليونانية ستة آلاف و مائتين و ست عشرة سنة و الباقي من عمر الدنيا على قولهم بعد الهجرة سبعمائة و أربع و ثمانون سنة و هو موافق لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم : [الدنيا سبعة آلاف سنة بعثت في آخرها ألفا] و يكون الماضي منها على القول الثاني المأخوذ عن التوراة العبرانية أربعة آلاف و ثمانمائة و إحدى و أربعين سنة و الباقي من عمر الدنيا على هذا القول بعد الهجرة ألفا و مائة و تسعا و خمسين سنة

و قيل إنهم قالوا ذلك ليكون رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في خامسها ألفا فيدفعوه بقصان التاريخ عن صفته في التوراة إنه مبعوث في آخر الزمان و يكون الماضي على القول الثالث في توراة السامرة خمسة آلاف و مائة و سبعا و ثلاثين سنة و الباقي من عمر الدنيا على هذا القول بعد الهجرة ألفا و ثمانمائة و ثلاثا و ثلاثين سنة ليكون الرسول في سادسها ألفا لما قيل من سنيه

و السامرة قوم ناقلة من بلاد المشرق سموا بذلك لأن تفسيره بالعربية الحفظه و هم لا يقبلون من كتب الأنبياء إلا التوراة وحدها

قيام الساعة :

و الأول لأجل قول الرسول بالأشبه و إن كان قيام الساعة و انقراض مدة الدنيا و قيام العالم على هذا التاريخ الذي أثبتوه و التقدير الذي حققوه مدفوعا عندنا بقول الله تعالى : { إن الله عنده علم الساعة } و فيه تأويلان : أحدهما : إن قيامها مختص بعلمه فامتنع أن يشاركه في علمها أحد من خلقه

و الثاني : إن قيامها موقوف على إرادته فامتنع أن يوقف على غير إرادته و قال تعالى : { فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة } يعني فجأة و البغتة غير معلومة فامتنع أن تكون عندهم معلومة ثم قال : { فقد جاء أشراتها } فيه وجهان أحدهما : نبوة محمد صلى الله تعالى عليه و سلم و هذا يدل على أنه مبعوث في آخرها ألفا و الثاني إن أشراتها الآيات المنذرة بها

كما قال : { وما نرسل بالآيات إلا تخويفا } فلا تقوم الساعة إلا بعد أن ينذر الله تعالى بآياتها روى سفيان بن عيينة [عن فرار عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم من علية و نحن نتذاكر أمر الساعة قال : ما كنتم تذاكرون قلنا قيام الساعة قال : إن الساعة لن تقوم حتى يكون قبلها عشر آيات قال : لا يدري بأيهن بدأ : طلوع الشمس من مغربها و الدجال و الدخان و دابة الأرض و نزول عيسى ابن مريم و خروج يأجوج و مأجوج و ثلاث خسوف خسف بالشرق و خسف بالمغرب و خسف بجزيرة العرب و آخر ذلك نار تخرج من قبل اليمن أو من عدن تطرد الناس إلى محشرهم] و روى برد عن مكحول عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : يخرج الدجال في الثمانين فإن لم يخرج ففي ثمانين فإن لم يخرج ففي ثلاثمائة و ثمانين فإن لم يخرج ففي أربعمائة و ثمانين] و روى معاذ بن جبل : أن النبي صلى الله تعالى عليه و سلم ذكر الدجال فقال يقيم فيكم أربعين سنة أول سنة كالشهر ثم الثانية كالجمعة ثم الثالثة كالיום و سائر سنيه كالساعة حتى ينزل عيسى بن مريم فيجرحه بالحربة فيذوب كما يذوب الرصاص] و في هذا دليل على تقدم يأجوج و مأجوج الدجال و آخرها الذي تقوم به الساعة ظهور النار و الله أعلم بمن استأثر بغيبه ثم من أطلعه عليه من رسله

الأنبياء بين موسى و عيسى عليهما السلام :

و بين موسى و عيسى عليهما السلام من الأنبياء شعيا و هو الذي بشر بني إسرائيل بنبو محمد صلى الله تعالى عليه و سلم و وصفه بعد أن بشر بعيسى فقتله بنو إسرائيل ثم حزقيل و هو الذي أصاب قومه الطاعون فخرجوا من ديارهم حذر الموت فأماهم الله ثم أحياهم

و منهم دانيال سباه بختنصر مع العزيز و نزل من بختنصر أفضل منزل لرؤيا عبرها له و قبره بناحية السوس وجده أبو موسى الأشعري فأخرجه و كفنه و صلى عليه و دفنه

و منهم الياس بعث إلى أهل بعلبك و كانوا يعبدون صنما يقال له بعل و كان ملكهم اسمه أجب و امرأته أزييل و كان يستخلفها على ملكه و هي بنت ملك سبأ و عمرت عمرا طويلا و تزوجها سبعة من ملوك بني إسرائيل و هي التي قتلت يحيى بن زكريا عليهما السلام ثم رفع الله تعالى الياس ثم اليسع كان تلميذ الياس فدعا له الياس فنبأه الله بعده

ثم يونس بن متى ثم زكريا قتله بنو إسرائيل في الشجرة ثم عيسى و يحيى فأما يحيى فإن أجب الملك قتله بحيلة امرأته أزييل

و أما عيسى فإن أمه هربت به من أجب الملك إلى مصر و عاد به يوسف النجار مع أمه إلى قرية تدعى ناصرة

فلذلك قيل لأصحابه نصارى لأنهم سموه عيسى الناصري

أصحاب الكهف :

و أصحاب الكهف : هم فتية من الروم دخلوا الكهف قبل المسيح عيسى و ضرب الله على آذانهم فيه فلما بعث المسيح أخبر بخبرهم ثم بعثهم الله تعالى بعد المسيح في الفترة بينه و بين النبي صلى الله تعالى عليه و سلم و جرجيس من أهل فلسطين أدرك بعض الخواريين و بعث إلى ملك الموصل لقمان الحكيم :

فأما لقمان الحكيم فكان عبدا حبشيا لرجل من بني إسرائيل و كان في زمن داود و اسم أبيه ثاران و اختلف في نبوته فزعم الأكثرون أنه لم يكن نبيا و قال سعيد بن المسيب كان نبيا و كان خياطا و ذو الكفل من بني إسرائيل بعث إلى ملك كان فيهم يقال له كنعان دعاه إلى الإيمان و كفل له الجنة و كتب له كتابا و سمي ذا الكفل لذلك عدد الأنبياء :

و ذكر وهب بن منبه أن الأنبياء كلهم مائة ألف نبي و أربعة و عشرون ألف نبي : الرسل منهم ثلاثمائة نبي و خمس عشر نبيا منهم خمسة عبرانيون : آدم و شيث و إدريس و نوح و إبراهيم و خمسة من العرب هود و صالح و إسماعيل و شعيب و محمد صلوات الله عليهم حنظلة بن صفوان :

و روى أبو صالح عن ابن عباس قال : بعث الله إلى أهل الرس نبيا منهم يقال له [حنظلة بن صفوان] فكذبوه و قتلوه فأوحى الله تعالى إلى نبي كان مع بختنصر يقال له أرميا بن برخيا مر بختنصر يغزو العرب الذين لا أخلاق لبيوتهم فيقتلهم بما صنعوا بنبيهم

و روي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قال : [ذاك نبي أضاعه قومه] و ذلك أنه قال لقومه ادفنوني فإذا جاءت الطباء بعد ثلاث فأخرجوني فأسأئلكم بما أمرت فجاءت الطباء إلى قبره بعد ثلاث فلم يخرجوه و قالوا تتحدث العرب عنا إنا نبشنا موتانا و أتت بنته رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فسمعتة يقرأ : { قل هو الله أحد } فقالت : قد كان أبي يقرأ هذا و لا يضبط ذكر من سلف من الأنبياء لكثرتهم و قول الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه و سلم : { منهم من قصصنا عليك و منهم من لم نقصص عليك } و الله تعالى أعلم

الباب السادس — في إثبات نبوة محمد صلى الله تعالى عليه و سلم

إثبات نبوة محمد عليه السلام :

الكلام في إثبات نبوته يتقرر مع المعترفين ببعثة الرسل لأن منكريها يعمون الجميع بها و يدفعون كل مدع لها و

الكلام معهم قد قلّمناه في إثبات النبوات على العموم

فأما نبوة محمد صلى الله تعالى عليه و سلم فقد اختلف فيها مخالفوه من مثبتي النبوات على أقوال شتى

أنكرت اليهود نبوة محمد صلى الله تعالى عليه و سلم :

فمنعت اليهود من نبوته لامتناعهم عن نسخ الشرع و اختلفوا في المانع من نسخه فمنع منه بعضهم بالعقل لأن نهي

الله تعالى عما أمر به و أمره بما نهي عنه و إنما يكون لحفاء المصلحة عليه في الابتداء و ظهورها له في الانتهاء و الله

تعالى عالم بما في الحالين لتباين الضدين

و منع منه بعضهم بالشرع و إن جوزوه في العقل بما نقلوه عن موسى عليه السلام و ذكروه في التوراة أنه قال :
تمسكوا بالسبب أبدا سنة الدهر و كلا الوجهين فاسد من وجهين :
أحدهما : أن العقل لا يمنع من الأمر بالشيء في زمان و النهي عنه في غيره بحسب المصلحة في قول من اعتبرها أو
بالإرادة في قول من اعتمدها و لا يكون مستقيحا من فعل حكيم كما يغني من أفقر و يفقر من أغنى إما للمصلحة
أو بالإرادة و لا يكون ذلك منه لاستبهاام المصلحة و إشكال الإرادة
و الثاني : ان موسى قد نسخ شرع من تقدمه لأن آدم زوج بنيه بناته و جوز يعقوب الجمع بين الأختين : و نكح
إبراهيم بنت أخيه و كل هذا عند موسى منسوخ بشرعه فجاز أن ينسخ شرعه بشرع غيره
قيل محمد نبي العرب خاصة :

و قال آخرون : محمد صلى الله تعالى عليه و سلم نبي مبعوث إلى قومه من العرب و ليس بنبي لغيرهم و هذا فاسد
من وجهين :

أحدهما : أنه تخصيص بغير دليل

و الثاني : أن ثبوت نبوته في قومه موجب لصدقه و قد قال : إنه بعث إلى كافة الخلق و أنه خاتم الأنبياء فلم يجز رد
قوله مع ثبوت صدقه

قيل محمد نبي من ليس له شرع :

و قال آخرون : هو نبي مبعوث إلى من لم يتمسك بشرع من عبدة الأوثان و ليس بمبعوث إلى من تمسك بشرع من
اليهود و النصارى و هذا فاسد من وجهين مع الوجهين المتقدمين :

أحدهما : أنه يدفع به عن نسخ الشرع و قد دللنا على جوازه

و الثاني : ان من اعترف بالنبوات كان ألزم له من جحدها

قيل ليس بنبي لأنه لا مجزة قاهرة له

و قال آخرون ليس بنبي لأنه لم يأت بمعجزة قاهرة يضطر إلى صدقة كمعجزة موسى و عيسى و إن جاز نسخ

الشرائع بمثلها من الشرائع و في هذا يتعين إقامة الدليل على إثبات نبوته و هو معتبر بثلاثة شروط :

أحدها : وصف المستدل و الثاني : حكم المدلول عليه و الثالث : صفة الدليل

فأما الشرط الأول في صفة المستدل فقد اختلف فيه فذكر الجاحظ : أنه العقل لأنه المميز للحق و قال الأكثرون :

المستدل هو العاقل و العقل آلة استدلاله ليتوصل به إلى صحة مدلوله

و أما الشرط الثاني : ففي حكم المدلول عليه فعند فريق إنه إثبات نبوته ليعلم بما صدق قوله و عند الأكثرين إنه

إثبات صدقه ليعلم بقوله صحة نبوته

و أما الشرط الثالث و هو دليل فحجاج يتنوع أنواعا لأن المستدل واحد و المدلول عليه واحد و الدليل يشتمل

على أعداد متنوعة و شواهد مختلفة فرق الله تعالى بينهما لتكون الحجج متغايرة و البراهين متمايزة بحسب ما علمه

من المصلحة و رآه من أسباب الإجابة كما قال تعالى : { وكذلك نصرف الآيات } أي نخالف بينها في المعجزات

فكان بعضها حجة قاطعة و بعضها أمانة لائحة تجري عليها أحكام ما قاربها فتقوى بعد الضعف و تحج بعد الكشف

و إن لم تكن للإنذار بانفرادها من قواطع الحجج المغنية عن دليل يحج فهذا القول في نبوة غيره فلا يلزم تطابق

حججهم كما لم يلزم اتفاق شرائعهم

و قد قدمنا أقسام المعجزات فإذا ظهرت إحداهن حجت و دلت على صحة النبوة و قد ظهر في نبوة محمد صلى

الله تعالى عليه و سلم أكثرها مع ما تقدمها من إنذار وظهر بها من آثار و تحقق بها من أخبار فصارت أعلم النبوات إعجازا و أوضحها طريقة و امتيازاً و أكثرها تأييداً إلهياً و تعبداً شرعياً تقهر شواهداها من باين و عاند و تحج دلائلها من ناكرو و جاحد لأن المهيأ منه مطبوع على آله و منقاد إلى غايته حتى يتدرج إليه بغير تكلف و يستقر فيه بغير تصنع فلا يشتبه من تعاطاه بمن طبع بشيمة المطبوع

و لم تنزل إمارات النبوة لائحة في رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم حين تدرج إليها و هو غافل عنها و غير متصنع لها فنهض بأعبائها حين أتته و قام بحقوقها حين لزمته غير ذاهل فيها و لا عاجز عنها إلى أن تكامل به الشرع فتم على أصل مستقر و قياس مستمر لا يدفعه عقل و لا يأباه قلب و لا تنفر منه نفس و هذا و هو أُمي لم يقرأ كتاباً و لا اكتسب علماً فأوضح كل ملتبس و بين كل مشتبه حتى رجع كثير من الملل إلى شريعته في علم ما قصروا عنه من حقوق و عقود استوعب أقسامها و بين أحكامها و ما ذاك إلا بعون إلهي و تأييد لاهوتي و حسبك بهذا شاهداً لو اقصرنا عليه و حجاجاً لو اكتفينا به و لكن سنذكر من معجزاته الفاخر و براهينه الواضحة ما يرد كل جاحد و يصد كل معاند من أنواع متغايرة و أخبار متواترة و آثار متظاهرة يصدق بعضها بعضاً ليكون تعابيرها جامعاً لكل برهان و تظاهرها دافعا لكل بهتان فمنها ما تقدمه من نذير و بشير و منها ما تعقبه من تغيير و تأثير و منها ما قارنه من أقوال و أفعال صدرت منه و إليه فلم يبق من الآيات ما أحل به و لا من الأعلام ما قصر فيه

و سنذكر أبواباً مفصلة و أنواعاً متميزة لتكون أصح بيانا و أوضح برهاناً و أحقها بالسابقة و التقديم إعجاز القرآن لأنه أصل شرعته و مستودع رسالته ثم نتلوه بما يقتضيه و إن كان لو ذكرناه أول مبادئه على سياق ينتهي إلى غايته لكان نظاماً و لكن هذا باب حجاج لرسالته و ليس بشرح لسيرته فوجب ابتداءه بأخصها ثم ذكر سيرته على ترتيبها

الباب السابع — فيما تضمنه القرآن من أنواع إعجازه

القرآن معجزة محمد عليه السلام :

و القرآن أول معجز دعا به محمد صلى الله تعالى عليه و سلم إلى نبوته فصعد فيه برسالته و خص بإعجازه من جميع رسله و إن كان كلاماً ملفوظاً و قولاً محفوظاً لثلاثة أسباب صار بها من أخص إعجازه و أظهر آياته أحدها : أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره و الشائع المنتشر في ناس دهره لأن موسى عليه السلام حين بعث في عصره السحرة خص من فلق البحر ببسا و قلب العصا حية بمر كل ساحر و أذل كل كافر و بعث عيسى عليه السلام في عصر الطب فخص من إبراء الزمى و إحياء الموتى بما أدهش كل طبيب و أذهل كل لبيب و لما بعث محمد صلى الله تعالى عليه و سلم في عصر الفصاحة و البلاغة خص بالقرآن في إعجازه و إعجازه بما عجز عنه القصحاء و أذعن له البلغاء و تبدل فيه الشعراء ليكون العجز عنه أقهر و التقصير فيه أظهر فصارت معجزاتهم و إن اختلف متشاكلة المعاني متفقة العلل

و الثاني : أن المعجز في كل قوم بحسب أفهامهم و على قدر عقولهم و أذهانهم و كان في نبي إسرائيل من قوم موسى و عيسى بلادة و غباوة لأنه لم ينقل عنهم ما يدون من كلام مستحسن أو يستفاد من معنى مبتكر و قالوا لنبيهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فظنوا أن الإعجاز بما يصلون إليه ببداية حواسهم

و العرب أصح الناس أفهاما و أحدهم أذهانا قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها و من المعاني أغربها و من الآداب أحسنها فخصوا من معجز القرآن بما تحول فيه أفهامهم و تصل إليه أذهانهم فيدركوه بالفطنة دون البديهة و بالروية دون البادرة لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها و يوافق فهمها
و الثالث : أن معجز القرآن أبقى على الأعصار و أنشر في الأقطار من معجز يختص بحاضره و يندرس بانقراض عصره و ما دام إعجازه فهو أحج و بالاختصاص أحق
و جوه إعجاز القرآن : ١ — فصاحته

و إعجاز القرآن في خروجه عن كلام البشر و إضافته إلى الله تعالى يكون من عشرين وجها :
أحدها : فصاحته و بيانه : و ذلك معتبر بثلاثة شروط أحدها : بلاغة ألفاظه و الثاني : استيفاء معانيه و الثالث : حسن نظمه فأما بلاغة ألفاظه فتكون من وجهين : أحدهما جزالتها حتى لا تلين و الثاني انطباعها حتى لا تخبو
و أما استيفاء معانيه فيكون من وجهين :

أحدهما : أن يكون المعنى لائحا في مبادي ألفاظه غير مفتقر إلى مقاطعه
و الثاني : أن يكون المعنى مطابقا لألفاظه فلا يزيد عليها و لا يقصر عنه فإن زاد كان الاختلال في اللفظ و إن نقص كان الاختلال في المعنى
و أما حسن نظمه فيكون من وجهين : أحدهما أن يكون الكلام متناسبا لا يتنافر و الثاني أن يكون الوزن معتدلا لا يتباين

فإن قيل : قد يجتمع في كلام البشر ما يستكمل هذه الشروط فبطل به الإعجاز فالجواب عنه من وجهين :
أحدهما : أن أسلوب نظمه على هذه الشروط معدوم في غيره فافترقا
و الثاني : أن لنظم ألفاظه بهجة لا توجد في غيره فاختلغا لأنك إذا جمعت بين قول الله تعالى : { ولكم في القصص حياة } و بين قولهم [القتل أنفى للقتل] و جدت بينهما فروقا في اللفظ و المعنى
٢ — — إيجازه :

و الوجه الثاني من إعجازه إيجازه عن هذا الإكثار و استيفاء معانيه في قليل الكلام كقوله تعالى : { وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين }
فإن قيل : ليس جميعه و جيزا مختصرا و فيه المبسوط و المكرر و بعضه أفصح من بعض و لو كان من عند الله لتمثال و لم يتفاضل لأن التفاضل في كلام من يكل خاطره و تضعف قريحته فعنه جوابان :
أحدهما : أن اختلافه في البسط و الإيجاز ليس للعجز عن تماثله ولكن لاختلاف الناس في تصوره و فهمه و تفاضله في القصاحة بحسب تفاضل معانيه لا للعجز عن تساويه

و الثاني : أنه خالف بين مبسوطه و مختصره و بين أفصحه و أسهله ليكون العجز عن أسهله و أبسطه أبلغ في الإعجاز من العجز عن أفصحه و أخصره و لذلك فاضل بين خلقه ليعرف به فرق ما بين القاضل و المفضول
و قد حكى أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : { فاصدع بما تؤمر } فسجد و قال : سجدت لقصاحة هذا الكلام

فأما تكرار قصصه و تكرار وعده و وعيده فلأسباب مستفادة منها ألما في التكرار أوكد و في المبالغة أزيد و منها ألما تتغير ألفاظها فتكون إلى القبول أسرع و في الإعجاز أبلغ و منها ألما إن أخل بالوقوف عليها في موضع أدركها

في غيره فلم يخل من رغب و رهب

٣ — علوم عن منظوم الكلام و منشوره :

و الوجه الثالث من إعجازه : أن نظم أسلوبه و وصف اعتداله يخرج عن منظوم الكلام و منشوره و لا يدخل في شعر و لا رجز و لا سجعة و لا خطبة حتى تجاوز محصور أقسامه و باين سائر أنواعه بأسلوب لا يشاكل و نظم لا يماثل فصار و إن كان من حروف الكلام خارجا عن أقسام الكلام فقد قال أنيس الغفاري و هو أخو أبي ذر الغفاري و كان من الموصوفين بالتقدم في [البلاغة و الفصاحة] : عرضت القرآن على السجع و الشعر و النظم و الشر فلم يوافق شيئا من طرق كلام العرب

و حكي عن الوليد بن المغيرة — و كان سيد عشيرته و أفصح قومه — أنه جاء إلى أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و هو على كفره فقال : اقرؤا علي شيئا من القرآن فقرأوا عليه فقال : ليس هذا من كلام البشر و ليس بشعر فمضى إليه أبو لهب قال : أفسدت قريشا بهذا القول فارجع عنه فقال : أقول إنه سحر

و قد تعاطاه من الشعراء ما خرج عن أسلوبه إلى طريقة شعره فقال في قصة الفيل :

(ألا من مهلك الفيل ... و من سار مع الفيل)

(بطير صبه الله ... عليهم من أبابيل)

(رمتهم بجناديل ... ترى من طين سجيل)

(فأضحى القوم في القاع ... كعصف غير مأكول)

فلم يساعده الطبع عليه مع أخذ معانيه و استعمال ألفاظه حتى عاد إلى مطبوع شعره

و ضمن آخر من الشعراء شيئا منه في شعره فخرج عن أسلوبه حيث يقول :

(و قرا معانا ليصدع قلبي ... و الهوى يصدع الفؤاد السقيما)

(أرايت الذي يكذب بالدين ... فلذاك الذي يدع اليتيما)

فإن قيل : لو كان لنظم القرآن أسلوب معجز لما طلب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عند جمع القرآن من

يأتيه بالآية و الآيتين شهودا أنه سمعه من رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و لاكتفى بأسلوب نظمته عن بينة

تشهد به و لكان لا يشتبه على ابن مسعود في المعوذتين حين أخرجهما من القرآن و لا على أبي بن كعب في

القنوت حين أدخله في القرآن و لا على امرأة ابن رواحة في شعره حتى توهمته من القرآن فعنه جوابان :

أحدهما : أن عمر التمس الشهادة في الآية و الآيتين مما لا يكون بانفراده معجزا لأن الإعجاز مختص بما وقع به

التحدي و أقل ما يقع به التحدي كأقصر سورة في القرآن آيات و حروفا و هي { سورة الكوثر } و ما قصر عنه

لا إعجاز فيه فكان طلبه للشهادة متوجها إليه

و الثاني : أنه طلب الشهادة على محلها من أي سورة هي و في أي موضع منها توضع و إن كان معلوم الأسلوب

بالمبينة لأن الله تعالى كان يأمر بوضع ما أنزله فيما يراه من السور لقوله تعالى : { إن علينا جمعه و قرآنه }

فأما ابن مسعود فلم يشكل عليه أسلوب المعوذتين أهما من القرآن إنما حكمهما من مصحفه لأنه ظن أن تلاوتهما

قد نسخت

و أما أبي بن كعب فظن أن تلاوة القنوت باقية و لم يعلم أنها قد نسخت

و أما امرأة ابن رواحة فلم تكن من ذوي الفصاحة و البلاغة فتفرق بين الشعر و أسلوب القرآن فلم يكن لوهمها

تأثير

٤ - — كثرة معانيه :

و الوجه الرابع من إعجازه كثرة معانيه التي لا يجمعها كلام البشر و ذلك وجهين :
أحدهما : ما يجمعه قليل الكلام من كثير المعاني كقوله تعالى : { وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين } فجمع في آية واحدة بين أمرين و هيين و خبرين و بشارتين

و الثاني : أن ألفاظه تحمل معاني متغايرة تحار فيها العقول و تذهل فيها الخواطر و تكل فيها القرائح ثم لا تبلغ أقصاه و لا تدرك منتهاه حتى اختلف فيه الوجوه و تقابلت فيه النظائر
فإن قيل : فهذا ألغاز و رمز هو بالذم منه أولى بالحمد فعنه جوابان :
أحدهما : أن الألغاز و إن ذم فالرمز ليس بمذموم و ليس فيه لغز و إن كان فيه رمز
و الثاني : أن ما اختلف معانيه يخرج عن اللغز و الرمز لأن اللغز ما أريد به غير معناه و الرمز ما خفي معناه
٥ - — جمعه للعلوم :

و الوجه الخامس من إعجازه ما جمعه القرآن من علوم لا يحيط بها بشر و لا تجتمع في مخلوق فلم يكن إلا من عند الله المحيط بكل شيء علما حتى علمه من لم يكن به عالما
فإن قيل : فضل العلم لا يكون إعجازا في النبوات لأن العلماء قد يتفاضلون و لا يكون للأفضل إعجاز على المفضول فعنه جوابان :
أحدهما : أن النفاضل في العلم موجود و الإحاطة بجميع العلوم مفقود
و الثاني : أن ظهور العلم فيمن يتعاطاه ليس بمعجز لظهوره من جهته و ظهور فيمن لم يتعاطه معجزا لظهوره من غير جهته
و قد كان أميا من أمة أميه لم يقرأ كتابا و لم يتعاط علما فصار ما أظهر معجزا

٦ - — تضمنه الحجج :

و الوجه السادس من إعجازه ما تضمنه من الحجج و البراهين عاى التوحيد و الرجعة و على الدهرية و الثنوية حتى قطع بحججه كل محتج و خصم بجده له كل خصم ألد
فإن قيل : فدلائل التوحيد مستفادة بالعقول فلم يكن فيها إعجاز من وجهين أحدهما وجودها من ذاته و الثاني : مشاركتها فيها لغيره
و الجواب عنه من وجهين : أحدهما أنه لم يكن من أهل الجدل فيقطع كل مجادل و الثاني أنه احتج للرجعة بما زاد على قضايا العقول فخصم كل عاقل

٧ - — تضمنه أخبار الماضين :

و الوجه السابع من إعجازه ما تضمنه من أخبار القرون الخالية و قصص الأمم السالفة و تحداه به أهل الكتاب من قصة أهل الكهف و شأن موسى و الخضر و حديث ذي القرنين فكان على ما ذكره أنبياءهم و تضمنته كتبهم
فإن قيل : فالأخبار بما كان ليس بمعجز لأن علم غير الأنبياء به ممكن فعنه جوابان :
أحدهما : أنه ممكن فيمن علمها و متنع فيمن لم يعلمها و لم يكن من أهلها فيعلمها فصار معجزا ممتنعا
و الثاني : أنهم اقترحوا تحديه مما لم يكن مبتدئا و لا كان له متناها من غوامض أسرار و غرائب أخبار جعلوها

حجاجا له و عليه ففصح بالجواب عن سرائرها و صدع بنعت غوامضها فخرج عن العرف إلى ما ليس بعرف فصار معجرا

٨ — — تضمنه عن علم الغيب :

و الوجه الثامن من إعجازه ما تضمنه من علم الغيب بأخبار تكون فكانت كقوله لليهود : { قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين } ثم قال : { ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم } فما تمناه أحد منهم

و كقوله لقريش : { فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا } فقطع بأنهم لا يفعلون فلم يفعلوا
أو كقوله : { سيهزم الجمع ويولون الدبر } و كان ذلك في يوم بدر
و كقوله تعالى في هجرته من مكة إلى المدينة { إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد } فأعاده الله إلى مكة
عام الفتح إلى غير ذلك من نظائره

فإن قيل : فقد يكون ذلك حدسا بشواهد الأفعال و فراسة بفضل الأملية و قوة الفطنة فعنه جوابان :
أحدهما : أن الحدس و الفراسة و إن أصاب بهما تارة فقد يخطئ بهما أخرى و هذا إصابة في الجميع فخرجت عن الحديث و الفراسة إلى علم من لا تخفى عليه الغيوب
و الثاني : أن الحدس و الفراسة توهم غير مقطوع بهما قبل الوجود و هذا إخبار بأنه مقطوع بها قبل الوجود
فافترقوا

٩ — — إخباره بضمائر القلوب :

و الوجه التاسع من إعجازه ما فيه من الأخبار بضمائر القلوب التي لا يصل إليها إلا علام الغيوب كقوله : { إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا } من غير أن يظهر منهم قول أو يوجد منهم فشل و كقوله : { وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم } فكان كقوله : و إن لم يتكلموا به إلى غير ذلك من نظائره

فإن قيل : فالجمع الكثير تختلف ضمائرهم في العرف فإن وجد ذلك في بعضهم لم يوجد في جميعهم فإن لم يخل أن يعقده بعضهم خلا منه بعضهم فتقابل القولان فيهم و بطل إعجازه معهم فعنه جوابان :
أحدهما : أنهم و وجهوا بهذا الخبر على العموم فلم ينكروه فزال هذا التفصيل فصار معجرا
و الثاني : أنه جعله ذبا لهم فلم يتصلوا منه فدل على وجوده من جميعهم

١٠ — — جزل القرآن لا يتوعر و لا يسترذل :

و الوجه العاشر من إعجازه أن ألفاظ القرآن قد تشتمل على الجزل المستغرب و السهل المستقرب فلا يتوعر جزله و لا يسترذل سهله و يكونان إذا اجتماعا مطبوعين غير متنافرين و لا نجد ذلك في غيره من كلام البشر لأن جزله يتوعر و سهله يسترذل و الجميع بينهما يتنافر فصار من هذا الوجه مبانيا و في الإعجاز داخلا
فإن قيل : إنما كان القرآن كذلك لأنه قد تواطأ بكثرة التلاوة فاستلذته الأسماع و استحلته الألسن و لولاه لتباين و اختلف فعنه جوابان :

أحدهما : أن صفته عند أول سماعه لو كانت لما ذكر من العلة لاختلف في مبادئه و غايته

و الثاني : أن غيره من الكلام المختلف لا يتواطأ بكثرة ذكره فبطلت العلة

١١ — — اختصاص تلاوته ببواعث ليست لغيره :

و الوجه الحادي عشر من إعجازه أن تلاوته تخص بخمسة بواعث عليه لا توجد في غيره أحدها : هشاشة مخرجه و الثاني : بجملة رونقه و الثالث : سلاسة نظمه و الرابع : حسن قبوله و الخامس : أن قارئه لا يكل و سامعه لا يمل و هذا في غيره من الكلام المدوم

فإن قيل : إنما وقع في النفوس هذا الموقع للتدين بالترامه و التخصيص بإعظامه فعنه جوابان أحدهما : أن هذا موجود في غيره من كتب الله تعالى كالنوراة و الإنجيل و الزبور و ليس يوجد ذلك فيها مع وجود هذا التعليل و لذلك ما استعان أهلها على استحلاء تلاوتها بما وضعوه لها من الألحان و استعذبوه لها من الأصوات و القرآن مستغن عن هذا بصيغة لفظه فلذلك ما راع و هيح الطباع و الثاني : التدين لا يسلب العقول تمييزها و لا يفسد عليها تصورها و هو بأن يزيد بها بصيرة أولى من أن ينقصها و لو كان لهذه العلة لجمده من كفر كما اعترف به من آمن و قول الجميع فيه سواء ١٢ — القرآن منزل بألفاظه و معانيه لا كسائر الكتب الدينية :

و الوجه الثاني عشر من إعجازه أنه منقول بألفاظه منزلة و معان مستودعة و بلغة الملك بلفظه و على نظمه و أداه الرسول إلى الأمة بمثله فلم ينخرم فيه لفظ و لا اختل فيه معنى و لا تغير له ترتيب حتى صار من الزلل مضبوطا و من التبديل محفوظا تستمر به الأعصار على شاكلته و تتداوله الألسن مع اختلاف اللغات على نظمه و صفته لا يختلف بتعاقب الأزمنة و لا يخل بتباعد الأمكنة و لا يتغير باختلاف الألسنة و غيره من الكتب مقصورة على حفظ معانيها و إن غویرت ألفاظها

فإن التوراة ألقى الله تعالى معانيها إلى موسى عليه السلام فذكرها بلفظه و عبر عنها بكلامه و أما الإنجيل فهو ما أخبر به عيسى عليه السلام عن ربه و عن نفسه فجمعه تلامذته بألفاظهم و جعلوه كتابا متلوا و أما الزبور فأدعية بتحاميد و تساييح تنسب إلى داود عن لفظه و لئن كانت معاني هذه الكتب مضافة إلى الله تعالى فليست بصيغة لفظه و لا على نظم كلامه كما نزل القرآن جامعا لألفاظه و معانيه و ترتيبه فصار مباينا لجميع كتبه و ما هذا إلا بمعونة إلهية حفظ الله تعالى بها إعجازه و أمد بها رسوله كما قال تعالى : { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون }

فإن قيل : فحفظ الكلام على صيغة لفظه و اشتغال معانيه لا يكون معجزا كأشعار الجاهلية القلماء و أمثال من سلف من الحكماء فعنه جوابان :

أحدهما : أن في هذا محولا و متروكا فلم ينحفظ

و الثاني : أنه لا يعلم حاله فلم ينضبط و القرآن مخالف لهما في حفظه و ضبطه

١٣ — ارتباط معانيه المتغيرة :

و الوجه الثالث عشر من إعجازه اقتران معانيه المتغيرة و اقتران نظائرها في السور المختلفة فيخرج في السورة من وعد إلى وعيد و من ترغيب إلى تهيب و من ماض إلى مستقبل و من قصص إلى مثل و من حكم إلى جدل فلا ينبو و لا يتنافر و هي في غيره من الكلام متنافرة فتجانس معانيها و كذلك هي في غيره من الكتب المنزلة مفصلة لكل نوع سفر فإن التوراة مقسومة على خمسة أسفار و كل سفر منها مفرد بمعنى واحد من المعاني المستودعة فيها فالسفر الأول : لذكر بدء الخلق و السفر الثاني : لخروج بني إسرائيل من مصر و السفر الثالث : لأمر القرايين و السفر الرابع : لإحصاء موسى بني إسرائيل و ما دبرهم به و السفر الخامس : لتكرير النوااميس و جعل اختلاف معانيها موجبا لغاظيلها فكان أفضل ما في التوراة عند اليهود العشر الكلمات المشتملة على الوصايا التي خاطب

الله تعالى بها موسى و بها يستخفون دون غيرها

و أفضل ما في الإنجيل الصحف الأربعة المنسوبة إلى تلامذة المسيح الأربعة و هي المخصوصة بالقراءة في الصلاة و الأعياد

و أفضل ما في الربور ما اتفق أهل الكتابين على اختياره و ما اشتمل عليه القرآن من تغييرها أولى من وجهين :

إحدهما : أن لا يختص قارئه بأحدها فيعدل عن غيره

و الثاني : أن يستوعب إذا أراد جميعها قراءة جميعه فيستكمل فوائده و يستجزل ثوابه

فإن قيل : فالتفصيل أبلغ في البيان من الامتراج فالجواب عنه ما ذكرناه من الوجهين

١٤ — طول الآيات و قصرها لم يؤثر في أسلوبها :

و الوجه الرابع عشر من إعجازه أن اختلاف آياته في الطول و القصر لا يخرج عن أسلوبه و لا يزول عن اعتداله و

غيره من نظم الكلام و نثره إذا تفصلت أجزاءه زال عن وزن منظومه و اعتدال منشوره فصار ذلك من إعجازه

فإن قيل : زيادة طوله هذر و نقصان قصره حصر فكيف يكون معجزا إذا تردد بين هذر و حصر ؟ فعنه جوابان :

أحدهما : أن الزيادة تكون هذرا إذا لم تفد و النقصان يكون حصرا إذا لم يقنع و الزيادة من طوله و النقصان من

قصره مقنع فخرج عن الهذر و الحصر

و الثاني : أن الطويل لو انفرد لم يكن هذرا و القصير لو انفرد لم يكن حصرا فلم يكن اجتماعهما موجبا لهذر و

حصر كاختلاف السور في القصر و الطول فإن أقصر السور سورة الكوثر و تشتمل مع قصرها على أربعة معان :

إخبار بنعمة و أمر بعبادة و بشرى بمسرة و أسلوب هو معجز فلم تخرج إذا قورنت بما هو أطول أن تكون معجزة

١٥ — أكثر تلاوته لا يزداد بالقراءة فصاحة

و الوجه الخامس عشر من إعجازه أن أكثر تلاوته لا يزداد به فصاحة و إن ازداد بغيره من فصيح الكلام لخروجه

عن طباع البشر فصار أسلوبه معجزا في الحالين و على كلا الوجهين

فإن قيل : ما لا يؤثر في الطباع ناقص عن الكمال فكيف يوصف بالكمال ؟ فعنه جوابان :

أحدهما : أن كماله فيه فلم يلزم تعديله

و الثاني : أن كماله يوجب المنع من تساويه

١٦ — تيسيره على جميع الألسنة :

و الوجه السادس عشر من إعجازه تيسيره على جميع الألسنة حتى حفظ الأعجمي الأبكم و دار به لسان القبطي

الألكن و لا يحفظ غيره من الكتب كحفظه و لا تجري به ألسنة البكم كجريها به و ما ذاك إلا بخصائص إلهية فضله

بها على سائر كتبه

فإن قيل : فقد يحفظ الشعر كحفظه و العلة فيه اعتدال وزنه الذي يحفظ بعضه بعضا فلم يكن ذلك معجزا فعنه

جوابان :

أحدهما : إن ما اندرس من الشعر أكثر مما حفظ و هذا محفوظ لم يندرس فاختلفا

و الثاني : ما لم تستعذبه الأفواه متروك و القرآن مستعذب غير متروك فافترقا

١٧ — القرآن أعلى مراتب الكلام

و الوجه السابع عشر من إعجازه أن الكلام يترتب ثلاث مراتب : منثور يدخل في قدرة الخلق و شعر هو أعلى منه

يقدر عليه فريق و يعجز عنه فريق و قرآن هو أعلى من جميعها و أفضل من سائرهما تجاوز رتبة النوعين فخرج عن

قدرة الفريقين

فإن قيل : لو كان القرآن برهانا معجزا لخرج كثيرة و قليله عن القدرة و قليله مقدور عليه و هو أن يجمع بين ثلاث كلمات منه أو أربع فكذلك كثيره لأن الشيء إذا دخلت أوائله في جنس الممكن خرجت أو اخره من جنس الممتنع فعنه جوابان :

أحدهما : أن قليله و كثيره خارج عن القدرة إذا انظم إعجازه و هو كأقصر سورة منه فبطل هذا الاعتراض و الثاني : أنه ليس القدرة على الكلمة و الكلمتين منه قدرة على استكمال ما يقع من التحدي كالمفحم في الشعر لا تكون قدرته على الكلمة و الكلمتين من بيت من الشعر قدرة على نظم بيت كامل من الشعر ١٨ — — الزيادة فيه مماثلة و التغيير مفتضح :

و الوجه الثامن عشر من إعجازه أن الزيادة فيه مماثلة و تغيير ألفاظه منه مفتضحة و لو كان في القدرة لالتبس و لو أمكن لاشتبه

فإن قيل : فقد زيد فيه فالتبس و اشتبه و هو أن النبي صلى الله تعالى عليه و سلم لما نزلت عليه سورة النجم بمكة قرأها في المسجد الحرام حتى بلغ إلى قوله تعالى : { أفرايم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى } ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرائيق العلى و أن شفاعتهن لترتجى ثم تمم السورة و سجد فسجد معه المسلمون و فرح المشركون فسجلوا معه و رضيت كفار قريش به و سمع به من هاجر إلى أرض الحبشة فعادوا إلى أن أنكر عليه جبريل فشق عليه و نزل فيه قوله تعالى : { وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته } قالوا : و معلوم أن هذه الزيادة هي في مثل أسلوب السورة و ليست من الله تعالى و قد اشتبهت فلم لا كان ما سواها بمثابة فعنه جوابان :

أحدهما : أن هذه زيادة لا تبلغ قدر التحدي فخرجت عن حكمه الثاني : أنه أنزل فيهم [التي عندهم] أيها الغرائيق العلى و إن شفاعتهن لترتجى فاشتبه على قريش و حذفوا منه قوله [التي عندهم] فنسخ الله تعالى لهذا الاشتباه تلاوة هذه الزيادة ١٩ — — عجز الأمم عن معارضته :

و الوجه التاسع عشر من إعجازه عجز الأمم عن معارضته و قد تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم تخرجهم أنفة التحدي و صبروا على نغص العجز مع شدة حميتهم و قوة أنفهم و قد سقه أحلامهم و سب أصنامهم و لو وجدوا إلى المعارضة سبيلا — و كان في مقدورهم داخلا و قد جعله حجة لهم في رد رسالته — لعارضوه و لما عدلوا عنه إلى بذل نفوسهم في قتاله و سفك دمائهم في محاربته

فإن قيل : فليس يمتنع أن يكونوا قد عارضوا بمثله فكتم ما هجي به من الأشعار و قرف به من العار فعنه جوابان : أحدهما : أنهم لو عارضوه لظهر و لو ظهر لانتشر لأن تكاتم الاستفاضة لا تستطاع لما في الطباع من الإذاعة و في نفثات الصلور من الإشاعة و لقليل قد عورض فكتم كما قيل هجي فكتم و لو جاز هذا في معارضة القرآن لجاز مثله في معجزة كل نبي أن يقال : قد عورض معجزة فكتم فيفضي إلى إبطال كل معجز و هذا مدفوع في معارضة غير للقرآن فكان مدفوعا في معارضة القرآن

و الثاني : أنه قد جعل معارضته حجة لهم في رد رسالته فلو عارضوه لاحتجوا عليه بالمعارضة و لما احتاجوا معه إلى القتال و الخاربة مع بذل النفوس و استهلاك الأموال و لدفعوه بالأهون دون الأصعب و قد نقل ما عورض به فظهر

فيه العجز و بان فيه النقص حتى فضحته ركافة لفظه و سخافة نظمه

نماذج من المعارض السخيفة :

فحكى ابن قتيبة عن مسيلمة أنه قال في معارضة القرآن : يا ضفدع نقي كم تنقن لا الماء تكدرين و لا الشراب تمنعين فلما سمع هذا أبو بكر رضي الله تعالى عنه قال إن هذا الكلام لم يخرج من إله و حكى عن غيره و أحسبه العنسي أنه قال : ألم تر كيف فعل ربك بالحبلأى أخرج من بطنها نسمة تسعى من بين شراسيف وحشى

و حكى عن آخر الفيل ما الفيل له ذنب و ثيل و مشفر طويل فإن ذلك من خلق ربنا لقليل و حكى الحكم عن عكرمة أن النضر بن الحارث و كان من فصحاء قريش عارض القرآن فقال : و الزارعات زرعاً و الحاصدات حصداً و الطاحنات طحناً و العاجنات عجنناً و الخابزات خبزاً فاللاقمات لقماً و قال آخر قد أفلح من هينم في صلاته و أطعم المساكين من مخلاته و أخرج الواجب من زكاته و قال آخر : في معارضة سورة النجم و النجم إذا سما و البحر إذا طما ما زاغ منذركم و ما طغى و ما كذب بما و غوى فيما نطق به و روى فأنزل الله تعالى في ذلك : { ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء } فهذه المعارضة و قد احتذوا فيها مثلاً عدلوا بما عن طوال السور إلى قصارها فأتوا بسقيم الكلام دون سليمه و بسخيفه دون جميله فكيف يقابل به غايته القصوى و يورى به طبقته العليا و هل ذلك إلا كمن عارض فصاحة سحبان بعى باقل أو تخليط مجنون بحزم عاقل أو قاس الدر بالدر و شاكل بين الصفو و الكدر و من تعاطى ما ليس في طبعه فخر صريعاً و هوى سريعاً

٢٠ — — الصرفه عن معارضته :

الوجه العشرون من إعجازه الصرفه عن معارضته و اختلف من قال بما هل صرفوا عن القدرة على معارضته أو صرفوا عن معارضته مع دخوله في مقدورهم ؟ على قولين : أحدهما : أنهم صرفوا عن القدرة و لو قدروا لعارضوا و القول الثاني : أنهم صرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم و الصرفه إعجاز على القولين معا في قول من نفاها و أثبتها فخرقتها للعاده فيما دخل في القدرة فإن قيل : فإن عجزوا عن معارضته بمثله لم يعجزوا عن معارضته بما تقاربه و إن نقص عن رتبته و المعجز ما لم يمكن مقاربتة كما لا يمكن مماثلته فعنه جوابان :

أحدهما : أن مقاربتة تكون بما في مثل أسلوبه إذا قصر عن كماله و الأسلوب ممتع فبطلت المقاربة و ثبت الإعجاز و الثاني : أن المقاربة تمنع من المماثلة و التحدي إنما كان بالمثل دون المقاربة فإذا ثبت إعجاز القرآن من هذه الوجوه كلها صح أن يكون كل واحد منها معجزاً فإذا جمع القرآن سائرهما كان إعجازه أقهر و حجاجه أظهر و صار كفلق البحر و إحياء الموتى لأن مدار الحجة في المعجزة إيجاد ما لا يستطيع الخلق مثله سواء كان جسماً مخترعاً أو جرماً مبتدعاً أو عرضاً متوهماً

القرآن معجز للعرب العاربة و المولدين

فإن قيل : أفيعتبرون عجز العرب العاربة عنه دون المولدين أو عجز الجميع

قيل : فيه خلاف بين أهل العلم على وجهين :

أحدهما : أن المعتبر فيه عجز الجميع ليكون أعم و الوجه الثاني معتبر فيه عجز العرب العاربة دون المولدين ليكون معتبرا بمن يلجأ إلى طبعه و لا يعول على تكفله و تعلمه

و هكذا اختلفوا هل يعتبر فيه عجز أهل عصره أو في جميع دهره على هذين الوجهين :

أحدهما : يعتبر فيه عجز أهل العصر لأنهم حجة على أهل كل عصر و الوجه الثاني : أنه يعتبر عجز أهل عصر لعموم التحدي فيه لأهل كل عصر

إعجاز القرآن من الله تعالى :

فإن قيل : فليس عجز كل الإنس عن مثله موجبا لإضافته إلى الله تعالى لجواز أن تكون الشياطين قد أعانت عليه

حتى خرج عن مقدور الإنس كما أعانت سليمان على ما عجز عنه الإنس فعنه أجوبة :

أحدها : إن هذ يتوجه على موسى في فلق البحر و على عيسى في إحيار الموتى و يقدح في جميع النبوات فلم يجز لمن أثبتها أن يخص به بعض المعجزات

و الجواب الثاني : أن الشياطين لم يعرفوا إلا من الرسل و لولاهم لما علم الناس أن في الدنيا شيطانا و لا جانا و قد جهر الرسل بلعنهم و دعوا إلى معصيتهم و لو كانوا أعوانا لدعوا إلى طاعتهم و موالاتهم لأن معونة من أطيع و ولي أحق من معونة من عصى و عودي

و الجواب الثالث : أن الشياطين لا يقدرّون على ذلك إلا بمعونة الله تعالى لهم و هو لا يعين كاذبا عليه فإن كان عن

أمره كان معجزا لأنه من فعله و على هذا كان تسخير سليمان للجن و الله تعالى غني عن الشياطين أن يكونوا

سفراء إلى رسله و أعوانا لأنبيائه و هم ينهمون عن طاعته و يدعون إلى معصيته و هذا القرآن و قد تحدى به الجن كما تحدى به الإنس بقوله تعالى : { قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا }

و حكى عنهم عجزهم عنه بقوله سبحانه : { إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به } الرسول أعلمنا أن الإعجاز من الله :

فإذا تقررت هذه الجملة في إعجاز القرآن فإعجازه يعلم أنه من غير كلام البشر و لا يعلم أنه من عند الله تعالى إلا

بقول الرسول فلو أراد الرسول أن يقول مثله لم يقدر عليه لأنه من البشر إلا أن يمدّه الله تعالى بعون منه فيصير

قادرا عليه و معجزا له لو لم يصف القرآن إلى الله تعالى فأما مع إضافته إليه فلا يكون معجزا له و يكون مصروفا عنه لأن ما أضيف إلى الله تعالى يمتنع أن يكون من غيره لدخوله في جملة الكذب ثم يصير القرآن أصلا للشرع و

معجزا للرسول فيجب على الأمة التزام أحكامه و طاعة الرسول

طاعة القرآن لازمة عقلا و شرعا :

و اختلف في لزوم طاعته و هل وجبت بعد ثبوت رسالته بالعقل أو بالشرع على وجهين :

أحدهما : بالعقل لأن طاعة الرسول طاعة المرسل

و الوجه الثاني : بالشرع بقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم } لأن الرسول مبلغ

القرآن أصل الشرع : و إذا كان القرآن أصلا للشرع فقد اختلف العلماء في حد الأصل و الفرع على وجهين :

أحدهما : أن حد الأصل ما دل على غيره و حد الفرع ما دل عليه غيره فعلى هذا يكون القرآن فرعا لعلم الحس لأنه الدال على صحته

و الوجه الثاني : أن الأصل ما تفرع عنه غيره و الفرع ما تفرع عن غيره فعلى هذا يمتنع أن يكون القرآن فرعاً لعلم الحس لأن الله تعالى تولاّه و جعله أصلاً دل العقل عليه
إبلاغ الرسول ملزم للأمة :

و اختلف العلماء في إبلاغ الرسول هل يكون أمراً أو إعلاماً ؟
فقال بعضهم يكون أمراً لا يلزم الأمة أحكامه لو عرفوه قبل إبلاغه و الوجه الثاني : يكون إعلاماً و يلزمهم أحكامه لو عرفوه قبل إبلاغه و يجوز أن يعلم جميع الأحكام الشرعية من القرآن و لا يجوز أن يعلم جميعها من الاجتماع و لا من القياس لأنهما يعتقدان عن أصل مسموع
و اختلف في جواز العلم بجميعها من سنة الرسول فجوزه بعضهم لقوله تعالى : { وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا } و امتنع منه بعضهم لقوله تعالى : { وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى } و الله تعالى أعلم

الباب الثامن : في معجزات عصمته صلى الله تعالى عليه و سلم

معجزات في عصمة النبي عليه السلام :
أظهر الله تعالى لرسوله صلى الله تعالى عليه و سلم من أعلام نبوته بعد ثبوتها بمعجز القرآن و استغنائه عما سواه من البرهان ما جعله زيادة استبصار يحج بها من قلت فطنته و يذعن لها من ضعف بصيرته ليكون إعجاز القرآن مدركا بالخواطر الثاقبة تفكرا و استدلالا و إعجاز العيان معلوما ببداية الخواص احتياطا و استظهارا فيكون البليد مقهورا بوهمه و بيانه و اللبيب محجوبا بفهمه و بيانه لأن لكل فريق من الناس طريقا هي عليهم أقرب و لهم أجذب فكان ما جمع انقياد الفرق أوضح سبيلا و أعم دليلا
عصمة النبي من أعدائه الكثيرين :

فمن معجزاته : عصمته من أعدائه و هم الجمل الغفير و العدد الكثير و هم على أتم حق عليه و أشد طلب لنفيه و هو بينهم مسترسل قاهر و لهم مخالط و مكاتر ترمقه أبصارهم شذرا و ترتد عنه أيديهم ذعرا و قد هاجر عنه أصحابه حذرا حتى استكمل مدته فيهم ثلاث عشرة سنة ثم خرج عنهم سليما لم يكلم في نفس و لا جسد و ما كان ذاك إلا بعصمة إلهية وعده الله تعالى بها فحققتها حيث يقول : { والله يعصمك من الناس } فعصمه منهم أعداؤه يحاولون قتله :

و إن قريشا اجتمعت في دار الندوة و كان فيهم النضر بن الحارث بن كنانة و كان زعيم القوم و ساعده عبد الله بن الزبيري و كان شاعر القوم فحضهم على قتل محمد صلى الله تعالى عليه و سلم و قال لهم : الموت خير لكم من الحياة فقال بعضهم : كيف نصنع ؟

فقال أبو جهل : هل محمد إلا رجل واحد و هل بنو هاشم إلا قبيلة من قبائل قريش فليس منكم من يزهّد في الحياة فيقتل محمدا و يريح قومه و أطرق مليا فقالوا : من فعل هذا ساد
فقال أبو جهل : ما محمد بأقوى من رجل منا و إن أقوم إليه فأشدخ رأسه بحجر فإن قتلت أرحلت قومي و إن بقيت فذاك الذي أوتره

و على ذلك خرجوا فلما اجتمعوا في الخطيم خرج عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقالوا : قد جاء فتقدم من الركن فقام يصلي فنظروا إليه يطيل الركوع و السجود

فقال أبو جهل : فإني أقوم فأريحكم منه فأخذ مهرasha عظيما و دنا من رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو ساجد لا يلتفت و لا يهابه و هو يراه فلما دنا منه ارتعد و أرسل الحجر على رجله فرجع و قد شذخت أصابعه و هو يرتعد و قد دوخت أوداجه و رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ساجد فقال أبو جهل لأصحابه : خذوني إليكم فالتزموه و قد غشي عليه ساعة فلما أفاق قال له أصحابه ما الذي أصابك ؟ قال : لما دنوت منه أقبل علي من رأسه فحل فاغر فاه فحمل علي أسنانه فلم أتمالك و إني أرى محمدا محجوبا فقال له بعض أصحابه : يا أبا الحكم رغبت و أحبيت الحياة و رجعت قال : ما تغروني عن نفسي

قال النضر بن الحارث : فإن رجع غدا فأنا له قالوا له : يا أبا سهم لئن فعلت هذا لتسودن فلما كان من الغد اجتمعوا في الحطيم منتظرين رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما أشرف عليهم قاموا بأجمعهم فوائه فآخذ حفنة من تراب و قال : شأنت الوجوه و قال : حمر لا يبصرون فتفرقوا عنه

و هذا دفع إلهي وثق به من الله تعالى فصبر عليه حتى وقاه الله و كان من أقوى شاهد على صدقه معمر بن يزيد يحاول قتل النبي صلى الله عليه و سلم : و من أعلامه : أن معمر بن يزيد و كان أشجع قومه استغاثت به قريش و شكوا إليه أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و كانت بنو كنانة تصدر عن رأيه و تطيع أمره فلما شكوا إليه قال لهم : إني قادم إلى ثلاث و أريحكم منه و عندي عشرون ألف مدجج فلا أرى هذا الحي من بني هاشم يقدر على حربي و إن سألوني الدية أعطيتهم عشر ديات ففي مالي سعة و كان يتقلد بسيف طوله سبعة أشبار في عرض شبر و قصته في العرب مشهورة بالشجاعة و البأس

فلبس يوم وعده قريشا سلاحه و ظاهر بين درعين فوافقههم بالحطيم و رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في الحجر يصلي و قد عرف ذلك فما التفت و لا تزعزع و لا قصر في صلاة فليل له : هذا محمد ساجد فأهوى إليه و قد سل سيفه و أقبل نحوه فلما دنا منه رمى بسيفه و عاد فلما صار إلى باب الصفا عشر في درعه فسقط فقام و قد أدمى وجهه بالحجارة يعدو كأشد العدو حتى بلغ البطحاء ما يلتفت إلى خلف فاجتمعوا و غسلوا عن وجهه الدم و قالوا ماذا أصابك ؟

قال : و يحكم المغرور من غررتموه قالوا ما شأنك ؟ قال : ما رأيت كاليوم دعوني ترجع إلي نفسي فتركوه ساعة و قالوا : ما أصابك يا أبا الليث ؟

قال : إني لما دنوت من محمد فأردت أن أهوي بسيفي إليه أهوي إلي من عند رأسه شجاعان أقرعان ينفخان بالنيران و تلمع في أبصارهما فعدوت فما كنت لأعود في شيء من مساة محمد كلداء بن أسد يحاول قتل النبي صلى الله عليه و سلم :

و من أعلامه : أن كلداء بن أسد أبا الأشد و كان من القوة بمكان خاطر قريشا يوما في قتل رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فأعظموا له الخطر إن هو كفاهم فرأى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في الطريق يريد المسجد ما بين دار عقيل و عقال فجاء كلداء و معه المزراق فرجع المزراق في صدره فرجع فرعا فقالت له قريش : ما لك يا أبا الأشد ؟ فقال : و يحكم فإني أراه فلم يزل يعدو حتى بلغ الطائف فاستهزأت به ثقيف فقال : أنا أعذركم لو رأيتم ما رأيتم لهلكم

أبو هب يحاول قتل النبي صلى الله عليه وسلم :

ومن أعلامه : أن أبا هب خرج يوما وقد اجتمعت قريش فقالوا له : يا أبا عتبة إنك سيدنا و أنت أولى بمحمد منا و إن أبا طالب هو الحائل بيننا وبينه و لو قتلته لم ينكر أبو طالب و لا حمزة منك شيئا و أنت بريء من دمه فنؤدي نحن الدية و تسود قومك

فقال : فإني أكفيكم ففرحوا بذلك و مدحته خطبائهم

فلما كان في تلك الليلة و كان مشرفا عليه نزل أبو هب و هو يصلي و تسلفت أم جميل الحائط حتى وقفت على رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و هو ساجد فصاح أبو هب فلم يلتفت إليه و هما كانا لا يقلان قدما و لا يقدران على شيء حتى تفجر الصبح و فرغ صلى الله تعالى عليه و سلم

فقال أبو هب : يا محمد أطلق عنا فقال : ما كنت لأطلق عنكما أو تضمنا لي أنكما لا تؤذياني قالا : قد فعلنا فدعا ربه فرجعا

قريش تتوعد النبي صلى الله عليه وسلم

ومن أعلامه : أن قريشا اجتمعوا في الحطيم فخطبهم عتبة بن ربيعة فقال : إن هذا ابن عبد المطلب قد نغص علينا عشرين و فرق جماعتنا و بدد شملنا و عاب ديننا و سفه أعلامنا و ضلل آباءنا و كان في القوم الوليد بن المغيرة و أبو جهل بن هشام و شيبة بن ربيعة و النضر بن الحرث و منبه و نبيه ابن الحجاج و أمية و أبي ابن خلف في جماعة من صناديد قريش فقال له : قل ما شئت فإننا نطيعك قال : سأقوم فأكمله فإن هو رجع عن كلامه و عما يدعو إليه و إلا رأينا فيه رأينا فقالوا له : شأنك يا أبا عبد شمس

فقام فتقدم إلى النبي صلى الله تعالى عليه و سلم و هو جالس وحده فقال : أنعم صباحا يا محمد

قال : يا عبد شمس إن الله قد أبدلنا بهذا السلام تحية أهل الجنة

قال : يا ابن أخي إني جئتكم من عند صناديد قريش لأعرض عليك أمورهم إن أنت قبلتها فلك الحظ فيها و لنا فيها الفسحة ثم قال : يا ابن عبد المطلب إنك دعوت العرب إلى أمر ما يعرفونه فأقبل مني ما أقول لك قال : قل قال : إن كان ما تدعو إليه تطلب به ملكا فإننا نملكك علينا من غير تعب و نتوجك فارجع عن ذلك فسكت ثم قال له : و إن كان ما تدعو إليه أمرا تريد به امرأة حسناء فحن نزوجك

فقال : لا قوة إلا بالله ثم قال له : و إن كان ما تتكلم به تريد مالا أعطيناك من الأموال حتى تكون أغنى رجل في قريش فإن ذلك أهون علينا من تشتت كلمتنا و تهريق جماعتنا و إن كان ما تدعو إليه جنونا داويناك كما تدوي قيس بني ثعلبة مجنونهم

فسكت النبي صلى الله تعالى عليه و سلم فقال : يا محمد ما تقول ؟ و بم ارجع إلى قريش ؟

فقال النبي صلى الله تعالى عليه و سلم : { حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا و نذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون } حتى بلغ إلى قوله { فإن أعرضوا فقل أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود }

قال عتبة : فلما تكلم بهذا الكلام فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمس رأسي من إعجازها و قام فزعا يجر رداءه فرجع إلى قريش و هو ينتفض انتفاض العصفور و قام النبي صلى الله تعالى عليه و سلم يصلي فقالت قريش لقد ذهب من عندنا نحيطا و رجعت فزعا مرعوبا فما وراءك ؟

قال : و يحكم دعوتي إنه كلمني بكلام لا أدري منه شيئا و لقد رعدت علي الرعدة حتى خفت على نفسي و قلت

الصاعقة قد أخذتني فقدموا عني ذلك

قال ابن عرفة : الصاعقة اسم العذاب على أي حال كان و إنما أهلكت عاد بالريح و ثمود بالجرف فسمى الله تعالى ذلك صاعقة قال الأزهري : الصاعقة : صوت الرعد الشديد الذي يصعق منه الإنسان أي يغشى عليه سراقه بن مالك يحاول قتل النبي صلى الله عليه و سلم :

و من أعلامه : أنه لما أراد الهجرة خرج من مكة و معه أبو بكر فدخل غارا في جبل ثور ليستخفي من قريش و قد طلبته و بذلت لمن جاء به مائة ناقة حمراء فأعانه الله تعالى إخفاء أثره و أنبت على باب الغار ثمامة و هي شجرة صغيرة و ألهمت العنكبوت فنسجت على باب الغار نسج سنين في طرفه عين و لدغ أبو بكر هذه اللية غير لدغة فخرق ثيابه و جعلها في الشقوق و سد بعضها بقدمه اتقاء لرسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و أقام فيه ثلاثة أيام ثم خرج منه فلقبه سراقه بن مالك بن جعشم و هو من جملة من توجه لطلبه فقال له أبو بكر : هذا سراقه قد قرب فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : اللهم اكفنا سراقه فأخذت الأرض قوائم فرسه إلى إبطها فقال سراقه : يا محمد ادع الله أن يطلقني و لك علي أن أرد من جاء يطلبك و لا أعين عليك أبدا فقال اللهم إن كان صادقا فأطلق عن فرسه فأطلق الله عنه ثم أسلم سراقه و حسن إسلامه دعثور يحاول قتل النبي صلى الله عليه و سلم :

و من أعلامه : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم انفرد في غزوة ذي أمر عن أصحابه و اضطجع وحده فوقف عليه دعثور فسل سيفه و قال : يا محمد من يمنعك مني ؟

فقال : الله فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ثم قال له : من يمنعك مني ؟ قال : لا أحد أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله

و عاد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام و فيه نزل قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم } شيبه بن عثمان يحاول قتل النبي صلى الله عليه و سلم :

و من أعلامه : أن الناس لما انهزموا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم يوم حنين و هو معتزل عنهم رآه شيبه بن عثمان بن أبي طلحة فقال : اليوم أدرك ثأري و أقتل محمدا لأن أباه قتل يوم أحد في جماعة إخوته و أعمامه قال شيبه : فلما أردت قتله أقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطلق ذلك : فعلمت أنه ممنوع أربد بن قيس يسعى لقتل النبي صلى الله عليه و سلم :

و من أعلامه : أن عامر بن الطفيل و أربد بن قيس و هو أخو ليث بن ربيعة الشاعر لأمه و فدا على رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في قومهما من بني عامر فقال عامر لأربد : إذا قدمنا على محمد فإني شاغل عنك وجهه فأعله أنت بالسيف حتى تقتله

قال أربد : أفعل ثم أقبل عامر يمشي و كان رجلا جميلا حتى قام على رأس رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقال يا محمد : مالي إن أسلمت ؟ فقال : لك ما للإسلام و عليك ما على الإسلام

قال : ألا تجعلني الوالي من بعدك ؟ قال : ليس ذلك لك و لا لقومك و لكن لك أعنة الخيل تغزو بها قال : أو ليست لي اليوم ؟ و لكن اجعل لي و لك المدد قال : ليس ذلك لك

فقال : قم يا محمد إلى ههنا فقام إليه فوضع عامر يده بين منكبيه ثم أومأ إلى الأبد أن اضرب فسل أربد سيفه قريبا من ذراع ثم أمسك الله يده فلم يستطيع أن يسله و لا يغمد

فالتفت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى أربد فرآه على ما هو عليه [فقال اللهم اكفنيها بما شئت اللهم اهد بني عامر و أغن الدين عن عامر] فانطلقا و عامر يقول : و الله لأملأهما عليك خيلا دهما و وردا فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : [يأي الله ذاك و أبناء قيلة يعني الأنصار] ثم قال عامر لأربد : ويلك لم أمسكت عنه ؟ فقال و الله ما هممت به مرة إلا رأيتك و لا أرى غيرك أفأضربك بالسيف ؟

و سارا فأما عامر فطرح الله عليه الطاعون في عنقه فقتله في بيت امرأة من بني سلول فجعل يقول : أغدة كغدة البكر في بيت امرأة من بني سلول و ركب فرسه فركضه حتى مات

و أما أربد فقدم على قومه فقالوا ما وراءك يا أربد ؟ فقال : و الله لقد دعانا محمد إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بنبلي هذا حتى أقتله ثم خرج بعد مقالته بيوم أو يومين و معه جمال له تتبعه فأرسل الله عليه و على جماله صاعقة أحرقتهم و قيل نزل في صاعقته قول الله تعالى : { هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا } يعني خوفا من الصواعق و طمعا في المطر و فيه يقول لبيد بن ربيعة و هو أخو أربد لأمه :

(أخشى على أربد الختوف و لا ... أهرب نوع السماك و الأسد)

(أفجعني الرعد الصواعق بالقا ... رس يوم الكريهة النجد)

(كل بني حرة مصيرهم ... قل و إن أكثر من العدد)

(أن يغبطوا يهبطوا و إن أمروا ... يوما يصيروا للهلك و النكد)

فإن قيل : فهذه أخبار آحاد لا يقطع بمثلها قيل : العداوة ظاهرة و الطلب معلوم و السلامة موجودة فلم تدفع جملة الأخبار و لم يصح في جميعها توهم الكذب و إن جاز في آحادها توهم الكذب كالحكي من سخاء حاتم و شجاعة عنترة

الباب التاسع — فيما شوهده من معجزات أفعاله

أفعال العباد مقدرة :

إن الله تعالى قدر لعباده أفعالا كما قدر لهم أجساما و آجالا انتهى إلى غاية أعجزهم عن تجاوزها : لتكون أفعالهم مقصورة على عرف مألوف و حد معروف : يتوصلون بها إلى مصالحهم فيعلمون أن ما تجاوزها و خرج عن عرفها من أفعال الله تعالى فيهم لا من أفعالهم فإن أظهرها في أحدهم دل على اختصاصه بالله تعالى دونهم فكان بما ممتازا و إليه تعالى منحازا ليخص بطاعته إلهية كما اختص بأفعالا لاهوتية فلذلك صارت الأفعال المعجزة شاهدة على صحة النبوة

معجزة الطعام القليل المتكاثر :

فمن أعلامه : ما رواه البخاري عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال : قلت لجابر بن عبد الله : حدثني بحديث عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سمعته منه أرويه عنك فقال جابر : كنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الخندق نحفر فلبشنا ثلاثة أيام لم نطعم طعاما و لا تقدر عليه فعرضت في الخندق كدية غليظة لا يعمل فيها الفأس فجت إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت هذه كدية قد عرضت في الخندق و رششنا عليها الماء

فقام و بطنه معصب بالحجر فأخذ المعول و المسحاة ثم سمي ثلاثا ثم ضرب فعادت كثيبا أهيل فلما رأيت ذلك منه قلت : يا رسول الله إنذن لي فأذن لي فجت إلى امرأتي فقلت : ثكلتك أمك إني رأيت من رسول الله صلى الله تعالى

عليه و سلم شيئا لا صبر لي عليه فما عندك قالت عندي صاع من شعير و عناق قال : فطحنا الشعير و ذبحنا العناق و طبخناها و جعلناها في البرمة و عجننا العجين

ثم رجعت إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فلبثت ساعة ثم استأذنت ثانية فأذن لي فجئت فإذا بالعجين قد أمكن فأمرتها بالخبز و جعلت القدر على الأثافي ثم جئت إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فشاورته و قلت : عندنا طعيم لنا فإن رأيت أن تقوم معي أنت و رجل أو رجلان معك فعلت

فقال : ما هو و كم هو ؟ قلت : صاع من شعير و عناق فقال : ارجع إلى أهلِكَ قُلْ لها : لا تنزع البرمة من الأثافي و لا يخرج الخبز من التنور حتى آتي ثم قال للناس : قوموا إلى بيت جابر فاستحييت حياء لا يعلمه إلا الله تعالى

فقلت لامرأتي : قد جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بأصحابه أجمعين

فقالت : أكان سألَكَ كم الطعام ؟ قلت : نعم قالت : الله و رسوله أعلم قد أخبرته بما كان عندنا فذهب عني بعض ما أجده و قلت لها : صدقت

و جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فدخل ثم قال لأصحابه : لا تضغطوا ثم برك على التنور و البرمة

فجعلنا نأخذ من التنور الخبز و نأخذ من البرمة اللحم فشرد و نعرف و نقرب إليهم

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : ليجلس على الصحيفة سبعة أو ثمانية فلما أكلوا : كشفنا التنور و

البرمة فإذا هما قد عادا إلى أملاً مما كانا عليه حتى شبع المسلمون كلهم و بقيت طائفة من الطعام

فقال لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : إن الناس قد أصابهم مخمصة فكلوا و أطعموا فلم نزل يومنا نأكل و نطعم

قال : فأخبروني أنهم كانوا ثمانمائة أو قال مئتين أقل من الثمانمائة و هذا نظير معجزة عيسى عليه السلام في المائدة

و من أعلامه : [ما رواه مالك بن أنس عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول : قال أبو

طلحة لأم سليم : لقد سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ضعيفا أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء

قالت نعم فأخرجت أقراصا من شعير ثم أخرجت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه ثم أرسلني إلى رسول الله صلى الله

تعالى عليه و سلم فوجدته في المسجد معه الناس فقامت عليهم

فقال لي رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : أرسلك أبو طلحة ؟ قلت : نعم قال : للطعام ؟ قلت : نعم

فقال لمن معه : قوموا فانطلق و انطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته فقال أبو طلحة : يا أم سليم قد

جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و ليس عندنا من الطعام ما نطعمهم فقالت : الله و رسوله أعلم فانطلق

أبو طلحة حتى لقي رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و أنس معه حتى دخلا فقال رسول الله صلى الله تعالى

عليه و سلم : يا أم سليم هلمي ما عندك فجاءت بذلك الخبز فأمر به ففت و عصرت أم سليم عكة لها ثم قال

رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ما شاء أن يقول ثم قال : إنذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا

ثم قال إنذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال : إنذن لعشرة حتى أكل القوم و شبعوا و خرجوا

و القوم سبعون أو ثمانون رجلا و المعجز فيه مع إطعام العدد الكثير من الطعام اليسير ما أخبر به أنس بن مالك مما

جاء فيه]

النبي يدعو أهل الصفة إلى صحفة :

و من أعلامه : ما رواه أنيس بن أبي يحيى [عن إسحق بن سالم عن أبي هريرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله

تعالى عليه و سلم فقال لي : ادع لي أصحابك يعني أصحاب الصفة قال : فجعلت أتبعهم رجلا رجلا أوقظهم حتى

جمعهم فجئنا باب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاستأذن فأذن لنا و وضعت بين أيدينا صحيفة أظن فيها صنيعا : قدر مد من الشعير فوضع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يده فقال : خذوا بسم الله فأكلنا ما شئنا ثم رفعنا أيدينا فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين وضعت الصحيفة : و الذي نفس محمد بيده ما أمسى في آل محمد طعام غير شيء ترونه فقيل لأي هريرة : قدركم كانت حين فرغتم قال مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع]

تفجر الماء من البئر الجافة :

و من أعلامه : [أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما حصل بالحديبية و هي جافة قال للناس : انزلوا فقالوا : يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه فأخرج سهما فدفعه إلى البراء بن عازب و قال : اغرز هذا السهم في بعض قلب الحديبية و هي جافة ففعل فجاش الماء و نادى الناس بعضهم بعضا من أراد الماء ؟ فقال أبو سفيان : قد ظهر بالحديبية قلب فيه ماء ثم قال لسهيل ابن عمرو : قم بنا إلى ما فعل محمد فأشرفا على القلب و العيون تحت السهم فقالا : ما رأينا كاليوم قط و هذا من سحر محمد قليل فلما أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحيل قال للناس خلوا حاجتكم من الماء ثم قال للبراء : اذهب فرد السهم فلما فرغوا أو ارتحلوا أخذ البراء السهم فجفف الماء كأنه لم يكن هناك ماء]

و هذا نظير ما أعطي موسى من الحجر الذي انفجرت منا اثنتا عشرة عينا و مثله [ما روي أنه في غزوة بني المصطلق دعا بركة جافة ثم ثفل فيها ثم قلبها فتفجرت من بين أصابعه عيون حتى شرب الخيل و الإبل و ملئ كل سقاء]

تحول الماء المالح إلى زلال :

و من أعلامه : [أن قوما شكوا إليه صلى الله تعالى عليه وسلم ملوحة مائهم فقام بأصحابه حتى أشرف على بئرهم فثفل فيها ثم انصرف فانفجرت بالماء الزلال و كانت غائرة و إنما على حالها إلى اليوم و يتوارثها أهلها و يعدونها من أعظم مفاخرهم]

و لما بلغ ذلك قول مسيلمة سألوه مثلها فثفل فيها فصار ماؤها أجاجا كبول الحمار و هي إلى اليوم على حالها إصلاح شعر قد تمعط :

[و جاءته صلى الله تعالى عليه وسلم امرأة بصبي لها قد تمعط شعره فمسح رأسه بيده فاستوى شعره]

فبلغ ذلك قوم مسيلمة فأتوه بصبي مثله فمسح رأسه فصلع و بقي نسله صلعا إلى وقتنا هذا

عبور الوادي العميق :

و من أعلامه : ما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : [لما غزونا خيبر و معنا من يهود فذك جماعة فلما أشرفنا على القاع إذا نحن بالوادي و الماء يقلع الأشجار و يهدد الجبال فقدرنا الماء فإذا هو أربع عشرة قامة فقال بعض الناس يا رسول الله العدو من ورائنا و الوادي قدامنا فنزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسجد و دعا ثم قال : سيروا على اسم الله

فعبرت الخيل و الإبل و الرجال فكان الفتح و الغلبة له و هذا نظير فلق البحر لموسى]

طفلة مقتولة تستجيب لنداء النبي :

نوع آخر من أعلامه : روى الحسن : [أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إني قدمت من سفر لي فبينما بنت خماسية تدرج حولي في وصيفها و حليها أخذت بيدها فانطلقت بها إلى وادي فلان فطرحتها فيه

فقال النبي صلى الله تعالى عليه و سلم انطلق معي فأراني الوادي فانطلق معه إلى الوادي
فقال النبي صلى الله تعالى عليه و سلم لأبيها : ما كان اسمها ؟ فقال : فلانة فقال النبي : يا فلانة أجبي ياذن الله
فخرجت الصبية و هي تقول لبيك يا رسول الله و سعديك فقال : لها إن أبويك قد أساءا فإن أحبيت أن أردك
عليهما فقالت : لا حاجة لي فيهما وجدت الله خير أب منهما]

و هذا نظير ما فعله عيسى عليه السلام من إحياء الموتى
إبراء المجذوم و الأبرص :

و من أعلامه : [أن طفيلًا العامري جاء إلى النبي صلى الله تعالى عليه و سلم فشكا إليه الجذام فدعا بركة ثم نفل
فيها و أمره أن يغتسل بها فاغتسل فقام صحيحا]

[و أتاه حسان بن عمرو الخزاعي مجذوما فدعا له بماء فتفل فيه ثم أمره فصبه على نفسه فخرج من علته كأن لم
تكن به قط فرجع و دعا قومه إلى الإسلام فأسلموا عن آخرهم]

[و أتاه قيس اللخمي و هو من سادات قومه و به برص فتفل عليه فما بقي عليه إلا مقدار الحبة]

و هذا نظير ما كان من عيسى بن مريم عليه السلام في إبراء الأكمه و الأبرص
تحويل العرجون إلى مشعل :

و من أعلامه : ما رواه سعيد بن أبي سعيد [عن أبيه عن أبي هريرة : أن النبي صلى الله تعالى عليه و سلم انصرف
ليلة من العشاء فأضاءت له برقة فنظر إلى قتادة بن النعمان فعرفه فقال : يا نبي الله كانت ليلة مطيرة فأحببت أن
أصلي معك فأعطاه عرجونا و قال خذ هذا يستضيء لك ليلتك فإذا أتيت بيتك فإن الشيطان قد خلفك فانظر في
الزاوية على يسارك فدخلت فنظرت حيث قال : فإذا أنا بسواد معلق به حتى سبقني و في هذا الخبر معجزات من
فعل و قول]

شفاء العيون المصابة :

و من أعلامه : [أن أبا قتادة بن ربعي جاءه يوم أحد و قد انقلعت إحدى عينيه و تعلق على وجهه فقال : يا
رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم إن لي امرأة و أخشى أن يقصني هذا عندها فردها رسول الله صلى الله تعالى
عليه و سلم إلى موضعها فكانت أحسن عينيه]

و مثله ما رواه عروة بن الزبير : أن زبيرة أسلمت فأصيب بصرها فقالوا لها أصابك اللات و العزى فرد الله عليها
بصرها فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا إليه زبيرة فأنزل الله تعالى : { وقال الذين
كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه }

شفاء اليد المصابة :

و من أعلامه : [أن جرهدا أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و بين يديه طبق فأدنى يده الشمال ليأكل و كانت
اليمنى مصابة فنفت عليها فما اشتكاها بعد إلى ساعته و أبصر رجلا يأكل بشماله فقال : كل بيمينك فقال : لا
أستطيع فقال : لا استطعت فما وصلت إلى فيه بعد و كان كلما رفع اللقمة إلى فيه ذهب في شق آخر]
يد الرسول المباركة :

و من أعلامه : [شاة أم معبد الخزاعية و كانت مجهودة عجفاء و ضراء فمسح رسول الله صلى الله تعالى عليه و
سلم ضرعها فدرت لبنا و امتلأت سمنا و بقيت على حالها إلى أن وافها أجلها]

[و أهدت له أم شريك عكة فيها سمن فأخذ منه شيئا و رد العكة عليها فلم تنزل العكة تصب سمنًا مدة طويلة إلى

أمثال هذا و نظائره]

مناقشة معارضي المعجزات :

فإن قيل : لا يثبت إعجاز النبوات بمثل هذا من أخبار الآحاد فعنه جوابان :

أحدهما : إن رواية الآحاد قد أضافوا إليه في جمع كثير قد شاهدوه و سمعوا روايه فصدقوه و لم يكذبوه و في الممتنع إمساك العدد الكثير عن رد الكذب كما يمتنع افتعالهم للكذب و لشن جاز اتفاقهم على الصدق مع الكثرة و الافتراق و امتنع اتفاقهم على الكذب فلأن دواعي الصدق عامة متناصرة و دواعي الكذب خاصة متنافرة و لذلك كان صدق أكذب الناس أكثر من كذبه لأنه لا يجد من الصدق بدا و يجد من الكذب بدا و الثاني : ألما أخبار وردت من طرق شتى و أمور متغايرة فامتنع أن يكون جميعها كذبا و إن كان في آحادها مجوز فصار مجموعها من التواتر و مفترقها من الآحاد فصار متواتر مجموعها حجة و إن قصر مفترق آحادها عن الحجة و الله تعالى أعلم

الباب العاشر — فيما سمع من معجزات أقواله

الإخبار عن غائب :

و المعجزات من القول هو الإخبار عن غائب لا يعلم به غير مخبره فيكون على صدقه دليلا لأن الخبر ما احتمل الصدق و الكذب و حقيقة الخبر عليه مجازا فإن أضيف المستقبل إلى فعل الخبر كان وعدا يصح من نبي و غير نبي و إن أضيف إلى فعل غيره كان من العيوب المعجزة لا يصح إلا من نبي مبعوث و عن وحي منزل إذا تكرر عاريا عن الأسباب المنذرة و لشن ظهر خبر من غير نبي فهو بالاتفاق عن حدس إن صح في خبر لم يصح في كل خبر و يصح من النبي صلى الله تعالى عليه و سلم في كل خبر لأنه من الله تعالى الخيط بعلم الغيوب كما قال لبيبه : { قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير }

و في خزائن الله ههنا تأويلان : أحدهما : خزائن الرزق فأغنى و أفقر و الثاني : خزائن العذاب فأعجل و ادخر تفسير قوله تعالى { ولا أعلم الغيب }

و في قوله : { ولا أعلم الغيب } تأويلان :

أحدهما : علم الخزان على ما مضى من التأولين

و الثاني : علم ما غاب عن ماض و مستقبل إلا أن المستقبل لا يعلمه إلا الله تعالى و من أطلعه عليه من أنبيائه و أما الماضي فقد يعلمه المخلوقون من أحد وجهين إما من مخلوق معين أو من خالق مخبر فكانت الأخبار المستقبلية من آيات الله تعالى المعجزة فأما الماضية فإن علم بها غير المخبر لم تكن معجزة و إن لم يعلم بها أحد كانت آية معجزة تفسير قوله تعالى : { ولا أقول لكم إني ملك } : و في قوله : { ولا أقول لكم إني ملك } تأويلان :

أحدهما : أنه لا يقدر على ما يعجز عنه العباد و إن قدرت عليه الملائكة

و الثاني : إنه من البشر و ليس بملك لينفي عن نفسه غلو النصراني في المسيح

و في نفيه أن يكون ملكا تأويلان أحدهما : أنه دفع عن نفسه منزلة الملائكة تفضيلا لهم على الأنبياء و الثاني : إني لست ملكا في السماء فأعلم غيب السماء الذي تشاهده الملائكة و يغيب عن البشر و إن كان الأنبياء أفضل من الملائكة مع غيبتهم عما يشاهده الملائكة

و في قوله : { إن أتبع إلا ما يوحى إلي }

أحدهما : لن أخبركم إلا بما أطلعني الله عليه

و الثاني : لن أفعل إلا ما أمرني الله به

{ قل هل يستوي الأعمى والبصير } فيه تأويلان

أحدهما : العالم و الجاهل

و الثاني : المؤمن و الكافر فثبت بما قرناه أن في الأقوال معجزة كالأفعال من أعلام النبوة و آيات الرسل و نحن

نذكر منها ما اختص بقول الرسول دون ما تضمنه القرآن لأن القرآن معجز في الخبر و غير الخبر

و محيي الأخبار ينقسم على أربعة أقسام : أخبار استفاضة و أخبار تواتر و أخبار آحاد بقرائن و أخبار آحاد مجردة

أخبار الاستفاضة :

فأما أخبار الاستفاضة و التواتر فقد أطلق أهل العلم ذكرهما و لم يفرقوا بينهما و هما عندي مفترقان لأن اختلاف

الأسماء موضوع لاختلاف المسمى فكان حملها على حقيقة الاختلاف أولى من حملها على مجاز الالتلاف

فأخبار الاستفاضة : ما بدأت منتشرة عن كل مخبر بر و فاجر عن قصد و غير قصد و يتحققها كل سامع من عالم و

جاهل فلا يختلف فيها مخبر و لا يتشكك فيها سامع و يستوي طرفاها و وسطها فكون أوائلها كأواخرها و تناهيها

و هي أقوى الأخبار ورودا و أبلغها ثبوتا

أخبار التواتر : و أما أخبار التواتر : فهو ما أخبر به الواحد بعد الواحد حتى كثروا أو بلغوا عددا ينتفي عن مثلهم

المواطأة على الكذب و الاتفاق على الغلط و لا يعرض في خبرهم شك و لا توهم فيكون من أوله من أخبار الآحاد

و في آخره من أخبار التواتر فيصير مخالفا لأخبار الاستفاضة في أوله و موافقا لها في آخره و يكون الفرق بين خبر

الاستفاضة و خبر التواتر من ثلاثة أوجه :

أحدها : ما ذكرناه من اختلافهما في الابتداء و الانتهاء

و الثاني : أن أخبار الاستفاضة قد تكون عن غير قصد و أخبار التواتر لا تكون إلا عن قصد

و الثالث : أن أخبار الاستفاضة لا يعتبر فيها عدالة المخبرين و يعتبر في أخبار التواتر عدالة المخبرين ثم يستوي

الخبران في انتفاء الشك عنهما و وقوع العلم بهما

و مثال الاستفاضة في أحكام الشرع أعداد الصلوات و مثال التواتر في أحكام الشرع نصب الزكوات و يختلف في

وقوع العلم بهما هل هو علم اضطرار أو علم اكتساب على وجهين :

أحدهما : أنه علم اكتساب وقع عن استدلال : و هو قول بعض أصحاب الشافعي و بعض المتكلمين لأن العلم

بمخبرهم يقتضون بصفات تختص بهم فصار طلب الصفات استدلالا يوصل إلى العلم بمخبرهم

و يختلف القائلون بهذا : هل اكتسب العلم به من الخبر أو المخبر على وجهين أحدهما : من الخبر لأنه المقصود و

الثاني : من المخبر لأنه المبلغ فهذا قول من جعله علم استدلال

و الوجه الثاني : و هو قول الأكثرين من الفقهاء و المتكلمة : أنه علم اضطرار أدرك ببداية العقول لأن العلم به قد

يسبق إلى اليقين من غير نظر و يستقر في القلوب من غير انتقال

و يختلف القائلون بهذا في علمه بالاضطرار هل هو من فعل المخبر أو من فعل الله تعالى على وجهين : أحدهما : من

فعل المخبر لو صوله إليه بنفسه و هو أكثر الفقهاء و الوجه الثاني : أنه من فعل الله تعالى لأنه الملجئ إليه و هو قول

أكثر المتكلمين

و اختلف من قال بهذا منهم على وجهين : أحدهما : أنه من فعل الله تعالى في الخبر و الثاني : أنه من فعله في المخبر و الذي أراه أولى أن أخبار الاستفاضة توجب علم الاضطرار و أخبار التواتر توجب علم الاستدلال لاستغناء الإفاضة عن نظر و احتياج التواتر إلى نظر مع وقوع العلم بهما و زعمت الإمامية أنه لا يقع العلم بأخبار الاستفاضة و التواتر إلا أن يكون في الخبرين إمام معصوم أو يصدقهم عليه إمام معصوم و حكى عن ضرار بن عمرو أن حجة الاستفاضة و التواتر لا تقوم بعد الرسل بنقل أقوالهم و أفعالهم إلا بإجماع الأمة على صدقهم أو صحة نقلهم و كلا القولين مدفوع بقضايا العقول لأنها تضطر إلى العلم بما كعلم الاضطرار بالمشاهدات و مدركات الحواس لأن الأخبار بالبلاد أن فيها مكة و الصين يعلم بالاضطرار كما يعلم بالمشاهدة و كما يعلم الإنسان أن تحته أرضا و سماء فوقه لوجود أنفسنا عالمة بما على سواء و لما في غرائز الفطر من ذلك قال طفيل الغنوي و هو أعرابي بطبع سليم من التكلف و بديهة خلصت من التعمق و التعسف ما يدل على العلم بأخبار الاستفاضة و التواتر :

(تأويني هم من الليل منصب ... و جاء من الأخبار ما لا يكذب)

(تظاهرون حتى لم تكن لي ربية ... و لم يك فيما أخبروا متعقب)

أخبار الآحاد :

و أما أخبار الآحاد فضربان :

أحدهما : أن يقترن بها ما يوجب العلم بمضمونها و قد يكون ذلك من خمسة أوجه :

أحدها : أن يصدقه عليه من يقطع بصدقه كالرسول أو من أخبز الرسول بصدقه فيعلم به صدق المخبر و صحة الخبر

و الثاني : أن تجتمع الأمة على صدقه فيعلم بإجماعهم أنه صادق في خبره

و الثالث : أن يجمعوا على قبوله و العمل به فيكون دليلا على صدق خبره

و الرابع : أن يكون الخبر مضافا إلى حال قد شاهدها عدد كبير و سمعت رواية الخبر فلم ينكروه على المخبر فيدل على صحته و صدق المخبر

و الخامس : أن يقترن بالخبر دلائل العقول فإن كان مضافا إليها كان صدقا لازما لأن ما وافقها لا يكون إلا حقا و إن كان مضافا إلى غيرها لم يدل موافقتها على صدق الخبر و إن أوجب صحة ما تضمنه الخبر

و الضرب الثاني : أن ينفرد خبر الواحد عن قرينة تدل على صدقه فهي أمانة توجب عليه الظن و لا تقتضي العلم بقوى إذا تطاول به الزمان فلم يعارض برد و لا مخالفة و إن تكرر في معناها ما يوافقها صار جميعها متواترا و إن كان أفرادها آحادا و إذا استقر هذا الأصل في الأخبار و لم يخرج المروي من أعلام الرسول عنها و قد ذكرنا ما روي من أفعاله و سذكر ما روي من أقواله :

إخبار النبي عن اتساع ملك المسلمين :

فمنها : ما روي عن النبي صلى الله تعالى عليه و سلم أنه قال : [أزويت لي الأرض فأريت مشارقها و مغاربها و سيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها] فصدق الله خبره و حقق ما ذكره و ملك أمته أقطار الأرض حتى دان له بشرعه من في المشرق و المغرب

إخباره بفتح المدائن :

و قال عليه السلام لعدي بن حاتم : [لا يمنعك من هذا الدين ما ترى من جهد أهله و ضعف أصحابه فلكأنهم

بيضاء المدائن قد فتحت عليهم و لكأنهم بالطعينة تخرج من الحيرة حتى تأتي مكة بغير غفارة لا يخاف إلا الله فأبصر عدي ذلك كله و هذا لا يكون إلا من إطلاع الله تعالى على غيبه و تحقيقه لوعده في قوله : { ليظهره على الدين كله } [

إخباره عن فتح الشام و فارس و اليمن :

و من أعلامه : ما رواه البراء بن عازب قال : [أمرنا رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بحفر الخندق فعرضت لنا صخرة عظيمة لا يأخذ فيها المعول فأخذ المعول و قال : بسم الله و ضرب ضربة فكسر ثلثها و قال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر و قال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس ثم ضرب الثالثة فقطه بقية الحجر و قال : الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن فصدق الله قوله و أعطاه ما فتح له [

إخباره بفتح مصر :

و روى كعب بن مالك قال : [سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم يقول : إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم رحما و ذمة] يعني أن أم إسماعيل بن إبراهيم كانت منهم

إخباره عن مقتل كسرى و زوال ملكه :

و من أعلامه : أنه كتب إلى كسرى كتابا يدعو به إلى الإسلام و بدأ باسمه قبل اسمه فلما قرأه أنف لنفسه من ابتدائه باسمه فمزق كتابه فبلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقال : [تمزق ملكه]

ثم كتب كسرى في الوقت إلى عامله باليمن باذان و يكنى أبا مهران : أن أحمل إلي هذا الذي يذكر أنه نبي و بدأ باسمه قبل اسمه و دعاني إلى غير ديني فبعث إليه فيروز بن الديلمي مع جماعة من أصحابه و كتب معهم كتابا يذكر فيه ما كتب به كسرى

فأتاه فيروز بمن معه و قال له : إني ربي يعني كسرى أمرني أن أحملك إليه فاستنظره ليلة فلما كان من الغد حضر فيروز فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : [أخبرني ربي أنه قتل ربك البارحة سلط عليه ابنه شيرويه على سبع ساعات من الليل فأمسك ريثما الخبر] فراع ذلك فيروز و هاله

و عاد فيروز إلى باذان فأخبره فقال له باذان كيف وجدت نفسك حين دخلت إليه فقال : و الله ما هبت أحدا قط كهيبة هذا الرجل فقال باذان : إن كان ما قاله حقا فهو نبي فلم يرعه إلا ورود الخبر عليه يقتله في تلك الليلة من تلك الساعة فأسلم باذان و فيروز و من معهم من الأبناء

و ظهر العنسي بما افتراه من الكذب فأرسل فيروز أن يقتله قتله الله فقتله و في هذا الخبر من آيات الغيوب ما لا يعلمه إلا الله أو من أطلعه عليه

بشارته لسراقة بأنه سيلبس سوارى كسرى :

و من أعلامه : أنه رأى ذراعي سراقة بن مالك بن جعشم دقيقين أشعرين فقال : كيف بك إذا ألبست بعدي سوارى كسرى فلما فتحت فارس دعاه عمر و ألبسه سوارى كسرى و قال له : قل الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز و ألسبهما سراقة بن جعشم

إخباره عن وفاة النجاشي :

و من أعلامه : ما رواه جابر بن عبد الله قال : [صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ثم قال : إن النجاشي أصحمة قد توفي هذه الساعة فاخرجوا بنا إلى المصلى نصلي عليه فصلى عليه و كبر أربعاً فقال المنافقون : أنظروا إلى هذا يصلي على عليج نصراني لم يره قط فأنزل الله تعالى : { وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل

إليكم وما أنزل إليهم { الآية ثم جاء الخبر بموت النجاشي من تجار و ردوا من المدينة]
و مثله ما روي أن رجلا هبت بنبوك فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم هذا موت منافق عظيم النفاق قد مات في ذلك الوقت

إخباره عن انتصار العرب بذي قار :

و من أعلامه : أنه قال لأصحابه : [اليوم نصرت العرب على العجم و بي نصروا] فجاء خبر الواقعة بذي قار و ما دال الله تعالى فيه العرب من العجم حين قتلت فيه بنو شيبان و بكر بن وائل من الفرس من قتلوا و كان أول يوم انتصف فيه العرب على العجم و جاءهم الخبر أنه كان في الساعة من اليوم الذي أخبر به رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم

إخباره ما جرى في معركة مؤتة :

و من أعلامه : [أنه كشف الله تعالى له ما غاب عنه في جيش مؤتة فقال لأصحابه : أخذ الراية زيد بن حارثة و تقدم فقتل و مات شهيدا ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب و تقدم فقتل و مات شهيدا و وقف وقفة ثم قال و أخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة و تقدم فقتل و مات شهيدا لأن عبد الله بن رواحة توقف عن أخذ الراية بعد قتل جعفر زمانا ثم أخذها قال : ثم ارتضى المسلمون خالد بن الوليد فكشف العدو عنهم حتى خلصوا ثم قام إلى بيت جعفر بن أبي طالب فاستخرج ولده و دمعت عيناه و نعى جعفر إلى أهله] و جاءت الأخبار : بأنهم قتلوا في ذلك اليوم على ما وصفه

إخباره عن قافلة بعيدة :

و من أعلامه : [قوله في ليلة الإسراء حين أصبح مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياما و إذا إناء فيه ماء و قد غطوا عليه فكشفت غطاءه و شربت ما فيه و رددت الغطاء كما كان و آية ذلك أن غيرهم الآن تقبل من موضع كذا يقدمها جمل أورك عليه غرارتان إحداهما : سوداء و الأخرى ورقاء فابتدر القوم الثانية فوجدوا ما وصف و سألمهم عن الإناء فوجدوا الأمر كما قال]

إخباره عن مقتل علي و عمار رضي الله عنهما :

و من أعلامه : [أنه رأى عليا كرم الله وجهه في غزاة العشيرة على التراب و معه عمار فقال لهما : ألا أخبركما بأشقى الناس ؟ قالوا : بلى قال : أشقى الناس أحمـر ثمود و عاقر الناقة و الذي يخضب يا علي هذه من هذه و أشار إلى خيـته من رأسه و قال لعمار : تقتلك الفئة الباغية و آخر زادك من الدنيا صاع من لبن] فكان من قتل ابن ملجم لعنه الله لعلي كرم الله وجهه ما كان و قتل عمار يوم صفين فلما ذكر الخبر لمعاوية لم ينكره و دفعه عن نفسه بأنه قال : إنما قتله من جاء به

إخباره عن قطع يد زيد بن صوجان :

و مثله ما روي : [أن النبي صلى الله تعالى عليه و سلم ذكر زيد صبحان فقال : زيد و ما زيد يسبقه عضو منه إلى الجنة قطعت يده يوم نماوند في سبيل الله و قال : الخلافة بعدي ثلاثون و ما بعد ذلك ملك]

إخباره عن وجود ماء مع أعرابية بعيدة

نوع من آخر من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : [أنه نزل بجيشه في غزوة تبوك على غير ماء و هم نحو من ثلاثين ألفا فعطشوا و شكوا ذلك إليه فبعث أبا قتادة و أبا طلحة و سماك بن خرشنة و سعد بن عبادـة يلتمسون الماء فغابوا إلى قائم الظهيرة ثم رجعوا و لم يجدوا شيئا و بلغ العطش من الناس و الخيل و اللواب فصلى بأصحابه متيمما

فلما فرغ شكوا إليه العطش فبعث أسيد بن حضير و أسامة يلتسسون الماء من الأعراب فقال المنافقون إن محمدا يجرب بأخبار السماء و هو لا يدري الطريق إلى الماء فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره بقولهم و سماهم له فشكا ذلك إلى سعد بن عباد فقال سعد : إن شئت ضربت أعناقهم

فقال : لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه و لكن نحسن صحبتهم ما أقاموا معنا ثم قال لأبي الهيثم بن التيهان و أبي قتادة و سهيل بن بيضاء يستعرضون الطريق و يأخذون على الكتيب فتقفوا ساعة فإن عجوزا من الأعراب تمر بكم على ناقة لها معها سقاء من ماء فأطعموها و اشتروا منها بما عز و هان و جيئوا بها مع الماء فمضوا حتى بلغوا الموضع الذي وصف لهم فإذا بالمرأة فقالوا : تبيعننا هذه الماء قالت : أنا و أهلي أحوج إلى الماء منكم فطلبوا إليها أن تأتي رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم مع الماء فأبت و قالت : إن هذا لساحر خير الأشياء أن لا أراه و لا يراني فشددوها وثاقا حتى جاءوا بها مع الماء

فلما وقفت بين يدي رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قال : خلوا عنها و قال لها : تبيعين هذا الماء ؟ قالت : إن أهلي أحوج إليه منكم قال : فاتنني لنا فيه و ليصبرن ذلك كما جئت به قالت : شأنكم

فقال لأبي قتادة : هات الميضة فقربت إليه فحل السقاء و ثقل فيه و صب في الميضة ماء قليلا ظنا أن يكون نصف الميضة فوضع يده فيه ثم قال : ادنوا فخذوا فجعل الماء يزيد و الناس يأخذون حتى ما أبقوا معهم سقاء إلا ملاءوه و أرووا خيلهم و إبلهم و الميضة ملاءى ثم زاد رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في السقاء حتى ملاءه و بقي في الميضة ثلثاه ثم توضأوا كلهم حين أصبحوا و هو يزيد و لا ينقص [إخباره عن مكان ناقة ضلت :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : أن ناقة له ضلت في توجهه إلى تبوك فتفرق الناس في طلبها و كان عنده عمارة بن حزم و في رحل عمارة زيد بن اللصيت و كان يهوديا قد أسلم و نافق فقال زيد في رحل عمارة : يزعم محمد أنه نبي يخبركم خبر السماء و هو لا يدري أين ناقتة

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : إن منافقا يقول أليس محمد يزعم أنه نبي و يخبركم بخبر السماء و لا يدري أين ناقتة و الله لا أعلم إلا ما علمني ربي و قد أعلمني أنها في الوادي في شعب كذا حبستها سمة بزمامها فبادر الناس فوجدوها كذلك فأتوه بها

فرجع عمارة بن حزم إلى رحله و قال : لقد عجبت مما ذكره رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقال رجل : كان في رحله مع زيد بن اللصيت : أن زيدا قال هذا قبل أن تطلع علينا فوجأ عمارة زيدا في عنقه و قال : إنك لداهية في رحلي اخرج يا عدو الله منه

و لأجل ما لقيه في غزوة تبوك من الجهد قال لأصحابه : ألا أسركم قالوا : بلى يا رسول الله قال : إن الله تعالى أعطاني الليلة الكنزين فارس و الروم و أمدني بالملوك ملوك حمير يجاهدون في سبيل الله و يأكلون فيء الله فكان ذلك [

إخباره خالد بن الوليد عما سيحصل له مع الأكيدر :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : أنه بعث خالد بن الوليد من تبوك في أربعمئة و عشرين فارسا إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل من كندة فقال خالد : يا رسول الله كيف لي به وسط بلاد كلب و إنما أنا في عدد يسير ؟ فقال : ستجده يصيد البقر فتأخذه

فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة قمراء صائفة و هو على سطح له من شدة الحر مع امرأته

فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن

فقال أكيدر : و الله ما رأيت بقرا جئتنا ليلا غير هذه الليلة لقد كنت أضمر لها الخيل إذا أردتها شهرا و أكثر ثم نزل فركب بالرجال و الآلة فلما فصلوا من الحصن و خيل خالد تنظر إليهم لا يسهل منها فرس و لا يتحرك فساعة فصل أخذته الخيل فاستؤسر أكيدر]

إخباره علي بن أبي طالب عن موقف لم يحصل بعد :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : أنه لما قاضى سهيل بن عمرو بالحديبية حين صدته قريش عن العمرة و كتبت بينه و بينه القضية

قال لعلي كرم الله تعالى وجهه : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال سهيل : لو أعلم أنك رسول الله ما صدتك و لكن أقدمك لشرفك أكتب محمد بن عبد الله فقال يا علي : أمح رسول الله فقال علي : لا أستطيع أن أمحو اسمك من النبوة فمد رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم يده إلى الموضع فمحاها فقال لعلي : ستسام مثلها فتجيب فقبل له مثلها يوم الحكمين حين ذكر في كتاب التحكيم هذا ما تحاكم عليه علي أمير المؤمنين فقال له عمرو : و لو أنك أمير المؤمنين ما نازعناك فمحا أمير المؤمنين و لما قال سهيل ذلك قال عمر : يا رسول الله دعني أنزع ثيبي سهيل لنلثغ لسانه فلا يقوم علينا خطيبا أبدا

و كان سهيل أعلم الشفة السفلى فكان خطيبا بينا : فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : دعه يا عمر فعسى أن يقوم لك مقاما تحمده فكان من حسن قيامه بمكة حين هاج أهلها بموت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و استخفى عتاب بن أسيد ما حمد أثره]

إخباره عن رجل منافق سيأتي مجلسه :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : ما حكاه السدي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قال لأصحابه : يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان فأتاه الحطم بن هند البكري وحده و خلف خيله خارجة من المدينة فدعاه رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقال : إلام تدعو ؟ فأخبره فقال : انظرني فلي من أشاوره فخرج من عنده فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : لقد دخل بوجه كافر و خرج بعتب غادر فمر بسرح من سرح المدينة فاستاقه و انطلق مرتجزا يقول :

(لقد لفها الليل سواق حطم ... ليس براعي إبل و لا غنم)

(و لا بجزار على ظهر وضم ... باتوا نياما و ابن هند لم ينم)

(باتت يناسيها غلام كالزلم ... مدلج الساقين ممسوح القدم)

ثم أقبل عام قابل حاجا قد قلد الهدى فأراد رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم أن يبعث إليه فنزل عليه قوله تعالى : { لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام } فقال له ناس من أصحابه هذا صاحبنا خل بيننا و بينه فقال إنه قد قلد]

نوع آخر من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم

إخباره عن حديث سري بين اثنين من الكفار :

[روى عاصم بن عمرو عن قتادة قال : لما رجع المشركون إلى مكة من بدر قال عمير بن وهب الجمحي لصفوان بن أمية : قبح الله العيش بعد قتلى بدر و الله لولا دين علي لا أجد له قضاء و عيال لا أدع لهم شيئا لرحلت إلى

محمد حتى أقتله إن ملأت عيني منه قتلته فإنه بلغني أنه يطوف في الأسواق فقال له صفوان : دينك علي و عيالك أسوة عيالي فاعمد لشأنك فجهزه و حمله على بعير فشحذ عمير سيفه و سمه و سار إلى المدينة فدخلها متقلدا سيفه فبصر به عمر رضي الله تعالى عنه فوثب إليه و وضع حائل سيفه في عنقه و أدخله على رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و قال : هذا عدو الله عمير بن وهب فقال : تأخر عنه يا عمر ثم قال له : ما أقدمك ؟ قال : لفداء أسيري عندكم قال : فما بال السيف ؟ قال : قبحها الله و هل أغنت من شيء ؟ و إنما نسيت حين نزلت و هو في رقبتي فقال له : فما شرطت لصفوان بن أمية في الحجر ؟ ففزع عمير و قال : ماذا شرطت له ؟ قال : تحملت له بقتلي على أن يقضي دينك و يعول عيالك و الله تعالى حائل بيني و بين ذلك

فقال عمير : اشهد أنك لرسول الله و أنك صادق و أشهد أن لا إله إلا الله كنا نكذبك بالوحي من السماء و هذا الحديث كان سرا بيني و بين صفوان كما قلت لم يطلع عليه أحد غيري فقال عمر : و الله لخنزير كان أحب إلي منه حين طلع و هو الساعة أحب إلي من بعض ولدي فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : علموا أحاكم القرآن و أطلقوا له أسيره فقال عمير : إني كنت جاهدا في إطفاء نور الله و قد هدايني الله فله الحمد فاذن لي فألحق قريشا فأدعوههم إلى الله و الإسلام فاذن له فلحق بمكة و دعاهم فأسلم بشر كثير و حلف صفوان أن لا يكلمه أبدا [إخباره عن حديث النفس :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : ما حكاه شيبه بن عثمان بن أبي طلحة قال : ما كان أحد أبغض إلي من رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و كيف لا يكون كذلك و قد قتل منا ثمانية كل منهم يحمل اللواء فلما فتح الله تعالى مكة يئست مما كنت أتمناه من قتله و قلت في نفسي قد دخلت العرب في دينه فمتى أدرك ثأري منه ؟ فلما اجتمعت هوازن بجنين قصدتهم لأجد منه غرة فأقتله فلما انهزم الناس عنه و بقي مع من ثبت معه جئت من ورائه فرفعت السيف حتى كدت أحطه غشي فوادي و رفع لي شواظ من نار فلم أطق ذلك و علمت أنه ممنوع فالتفت إلي و قال : ادن يا شيب فقاتل و وضع يده في صدري فصار أحب الناس إلي و تقدمت فقاتلت بين يديه و لو عرض لي أبي لقتلته في نصرته فلما انقضى القتال دخلت عليه فقال لي : الذي أراد الله بك خير مما أردته لنفسك و حدثني بجميع ما زورته في نفسي فقلت ما اطلع على هذا أحد إلا الله فأسلمت]

النبي يخبر النضير عما حدثته نفسه :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه محمد بن إبراهيم بن شريحيل عن أبيه قال : كان النضير بن الحرث بن كلدة يصف شدة عداوته لرسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم لقتله لأخيه النضر بن الحرث قال : كنت شهدت بدرا فرأيت قلة المسلمين و كثرة قريش فلما نشب القتال رأيت المسلمين أضعاف قريش فانهمزمت قريش و رأيت يومئذ رجالا على خيل بلق بين السماء و الأرض معلمين يأسرون و يقتلون فهربت مذعورا ثم خرجت معه بعد الفتح إلى هوازن لأصيب منه غرة فلما انهزم المسلمون سعدت لرسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فإذا هو في وجه العدو واقف على بغلة شهباء حوله رجال بيض الوجوه فأقبلت عامدا إليه فصاحوا بي إليك إليك فرعب فوادي و أرعدت جوارحي فقلت هذا مثل يوم بدر إن الرجل لعلى حق و أنه معصوم فأدخل الله في قلبي الإسلام ثم التقيت برسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بعد رجوعه من الطائف فحين رأيته قال : النضير ؟

قلت : لبيك قال : هذا خير لك مما أردت يوم حنين ما حال الله بينك وبينه [

النبي يحدث عمه العباس عن شيء أسره :

[و من أعلامه صلى الله عليه و سلم : انه قال لعمه العباس و قد أسر يوم بدر إفد نفسك و ابني أخيك عقيلًا و

نوفلا و حليفك فإنك ذو مال فقال يا رسول الله : إني كنت مسلما و أخرجت مكرها

فقال : الله أعلم بإسلامك ! فأين المال الذي وضعته بمكة عند أم الفضل حين خرجت و ليس معكما أحد ؟ فقلت

إن أصبت في سفري فللفضل كذا و لعبد الله كذا و لقلثم كذا

فقال : و الذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحد غيري و غيرها و إني لأعلم أنك رسول الله ففدى نفسه و ابني أخيه و

حليفه فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله سيعوضك خيرا إن كان ما قلت من إسلامك حقا فهو ضه الله

تعالى ما لا جأ [

وصف النبي امرأة بأنها شهيدة قبل أن تقتل :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : ما روي عن النبي صلى الله تعالى عليه و سلم كان إذا أراد الذهاب

إلى أم فروة الأنصارية قال لأصحابه : انطلقوا بنا إلى الشهيدة فنزورها و أمر أن يؤذن لها و يقام و أن تؤم أهل

دارها في الفرائض فقتلها في أيام عمر رضي الله تعالى عنه غلام و جارية كانا لها فصلبها عمر رضي الله عنه فكانا

أول من صلب في الإسلام فقال عمر : صدق رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : كان يقول انطلقوا نزور

الشهيدة [

لام النبي الزبير ما فعله خفية :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : مارواه عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله

تعالى عليه و سلم و هو يحتجم فلما فرغ قال : يا عبد الله اذهب بهذا الدم فاهرقه حيث لا يراك أحد فلما برز عنه

عمد إلى الدم فحساه

فلما رجع قال : يا عبد الله ما صنعت ؟ قال : جعلته في أخفى مكان ظننت أنه خاف عن الناس

قال لعلك شربت الدم قال : نعم قال : ويل للناس منك و ويل لك من الناس [

إلى أمثال ذلك من نظائره التي يطول الكتاب بذكره حتى كان المنافقون لا يخوضون في شيء من أمره إلا أطلعه الله

عليه فكان يخبرهم به حتى كان بعضهم يقول لصاحبه اسكت و كف فو الله لو لم يكن عنده إلا الحجارة لأخبرته

حجارة البطحاء

الفرق بين إخبار النبي عليه السلام و إخبار المنجم :

فإن قيل : فليس في ذكر ما كان و يكون إعجاز نبوة يقهر و لا آية رسالة تظهر لأن المنجمين يخبرون بذلك و لا

يكون من إعجاز الأنبياء و آيات الرسل

فعنه ثلاثة أجوبة : أحدها أن المنجم يعمل على حساب و يرجع على استدلال و لا يبتكر قولاً إلا بعدهما و إخبار

الرسل عن بديهة تخلو من سبب و تعرى عن استدلال

و الثاني : أن من خلا من علم النجوم لم يصح الإخبار عنها و لم يتعاط محمد صلى الله عليه و سلم على النجوم و لا

خالط أهلها فيكون مخبرا عنها فبطل أن يخبر بها إلا عن علام الغيوب المطع على ضمائر القلوب

و الثالث : أن المنجم يصيب في الأقل و يخطئ في الأكثر و يستحسن منه الصواب و لا يستقبح منه الخطأ و إخبار

الرسل كلها صدق لا يتخلله كذب و صواب لا يعنونه زلل

الباب الحادي عشر — فيما أكرم صلى الله تعالى عليه و سلم من إجابة أدعيته

فضل الأنبياء على سواهم :

إن الله تعالى لما فضل الأنبياء على جميع خلقه مما فوض إليهم من القيام بحقه تميزوا بطلب المصلحة فخصوا بإجابة الأدعية ليكون عوناً على ما كلفهم و آية على من أنكرهم فدخل بهذا الامتياز في أقسم الإعجاز دعا النبي على عتبة فافترسه أسد :

فمن أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم في الإجابة : [أن النبي صلى الله تعالى عليه و سلم لما تلا : { والنجم إذا هوى } قال عتبة بن أبي لهب : كفرت بالذي دنا فتدلى

فقال النبي صلى الله تعالى عليه و سلم : اللهم سلط كلباً من كلابك يعني الأسد فخرج عتبة مع أصحابه في غير إلى الشام حتى إذا كانوا في طريقهم زار الأسد فجعلت فرائص عتبة ترعد فقال أصحابه من أي شيء ترعد ؟ فوالله ما نحن و أنت إلا سواء

فقال : إن محمداً دعا علي و ما ترد له دعوة و لا أصدق لهجة فوضعوا العشاء فلم يدخل يده فيه و حاط القوم أنفسهم بمتاعهم و جعلوه وسطهم و ناموا فجاء الأسد يستشهري رؤوسهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه فهشمه هشمة كانت إياها

فقال و هو بآخر رمق : ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس لهجة دعا النبي على سبعة من أشد خصومه فهلكوا] : [و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : أن المستهزين به من قريش و هم سبعة : [الوليد بن المغيرة] و [العاص بن وائل السهمي] و [الأسود بن عبد يغوث الزهري] و [فكيهة بن عامر الفهري] و [الحرث بن الطلائع] و [الأسود بن الحرث] و [ابن عيطلة] كانوا يكثرون منه الاستهزاء و يواصلون عليه الإيذاء و كان لا يقرأ إلا مستسراً و لا يدعو إلا مستخفياً

فنزل قوله تعالى : { ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً } أي لا تجهر بها فيؤذوك و لا تخافت بها عن أصحابك فلا يسمعونك و ابتغ بين الجهر و الإسرار سبيلاً

فأذن لأصحابه حين اشتد بهم الأذى في الهجرة إلى أرض الحبشة لأن ملكها كان منصفاً و رغب إلى الله تعالى أن يكفيه أمرهم فنزل عليه قوله تعالى : { فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزين } و في قوله : { فاصدع بما تؤمر } تأويلان : أحدهما امض لما تؤمر به من إبطال الشرك و الثاني : أظهر ما تؤمر به من الحق و في قوله : { و أعرض عن المشركين } تأويلان : أحدهما : استهزى بهم و الثاني : لا تهتم باستهزائهم : { إنا كفيناك المستهزين } يعني بما عجله من إهلاكهم

فأما الوليد بن المغيرة فإنه ارتدى فعلق بردائه شوك فذهب يجلس عيه فقطع أكحله فنزف فمات لوقته و أما العاص بن وائل فوطيء على شوكة فتساقط لحمه من عظامه فمات من يومه

و أما الأسود بن عبد يغوث فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم دعا عليه بالعمى و ثكل ولده فأتى بغصن فيه شوك فأصاب عينه فسالت حدقتاه على وجهه و قتل ولده زمعة يوم بدر فأعمى الله بصره و أكله ولده و أما فكيهة بن عامر فخرج يريد الطائف ففقد و لم يوجد

و أما الحرث بن الطلائع فإنه خرج لبعض حوائجه فضربه السموم في الطريق فأسود منه و مات و أما الأسود بن الحرث فأكل حوتا مملوحاً فأصابه عطش فلم يتمالك من شرب الماء حتى انشق بطنه و مات أما ابن عيطلة فاستسقى فمات]

دعا على نفر من قريش فقتلوا في بدر :

و مثله ما رواه ابن مسعود : [قال كنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم نصلي في ظل الكعبة و ناس من قريش و أبو جهل قد نحروا جزورا في ناحية مكة فبعثوا فجاءوا بسلاها و طرحوه بين كنفيه و هو ساجد فجاءت فاطمة فطرحته عنه

فلما انصرف قال : اللهم عليك بقريش و بأبي جهل و عتبة و سشيبه و الوليد بن عتبة و أمية بن خلف و عقبة بن أبي معيط قال عبد الله بن مسعود فلقد رأيتهم قتلى في قليب بدر]

دعا على قوم آذوا المسلمين فاستجيب دعاؤه :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : أن خباب بن الأرت أتاه حين اشتد الأذى من قريش فقال يا رسول الله : ادع لنا ربك أن يستنصر لنا على مضر

فقال إنكم تعجلون لقد كان الرجل ممن قبلكم يمشط بأمشاط الحديد حتى يخلص إلى ما دون عظمه من لحم أو عصب و يشق بالمشار فلا يرده ذلك عن دينه و إنكم تعجلون و الله ليمضي هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله و الذئب على غنمه ثم دعا عليهم فقال : اللهم اشد و طأتك على مضر و اجعلها عليهم سنين كسني يوسف

فقطع الله عنهم المطر حتى مات الشجر و ذهب الثمر و أجذبت الأرض و ماتت المواشي و اشتروا القدر و أكلوا العلهز فلما انتهت بهم الموعظة استعطفوه فعطف و رغب إلى الله تعالى فمطروا]
استمطر يوم العسرة فأجبت دعوته :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه ابن عباس قال : قيل لعمر : حدثنا عن شأن جيش العسرة فقال عمر رضي الله تعالى عنه : خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش خشينا أن تنقطع رقابنا فكان الرجل يذهب ليلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع و حتى كان الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه ثم يجعل ما بقي على صدره فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع الله لنا قال : أتعب ذلك ؟ قال نعم

فرفع رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم يده فلم يرجعها حتى مالت السحاب فأظلت و أمطرت حتى رروا و ملأوا ما معهم من الأوعية فذهبنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكر]

أعرابي يشكو الجفاف فيدعو له النبي فيجاب حالا :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : و من أعلامه ما رواه مسلم الملاي عن أنس بن مالك قال أتى أعرابي إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقال : يا رسول الله لقد أتيناك و ما لنا بعير ينط و لا صبي يصطح ثم أنشد :

(أتيناك و العذراء يلمي لبنا ... و قد شغلت أم الصبي عن الطفل)

(و ألقى بكفيه الصبي استكانة ... من الجوع ضعفا ما يمر و لا يحلي)

(و لا شيء مما يأكل الناس عندنا ... سوى الحنظل العامي و العلهز الفسل)

(و ليس لنا إلا إليك فرارنا ... و أين فرار الناس إلا إلى الرسل)

فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم يجر رداءه حتى صعد المنبر فحمد الله تعالى و أنفى عليه ثم قال : اللهم اسقنا

غيثا سحا طبقا غير رايت تنبت به ازرع و تملأ به الضرع و تحيي به الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون
فما استتم الدعاء حتى ألفت السماء بأروقها فجاء أهل البطانة يضجون يا رسول الله الغرق فقال : حوالينا و لا
علينا فانجاب السحاب عن المدينة كالإكليل فضحك رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم حتى بدت نواجذه و
قال : لله در أي طالب لو كان حيا لقرت عيناه من الذي ينشدنا شعره ؟ فقال علي بن أبي طالب كرم الله و وجهه يا
رسول الله كأنك أردت قوله :

(و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل)

(يعوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة و فواضل)

(كذبتم و بيت الله نبري محمدا ... و لما نقاتل دونه و نناضل)

(و نسلمه حتى نصرع حوله ... و نذهل عن أبنائنا و الحلائل)

و قام رجل من كنانة و أنشد :

(لك الحمد و الحمد ممن شكر ... سقينا بوجه النبي المطر)

(دعا الله خالقه دعوة ... و أشخص معها إليه البصر)

(فلم يك إلّا لقاء الردى ... و أسرع حتى رأينا الدرر)

(و فاق العز إلى جم البعاق ... أغاث الله به عليا مضر)

(و كان كما قاله عمه ... أبو طالب أبيض ذو غرر)

(به الله يسقي صوت الغمام ... و هذا العيان لذاك الخبر)

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم إن يك شاعر يحسن فقد أحسنت [

العباس عم النبي يستسقي فيجابه دعاؤه :

و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : ما أظهره الله تعالى من كرامته في عمه العباس و حين استسقى به عمر

رضي الله عنه متوسلا إليه بعمه فخرج يستسقي به و قد أجذب الناس فقال : اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك و

بقية آباءه و كبير رجاله فاحفظ اللهم نبيك في عمه فقد دلونا به إليك مستشفعين إليك مستغفرين

فقال العباس و عيناه تنضحان : اللهم أنت الراعي لا تهمل الضالة فقد ضرع الصغير و رق الكبير و ارتفعت

الشكوى و أنت تعلم السر و أخفى اللهم فأغثهم بغياثك من قبل أن يقنطروا ليهلكوا فإنه لا ييأس من روحك إلا

القوم الكافرون

فنشأت السحاب و هطلت السماء فطفق الناس بالعباس يمسخون أركانه و يقولون هنيئا لك ساقي الحرمين فقال

حسان بن ثابت :

(سأل الإمام و قد تتابع جدبنا ... فسقى الغمام بغرة العباس)

(عم النبي و صنو والده الذي ... ورث النبي بذاك دون الناس)

(أحيا الإله به البلاد فأصبحت ... مخضرة الأجانب بعد الياس)

فقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب يفتخر بذلك :

(بعمي سقى الله الحجاز و أهله ... عشية يستسقي بسييته عمر)

(توجه بالعباس في الجذب راغبا ... فما كر حتى جاد بالديمة المطر)

النبي عليه السلام يدعو للإمام علي :

[و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : ما روي أن أسماء بنت عميس قالت لفاطمة إن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما كان عند رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و قد أوحى إليه فجعله بثوبه فلم يزل كذلك حتى أدبرت الشمس أو كادت تغيب ثم إنه سري عن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقال أصليت يا علي ؟ قال : لا فقال : اللهم رد علي علي الشمس فرجعت الشمس حتى بلغت نصف المسجد]

دعاء النبي صلى الله تعالى عليه و سلم لعلي و ابن عباس :
و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم إلى اليمن فقلت : يا رسول الله تبعني و أنا حدث السن لا علم لي بالقضاء قال : انطلق فإن الله سيهدي قلبك و يثبت لسانك قال علي رضي الله تعالى عنه فما شككت في قضاء بين اثنين و لذلك قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : أقضاكم علي ومثله قوله لابن عباس وهو يومئذ غلام : اللهم فقهه في الدين و علمه التأويل فخرج أفقه الناس في الدين و أعلمهم بالتأويل حتى سمي البحر لسعة علمه]
دعاء النبي بالبركة لتمر أبي هريرة :

و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما رواه أبو العالية عن أبي هريرة : قال : أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بتميرات فقلت : ادع الله لي بالبركة فيهن فصفهن على يدي ثم دعا بالبركة فيهن ثم قال اجعلن في المزود فإذا أردت شيئاً فأدخل يدك فيه و لا تشره قال أبو هريرة : فلقد حملت من ذلك التمر كذا و كذا وسقا في سبيل الله و كنا نأكل منه و نطعم و كان لا يفارق حقوي فلما كان يوم قتل عثمان انقطع فذهب]
دعاؤه لصاحب فرس عجفاء فقويت و أنتجت :

و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : [مارواه جعيل الأشجعي قال غزوت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في بعض غزواته فقال : سر يا صاحب الفرس فقلت يا رسول الله هي عجفاء ضعيفة فرفع مخفقة معه فصر بها بها و قال اللهم بارك له فيها قال : فلقد رأيته ما أمسك رأسها أن تقدم الناس و لقد بعث من بطنها باثني عشر ألفاً]

دعاؤه للمدينة فبارك الله فيها :

و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما روت عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم المدينة و هي أوبأ أرض فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة و صححها لنا و بارك لنا في صاعها و مدحا و اقل حماها إلى الجحفة فصارت كذلك]

دعاؤه على الكفار في بدر :

و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : [أنه أخذ يوم بدر كفا من حصى و تراب و رمى به في وجوه القوم و قال : شأهت الوجوه فتفرق الحصى في المشركين و لم يصل ذلك الحصى و التراب أحداً إلا قتل أو أسر و فيه نزل قول الله تعالى :

{ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى } [

دعاؤه للطفيل بن عمر و لقومه واستجابة الدعاء :

و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : [أن الطفيل بن عمرو الدوسي قدم مكة و كان شاعراً لبياً فقالت قريش : احذر محمداً فإن قوله كالسحر يفرق بين المرء و بين زوجته

فأتاه في بيته و قال : يا محمد اعرض أمرك فعرض عليه الإسلام و تلا عليه القرآن فأسلم و قال : يا رسول الله إني

امرؤ مطاع في قومي و إني راجع إليهم و داعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لي آية تكون عوناً عليهم فقال : اللهم اجعل له آية فخرجت حتى إذا كنت بشية وقع نور بين عيني مثل المصباح فقلت : اللهم في غير وجهي و أخشى أن يظنوا بي أنها مثلة فتحول فوق في رأس سوطي فجعل الحاضرون يرون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق و أنا أهبط من الشية ثم دعوت رؤساء قومي إلى الإسلام فأبطأوا
فجئت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقلت يا رسول الله إهم قد غلبوني على دوس فادع الله عليهم فقال اللهم إهد دوسا ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله و ارفق بهم فرجعت إليهم فلم أزل بأرض دوس أدعوهم حتى أسلموا]

دعا النبي لابن أخطب أن يجعله الله فجعله :
و من أعلامه صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما رواه أبو نعيم الأزد عن عمرو بن أخطب قال : استسقى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ماء فأتيته بإناء فيه ماء و فيه شعرة فرفعتها ثم ناولته فقال : اللهم جملة قال : فرأيت بعد ثلاث و تسعين ما في رأسه و لحيته شعرة بيضاء
و نهي رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم أن ينقي الرجل شعره في الصلاة فرأى رجلا ينقي شعره في الصلاة فقال قبح الله شعرك فصلع مكانه]
الفرق بين دعاء الأنبياء و سواهم :

فإن قيل : فإجابة الأدعية لا تكون معجزة للنبوّة لأنه قد تجاب دعوة غير الأنبياء
قيل : أدعية الأنبياء مجابة على العموم في جميعها و أدعية غيرهم إن أجبت فعلى الخصوص في بعضها : لأن الأنبياء منطلقون بالحق فإذا نطقوا بالدهاء صادف ما أمروا به فأجيبوا إليه و غيرهم قد ينطق بالحق و بغيره فإن أجبت أدعيتهم فهو تفضل يقف على مشيئة الله تعالى

الباب الثاني عشر : في إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم بما سيحدث بعده

إنذار النبي صلى الله تعالى عليه و سلم لعلي بأنه سيؤمر و يقتل :
روى فضالة بن أبي فضالة الأنصاري قال : خرجت مع أبي إلى ينيع عائدا لعلي بن أبي طالب عليه السلام و كان بها مريضا فقال له : يا أبا الحسن ما يقيمك بهذا البلد لا آمن أن يصيبك أجلك فلا يكن أحد يليك إلا أعراب جهينة فلو احتملت إلى المدينة فإن أصابك أجلك و ليك أصحابك و صلوا عليك
فقال : يا أبا فضالة أخبرني حبيبي و ابن عمي رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم أي لا أموت حتى أوامر و لا أموت حتى أقتل الفئة الباغية و لا أموت حتى تحضب هذه من هذه — و ضرب بيده على لحيته و هامته — قضاء مقضيا و عهدا معهودا و قد خاب من افترى

إنذار النبي بولاية أبي بكر و عمر رضي الله عنهما :
و من إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه أبو سلم [عن أبي هريرة قال : دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بمارية القبطية في بيت حفصة بنت عمر فوجدتها معه تضاحكه فقال : يا رسول الله في بيتي من دون بيوت نسائك قال : فإنما علي حرام أن أمسها ثم قال لها يا حفصة ألا أبشرك ؟ قالت بلى بأبي أنت و أمي قال : يلي هذا الأمر لمن بعدي أبو بكر اكتمي هذا علي فخرجت حتى دخلت على عائشة فقالت : لها ألا أبشرك يا ابنة أبي بكر قالت : بماذا فذكرت ذلك لها و قالت قد استكتمني فاكتميه فأنزل الله تعالى : { يا أيها النبي لم تحرم ما أحل

الله لك تبغى مرضاة أزواجك { الآيات]

إنذار النبي بأن أولى الناس بالنبي المتقون من كانوا :

و من إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه معاذ بن جبل قال : [بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم إلى اليمن فخرج معي يوصيني فلما فرغ قال : يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد هذا و لعلك تمر بمسجدي و منبري فبكى معاذ ثم التفت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فأقبل بوجهه نحو المدينة و قال : إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنفسهم أولى الناس بي و ليس كذلك إن أولى الناس بي المتقون من كانوا أو حيث كانوا اللهم إني لا أحل لهم فساد ما أصلحت]

إنذار النبي صلى الله تعالى عليه و سلم عثمان بمقتله :

و من إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه عبد الله بن عباس قال : [كنت قاعدا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم إذا أقبل عثمان فلما دنا منه قال : يا عثمان تقتل و أنت تقرأ سورة البقرة تقع قطرة من دمك على : { فسيكفيهم الله { يغبطك أهل المشرق و المغرب و تبعث يوم القيامة أميرا على كل مخذول]

إنذار النبي بشهادة طلحة بن عبيد الله :

و من إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه جابر بن عبد الله قال : [قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله]

إنذار النبي فاطمة بأنها أول من تلحق به :

و من إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما روي أنه قال لفاطمة رضي الله تعالى عنها إنك أول أهل بيتي لحاقا بي و نعم السلف أنا لك فكانت أول من مات بعده من أهل بيته صلى الله تعالى عليه و سلم]

إنذار النبي صلى الله تعالى عليه و سلم بما سيحدث لعائشة أم المؤمنين :

و من إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه عبد الله بن عباس قال : [قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم لنسائه : ليت شعري أيتكن صاحبة الحمل الأديب تخرج فتنبحها كلاب الحوآب يقتل عن يمينها و يسارها قتلى كثير و تنجو بعدما كادت تقتل]

فقيل إن عائشة رضي الله تعالى عنها لما وصلت إلى مياه بني عامر ليلا نبحتها الكلاب فقالت : ما هذا ؟ قالوا :

الحوآب قالت : ما أظني إلا راجعة إن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قال لنا ذات يوم كيف يا حداكن إذا نبح عليها كلاب الحوآب

إنذار النبي صلى الله تعالى عليه و سلم بأن سبطه الحسن سيصلح بين المسلمين :

و من إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه ثابت عن الحسن البصري قال : [كان الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما يجيء و رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ساجد فيجلس على عنقه فإذا أراد أن يرفع رأسه أخذه فوضعه في حجره ثم قال : إن ابني هذا سيد و إن الله تعالى سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين]

إنذار النبي صلى الله تعالى عليه و سلم بمقتل الحسين بن علي :

و من إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : [دخل الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما على رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و هو يوحى إليه فبرك على ظهره فقال جبريل : يا محمد إن أمتك ستقتن بعدك و يقتل ابنك هذا من بعدك و مد يده فأتاه بترية بيضاء و قال : في هذه الأرض يقتل ابنك اسمها الطف فلما ذهب جبريل خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم إلى أصحابه و التربة

في يده و فيهم أبو بكر و عمر و علي و حذيفة و عمار و أبو ذر و هو يبكي فقالوا : ما يبكيك يا رسول الله ؟ فقال : أخبرني جبريل أن ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف و جاءني بهذه التربة فأخبرني أن فيها مضجعه [إنذاره بأنه سيخرج من الطائف كذاب و مبير :

و من إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم : أن الحجاج لما قتل عبد الله بن الزبير دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال لها : إن أمير المؤمنين أوصاني بك فهل لك من حاجة ؟ قالت : ما لي من حاجة و لكن أنتظر حتى أحدثك شيئا سمعته من رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم يقول : [يخرج من ثقيف كذاب و مبير أما الكذاب فقد رأيناه تعني المختار و أما المبير فأنت] فقال الحجاج : أنا مبير المنافقين إنذاره بولاية معاوية :

و من إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه عبد الملك بن عمير قال : قال معاوية رضي الله تعالى عنه و الله ما حملني على الخلافة إلا قول النبي صلى الله تعالى عليه و سلم لي : [يا معاوية إن وليت فأحسن] إنذار النبي بولاية بني العباس :

و من إنذاره صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه عبد الله بن عباس [عن أبيه : أن النبي صلى الله تعالى عليه و سلم نظر إليه مقبلا فقال : هذا عمي أبو الخلفاء الأربعين أجود قريشا كفا و إن من ولده السفاح و المنصور و المهدي يا عم بي فتح الله هذا الأمر و برجل من ولدك يختتم إلى كثير من نظائر هذا]

الباب الثالث عشر : في معجزة صلى الله تعالى عليه و سلم بما ظهر من

البهائم

المعجزات تظهر حيث أراد الله تعالى :

إذا كان الإعجاز خارقا للعادة لم يمتنع فيه ظهور ما خالفها و إذا أراد كاتب البهائم مسلوقة الأفهام مفقودة الكلام فليس بمستكر إذا أراد الله تعالى بها إظهار معجز أن يعطيها من المعرفة أن تنطق بما أهمها و تخبر بما أعلمها ثم سلبها ذلك فتعود إلى طبعها كما أحل في الشجرة كلاما سمعه موسى و في العصا أن صارت حية تسعى لتكون من باهر الآيات و قاهر المعجزات

ذئب يشرب ببعثه النبي صلى الله تعالى عليه و سلم :

فمن آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : أن رجلا كان في غنمه يرعاها فأغلفها ساعة من نهاره فخاتله ذئب فأخذ منها شاة فأقبل يلهث فطرح الذئب الشاة ثم كلمه بكلام فصيح فقال : ويحك لم تمنعني رزقا رزقنيه الله تعالى فجعل أهبان يصفق بيديه و يقول : تالله ما رأيت كاليوم ذئب يتكلم

فقال الذئب : أنت أعجب و في شأنكم عبرة هذا محمد يدعو إلى الحق ببطن مكة و أنتم لاهون عنه فهدي الرجل لرشده و أقبل حتى أسلم و حدث القوم بقصته و بقي لعقبه شرف يفخرون به على العرب و يقول مفتخرهم أنا ابن مكلم الذئب

ذئب آخر يبشر بالنبي :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه أبو سعيد الخدري قال : بينما راع يرعى في الحرة غنما إذ جاء ذئب إلى شاة من غنمه فانتهزها فحال الراعي بين الذئب و الشاة فأقعى الذئب على عريمة ذنبه و قال للراعي : ألا تنقي الله و تحول بيني و بين رزق ساقه الله إلي ؟ فقال الراعي : العجب من ذئب يقعي على ذنبه يكلمني بكلام

الإنس فقال له الذئب : ألا أحدثك بأعجب من هذا هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بين الحرتين يحدث الناس بأنباء ما قد سبق فأخذ الراعي الشاة فأتى بها المدينة — و أتى النبي صلى الله تعالى عليه و سلم فخرج إلى الناس فقال للراعي : [قم فحدثهم] فقام يحدثهم فقال : [صدق الراعي] و كان اسمه عمير الطائي فسمي مكلم الذئب

شهادة الضب بنوة محمد صلى الله عليه و سلم :

و من آيات صلى الله تعالى عليه و سلم : ما روى ابن عمر عن أبيه عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم كان في محفل من أصحابه إذ جاء إعرابي قد صاد ضبا و جعله في كفه لينهب به فيأتي رأي الجماعة قال : و ما هذا ؟ قالوا : النبي صلى الله تعالى عليه و سلم فجاء يشق الناس و قال : و اللات و العزى ما أحد أبغض إلي منك و لولا أن تسميني قومي عجولا لعجلت بقتلك فقال عمر رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله ادعني أقوم فاقتله فقال : يا عمر أما علمت الحلیم كاد أن يكون نبيا ثم قال للأعرابي : ما حملك على ما قلت ؟ فقال : و اللات و العزى لا آمنت أو يؤمن بك هذا الضب و أخرج الضب من كفه فطرحه بين يدي النبي صلى الله تعالى عليه و سلم فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : [يا ضب فأجابه الضب بلسان عربي مبين يسمعه القوم جميعا : لبيك و سعديك يا زين من يوافي القيامة قال : من تعبد ؟ قال الذي في السماء عرشه و في الأرض سلطانه و في الجنة رحمته و في النار عقابه قال فمن أنا يا ضب ؟ قال : رسول رب العالمين و خاتم النبيين و قد أفلح من صدقك و قد خاب من كذبك

فقال الأعرابي : لا أتبع أثرا بعد عين و الله لقد جنتك و ما علي ظهر الأرض أحد أبغض إلى منك و إنك اليوم أحب إلي من نفسي و من والدي و إني لأحبك بداخلي و خارجي و سري و علاني أشهد أن لا إله إلا الله و أنك محمد رسول الله

فقال صلى الله تعالى عليه و سلم : الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله فرجع الأعرابي إلى قومه فأخبرهم بالقصة و كان من بني سليم فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ألف إنسان منهم فأمرهم أن يكونوا تحت راية خالد بن الوليد رحمة الله عليه و لم يؤمن من العرب ألف في وقت واحد غيرهم عنزة تسجد للنبي عليه السلام :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما رواه أنس بن مالك قال : دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم حائطا للأتصار و معه أبو بكر رضي الله تعالى عنه و في الحائط عنز فسجدت له فقال أبو بكر : يا رسول الله كنا نحن أحق بالسجود لك من هذه العنزة

فقال : إنه لا ينبغي أن يسجد أحد لأحد و لو كان ينبغي أن يسجد أحد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها] سجد البعير للنبي عليه السلام :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم [ما رواه عبد الله بن أبي أوفى قال : بينما نحن قعود عند رسول الله بن إذا أتاه آت فقال : يا رسول الله ناضح بني فلان قد دبر عليهم قال فنهض و نمضنا معه فقلنا : يا رسول الله لا تقربه فإننا نخافه عليك فدنا من البعير فلما رآه البعير سجد له فوضع يده على رأس البعير و قال : هات السكان فوضعه في رأسه و أوصى به خيرا]

صوت يبشر بالنبي صلى الله عليه و سلم :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه جبير بن مطعم قال : كنا جلوسا عند صنم لنا قبل أن يبعث

رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بشهر فحرنا جزورا فسمعنا صائحا يصيح : اسمعوا إلى العجب ذهب استراق السمع لني بمكة اسمه [أحمد] مهاجر إلى يثرب فكان هذا من الآيات المندرة و الآثار المبشرة
جمل يستجير بالنبي عليه السلام :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [أنه بينما هو جالس في أصحابه إذ هو بجمل قد أقبل له رغاء فوقف فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : أتدرون ما يقول هذا ؟ إنه ليقول : إني لآل فلان [لحي من الخزرج] استعملوني و كدوني حتى كبرت و ضعفت فلما لم يجدوا في حيلة يريدون ذبحي فأنا أستغيث بك منهم فأوقفه رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و بعث إليهم فاستوهبه منهم فوهبوه له و خلاه في الحلي]
عجل ينذر أهل دريح :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : ما رواه برد عن مكحول قال : بينما أهل دريح [حي من عرب اليمن في مجلسهم] إذ أقبل عجل و سلم فسألهم و قال : أهل دريح أمر نحيح بطن مكة يصيح بلسان فصيح بشهادة أن لا إله إلا الله فأجيبوه و قال و فيه نزل قول الله تعالى : { ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا } فإن قيل فيجوز أن يكون ما سمع من كلام البهائم كالصدى يحكي كلام المتكلم فيظنه السامع كلام الصدى و هو كلام المتكلم و يكون ذلك بقوة يحدثها الله تعالى في المتهية لذلك يخفي عن الأسماء و الأبصار فعنه جوابان : أحدهما : أن الصدى يحكي كلاما مسموعا إذا قابله قبل صوته فحكاه و ليس كلام البهيمة مقابلا لكلام يحكيه فامتنع التشاكل

و الثاني : أن القوة للمهياة لذلك ليست من جنس قوى البشر فلا يكون في النفاضل إعجاز و إنما هي خارجة عن جنس قواهم فخرج عن قدرتهم و ما خرج عن قدرة البشر كان معجزا لو صح هذا الاعتراض لبطل به الاعتراض

الباب الرابع عشر : في ظهور معجزه صلى الله تعالى عليه و سلم من الشجر و

الجماد

و لمن كانت المعارف من الجمادات أبعد و الكلام منها أغرب فليس بسمتعد و لا مستغرب أن يحدث الله تعالى فيها من الآيات الخارجة عن العادة ما يحجج الله تعالى به من استبصر و يمد به من استنصر
الرسول ينادي الشجرة فتقبل نحوه :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما حكاه أهل النقل عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أنه خطب على الناس خطبته المعروفة بالناصعة فقال فيها : الحمد لله الذي هو العالم بمضمرات القلوب و محجوبات الغيوب أيها الناس اتقوا الله و لا تكونوا لنعمه عليكم أضدادا و لا لفضله عندكم حسادا و لا تطيعوا أساس الفسوق و أحلاس العقوق فإن الله تعالى محنتر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه للمستضعفين في أعينهم ألا ترون أنه اختبر الأولين من لدن آدم إلى الآخرين من هذا العالم بأنواع الشدائد و تعبدهم بأنواع الجهاد ليجعل ذلك أبوابا فتحا إلى فضله و أسبابا ذللا لعفوه فاحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثالات بسوء الأفعال و ذميم الأعمال أن تكونوا أمثالهم فلقد كانوا على أحوال مضطربة و أيد مختلفة و جماعة متفرقة في بلاء أزل و أطباق جهل من بنات مؤودة و أصنام معبودة و أرحام مقطوعة و غارات مشنونة فانظروا إلى موقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولا كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها و أسالت لهم جداول نعيمها فهم حكام على العالمين و ملوك في أطراف الأرضين يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم و يمشون الأحكام على من كان يمشيها فيهم

و لقد كنت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و قد أتاه الملاء من قريش فقالوا : يا محمد إنك قد ادعيت عظيما لم يدعه أبائك و لا أحد من أهل بيتك و نحن نسألك أمرا إن أجبتنا إليه و أريتنا علمنا أنك نبي و رسول و إن لم تفعل علمنا أنك ساحر كذاب قال لهم : و ما تسألون قالوا : تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها و تقف بين يديك

فقال صلى الله تعالى عليه و سلم : إن الله على كل شيء قدير فإن فعل الله ذلك لكم أتؤمنون و تشهدون بالحق ؟ قالوا : نعم قال فإني سأريكم ما تطلبون و إني لأعلم أنكم لا تفتنون إلى خير و أن منكم من يطرح في القليب و من يجزب الأحزاب ثم قال : يا أيها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله و اليوم الآخر و تعلمين أي رسول الله فانقلعي : بعروقك حتى تقفي بين يدي ياذن الله تعالى

قال علي رضي الله عنه : فو الذي بعثه بالحق لا نقلعت بعروقها و جلعت و لها دوي شديد و قصف كقصيف أجحة الطير حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم مرفوفة و ألفت بعضها الأعلى عليه و بعض أعصائها على منكبي و كنت عن يمينه

فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا علوا و استكبرا فمرها فليأتك نصفها فأمر بذلك فأقبل نصفها كعجب إقبال و أشده دويا فكادت تلتف برسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقالوا : كفرا و عتوا

فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان فأمره فرجع فقلت : أنا لا إله إلا الله فأنا أول مؤمن بك يا رسول الله و أول من أقر بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقا لنبوتك و إجلالا لكلمتك فقال القوم كلهم : بل ساحر كذاب عجيب السحر خفيف فيه و هل يصدقك في أمرك هذا إلا مثل هذا يعنونني و هذا حكاة خطيبا على الأشهاد و قل أن يخلو جمع مثله ممن يعرف حق ذلك من باطله فكانوا بالموافقة مجمعين على صحته و لولاه لظهر الرد و إن ندر و هذا من أبلغ آية و أظهر إعجاز له [أعرابي يطلب من النبي صلى الله عليه و سلم أن يدعو الشجرة فيفعل :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما رواه عبد الله بن بريدة عن أبيه قال جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : فقال يا محمد هل من آية فيما تدعو إليه ؟ قال : نعم أنت تلك الشجرة فقل لها رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم يدعوك فمالت عن يمينها و يسارها و بين يديها فتقطعت عروقها ثم جاءت تحذ الأرض حتى وقفت بين يديه

فقال الأعرابي : مرها ليرجع إلى منبتها فأمرها فرجعت إلى منبتها فقال الأعرابي : انذن لي أسجد لك فقال : لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها قال : فائذن لي أن أقبل يديك و رجلك فائذن له]

النبي صلى الله عليه و سلم يطلب من وديتين أن تنضم فتفعلا : من آياته صلى الله عليه و سلم : [ما رواه يعلى بن شابة قال : كنت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في مسير فأراد أن يقضي حاجته فأمر وديتين فانضمت إحداهما إلى الأخرى ثم أمرهما بعد قضاء حاجته أن يرجعا إلى منبتها فرجعتا]

الشجر يسلم على النبي صلى الله عليه و سلم :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما رواه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : كنا مع رسول الله

صلى الله تعالى عليه و سلم في مكة فخرج في بعض نواحيها فما استقبله شجر و لا جبل إلا قال : السلام عليك يا رسول الله [

سدره تقسم ليمر النبي عليه السلام :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [أنه مر في غزوة الطائف في كثيف من طلع فمشى و هو وسن من النوم فاعترضته سدره فانفجرت السدره له بنصفين فمر بين نصفيهما و بقيت السدره منفرجة على ساقين إلى قريب من أعصارنا هذه و كانت معروفة بذلك في مكلفها يتبرك بها كل مار و يسمونها سدره النبي صلى الله تعالى عليه و سلم]

تحرك الجبل لصعود النبي عليه :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما رواه سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال صعد النبي صلى الله تعالى عليه و سلم حراء و معه أبو بكر و عمر و عثمان و علي و عبد الرحمن و الزبير و طلحة و سعيد ففتحرك الجبل فقال النبي صلى الله تعالى عليه و سلم اسكن حراء فليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد فسكن الجبل]

الحجر و الشجر يسلم على النبي :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما رواه جابر بن عبد الله قال : كان في رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم خصال لم يكن يمر في طريق فيبيته أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرفه و لم يكن يمر بحجر و لا شجر إلا سجد له]

تسييح الحصى :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما رواه ثابت عن أنس قال : كنا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فأخذ كفا من حصى فسيحن في يده حتى سمعنا التسييح ثم صبهن في يد أبي بكر فسيحن في يده حتى سمعنا التسييح ثم صبهن في أيدينا فما سبحن في أيدينا]

تسليم الحجر على النبي :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما رواه جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : إني لأعرف حجرا من مكة كان يسلم علي]

تحويل الخشبة إلى سيف :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [أن عكاشة بن محصن انقطع سيفه بيده يوم بدر فدفع إليه رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قطعة من خشب و قال قاتل بها الكفار يا عكاشة فحولت سيفاً في يده فكان يقاتل به حتى قتله طليحة في الردة]

حنين الجذع :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [أنه كان يخطب إلى جذع يستند إليه فلما اتخذ منبرا تحول عن الجذع إليه فحن إليه الجذع حتى ضمه إليه فسكن]

تسليح الحصيات :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [أن مكرزا العامري أتاه فقال : هل عندك من برهان نعرف به أنك رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فدعا بتسع حصيات فسيحن في يده فسمع نغماتها من جهودتها و هذا أبلغ من إحياء عيسى للموتى]

كلام الطعام :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [أنه لما حاصر الطائف سموا له جذعة فكلمه منها الذراع : لا تأكلني فيني مسمومة و هذا نظير إحياء الموتى]

الحجر و المدر يسلم على النبي :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [أن أول ما أوحى إليه لم يمر بحجر و لا مدر إلا سلم عليه بالنبوة و هذا نظير قول الله تعالى لداود : { يا جبال أوبي معه والطير }]
إضاءة أصابع النبي ليلا :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما رواه حمزة بن عمرو الأسلمي قال : نفرنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في ليلة ظلماء فأضاءت أصابعه]

تسييح الطعام :

و من آياته صلى الله تعالى عليه و سلم : [ما رواه إبراهيم الله علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : إنكم تعدون الآيات عذابا و إنا كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بركة لقد كنا نأكل مع رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و نحن نسمع تسييح الطعام]

رد على شبهات المغترضين على المعجزات :

فإن قيل : فقد يجوز أن يتخيل ذلك للناظر كما يتخيل لراكب السفينة سير النخل و الشجر فعنه جوابان :
أحدهما : أنه و إن تخيل ذلك لراكب السفينة فهو غير متخيل لغيره من قائم و قاعد و هذا متحقق عند كل مشاهد على اختلاف أحواله

و الثاني : أن راكب السفينة يعلم أنه تخيل له غير معلوم و هذا معلوم غير متخيل
و إن قيل : فقد يجوز أن يكون في خواص الجوهر ما يجذب النخل و الشجر كما في خاص حجر المغناطيس أن يجذب الحديد فعنه جوابان :

أحدهما : أنه قد علم خاصية حجر المغناطيس و ظهر و لم يعلم ذلك في غيره فلم يوجد و لو كان ذلك موجودا لكان الملوك عليه أقدر و لكان مذخورا في خزائهم كادخار كل مستغرب و مستظرف و لجاز ادعاء مثله في قلب الأعيان و إبطال الحقائق

و الثاني : أنه لو كان ذلك لخاصة الجوهر جاذبا كان بظهوره جاذبا و بملاقاته للنخل و الشجر فاعلا ولا يقل إليه عن غيره و عنه إلى غيره و كل هذا فيه معدوم و إن كان في حجر المغناطيس موجودا

الباب الخامس عشر — في بشائر الأنبياء عليهم السلام بنبوته صلى الله

تعالى عليه و سلم

الأنبياء معانون على تأسيس النبوة :

إن الله تعالى عوننا على أوامره و إغناء عن نواهيه فكان أنبياء الله تعالى معانين على تأسيس النبوة بما تقدمه من بشائرها و تبديه من أعلامها و شعائرها ليكون السابق مبشرا و نذيرا و اللاحق مصدقا و ظهيرا فتدوم بهم طاعة الخلق و ينتظم بهم استمرار الحق و قد قدمت بشائر من سلف من الأنبياء بنبوته محمد صلى الله تعالى عليه و سلم مما هو حجة على أمهم

ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم بما أطلعه الله تعالى على غيبه ليكون عوناً للرسول وحثاً على القبول
بشارة لهاجر عن بعثة النبي :

فمن ذلك بشائر موسى عليه السلام في التوراة : فأولها في الفصل التاسع من السفر الأول
لما هربت هاجر من سارة تراءى ملك و قال : يا هاجر أمة سارة ارجعي إلى سيدتك فاحضعي لها فإن الله سيكثر
زرعك و ذريتك حتى لا يحصون كثرة و ها أنت تحبلين و تلدين ابناً و تسمينه إسماعيل لأن الله تعالى قد سمع
خشوعك و هو يكون عين الناس و تكون يده فوق الجميع مبسوطة إليه بالخضوع و هذا لم يكن في ولد إسماعيل إلا
رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم لأنهم كانوا قبله مقهورين فصاروا به قاهرين
بشارة لإبراهيم عليه السلام :

و منها قوله في هذا السفر لإبراهيم حين دعاه في إسماعيل و باركت عليه و كثرته و عظمته جدا جدا و سيلد اثني
عشر عظيماً و أجعله لأمة عظيمة و ليس في ولد إسماعيل من جعله لأمة عظيمة غير محمد صلى الله تعالى عليه و
سلم

بشارة لموسى عليه السلام :

و منها في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس عن موسى عليه السلام : [إن الرب إلهكم قال : إني أقيم لهم
نبيا مثلك من بين إخوتهم أجعل كلامي على فمه فأبما رجل لم يسمع كلامي التي يؤديها عني ذلك الرجل باسمي فأنا
أنقم منه]

و معلوم أن أخا بني إسرائيل هم بنو إسماعيل و ليس منهم من ظهر كلام الله تعالى على فمه غير محمد صلى الله تعالى
عليه و سلم

بشارة أخرى من موسى عليه السلام :

و منها في الفصل العشرين من هذا السفر [إن الرب جاء من طور سيناء و أشرق من ساعير و استعلى من جبال
فاران و معه عن يمينه ربوات جيش القديسين فمنحهم إلى الشعوب و دعا لجميع قديسيه بالبركة]
فمجيء الله تعالى من طور سيناء و هو إنزاله التوراة على موسى و إشرافه من ساعير إنزاله الإنجيل على عيسى لأنه
كان سكن ساعير أرض الخليل في قرية ناصرة و استعلاؤه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد صلى الله تعالى
عليه و سلم و فاران هي جبال مكة في قول الجميع فإن ناكروا كان دفعاً لما في التوراة و لأنه لم يستعمل الدين
كاستعلائه منها فاندفع الإنكار بالبيان
بشائر الأنبياء :

فصل من البشائر به : كان بين موسى و عيسى من الأنبياء الذين أتوا الكتاب باتفاق أهل الكتابين عليهم ستة عشر
نبيا ظهرت كتبهم في بني إسرائيل فبشر كثير منهم نبوة محمد صلى الله تعالى عليه و سلم
التوراة تتحدث عن مكة :

فمنهم شعيا بن أموص قال في الفصل الثاني و العشرين قومي فأزهري مصباحك يعني مكة فقد دنا وقتك و كرامة
الله طالعة عليه فقد تجلج الأرض الظلام و غطى على الأمم الضباب و الرب يشرق عليك إشراقاً و يظهر كرامته
عليك فتسير الأمم إلى نورك و الملوك إلى ضوء طلوعك ارفعي بصرك إلى ما حولك و تأملي فإنهم يستجمعون
عندك و يحجونك و يأتيك ولدك من بلد بعيد و تسرين و تتهجين من أنه يميل إليك ذخائر البحر و يحج إليك
عساكر الأمم حتى تغمرك الإبل المؤبلة و تضيق أرضك عن القطرات التي تجمع إليك و يساق إليك كباش مدين و

يأتيك أهل سبأ يحدثون بنعم الله و يمجّلونه و تسير إليك أغنام قاذار يعني غنم العرب لأنه من ولد قاذار بن إسماعيل و يرتفع إلى مديحي ما يرضيني و أحدث حيثنذ ليبت محمدتي حمدا و هذه الصفات كلها موجودة بمكة فكان ما دعا إليها و هو الحق و من قام بها هو الحق

و في فصل آخر من كتابه : قال لي الرب فامض فأقم على المنطرة تخبرك بما ترى فرأى راكبين أحدهما راكب حمرا يعني عيسى و الآخر راكب جملا يعني محمدا فبينما هو كذلك إذ أقبل أحد الراكبين و هو يقول : هوت بابل و تكسرت آهتها المنجورة على الأرض فهذا الذي سمعت الرب إله إسرائيل قد أنبأتكم التوراة تتحدث عن الحجاز :

و في الفصل السادس عشر منه لنفرح أرض العطشى بمنتهج البراري و العلوات و لتسر و تزهو مثل الوعل فإنها ستعطى بأحمد محاسن لبنان و يكمل حسن الدساكر و الرياض و سترون جلال الله تعالى بها قال شعيا و سلطانه على كتفه يريد : علامة نبوته على كتفه و هذه صفة محمد صلى الله عليه و سلم و بادية الحجاز

و في الفصل التاسع عشر منه : هتف هاتف من البدو فقال خلو الطريق للرب و سهلوا سبيل القفر فستملى الأودية مياهها و تفيض فيضا و تنخفض الجبال و الروابي انخفاضا و تصير الأكام دكا دكا و الأرض الورعة مذلة ملسا و تظهر كرامات الرب و يراها كل أحد

و في الفصل العشرين منه و هو مذكور في ثلاث و خمسين و مائة من مزامير داود لتراتح البوادي و قراها و لتصير الأرض قاذار مؤوجا و يسبح سكان الكهوف و ليهتفوا من قلال الجبال بحمد الرب و ليرفعوا تسابيحهم فإن الرب يأتي كالجبار الملتضي المتكبر و هو يزجر و يقتل أعداءه و أرض قاذار هي أرض العرب لأنهم ولد قاذار و المروج ما صار حول مكة من النخل و الشجر و العيون

و في الفصل الحادي و العشرين منه أيضا إن الضعفاء و المساكين يستسقون ماء و لا ماء لهم فقد جفت ألستهم من الظمأ و أنا الرب أجيب يومئذ دعوتهم و لن أهملهم بل أفجر لهم في الجبال الأنهار و أجري بين القفار العيون و أحدث في البدو أجساما و أجري في الأرض العطشى ماء معينا و أنبت في البالق القفار الصنوبر و الآس و الزيتون و أغرس في القاع الصفصف البر ليروها جميعا ثم يتدبروا و يعلموا أن يد الله صنعت ذلك و قلدوس إسرائيل ابتدعه و هذه صفات بلاد العرب فيما أحدث الله تعالى لهم فيها ياسلامهم
بشائر نوال بن نوتال :

فصل من بشائر نوال بن نوتال من أنبياء بني إسرائيل : مثل الصبح المسلط على الجبال شعب عظيم عزيز لم يكن مثله قط و لا يكون بعده مثله إلى أبد الأبد أمامه نار تتأجج و خلفه هيب و تلهب الأرض بين يديه مثل فردوس عدن فإذا جاز فيها و عبرها تركها برية خاوية رؤيته كرؤية الجبل رجالته فر سراع مثل الفرسان أصواتهم كصوت هب النار الذي يحرق الهشيم رجفت الأرض أمامهم و تزعزعت السماء و أظلمت الشمس و غاب نور النجوم و الرب أسمع صوتا بين يدي أجناده لأن عسكره كثير جدا و عمل قوله عزيز لأن نور الرب عظيم مرهوب جدا و هذا نعت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم
من بشائر عويديا :

فصل من بشائر عويديا من أنبياء بني إسرائيل : و في كتابه : قد سمعنا خبرا من قبل الرب و أرسل رسولا إلى الشعوب ثم يتقدم إليه بالحرب أيها الساكن في بحر الكهف و محله في الموضع الأعلى لأن يوم الرب قريب من جميع الشعوب فهذا مرموز في نبوته

من بشائر ميخاء

من أنبياء بني إسرائيل في كتابه : فأما الآن فسيستسلم إلى الوقت الذي تلد فيه الوالدة و يقوم فيرعاهم يعني الرب و بكرامة اسم الله ربه و يقبلون بهم إلى من سيعظم سلطانه إلى أقطار الأرض و يكون على عهد الإسلام من بشائر حبقوق :

فصل من بشائر حبقوق من أنبياء بني إسرائيل : جاء الله من طور سيناء و استعلن القلوس من جبال فاران و انكسفت لبهاء محمد و انحسفت من شعاع الحمود و امتلأت الأرض من محامده لأن شعاع منظره مثل النور يحفظ بلده بعده و تسير المنايا أمامه و تصحب سباع الطير أجناده قام فمسح الأرض و قابل الأمم و بحث عنهم فصفصفت الجبال القديمة و اتضعت الروابي الدهرية و تزعزع سور أرض مدين و لقد جاز المساعي القديمة قطع الرأس من حب الأثيم و دمغت رؤوس سلاطينه بعضيه و معلوم أن محمدا و أحمد و محمودا صريح في اسمه و هما يتوجهان إلى من انطلق عليه اسم الحمد و هو بالسريانية موشحاً أي محمد و محمود و لهذا إذا أراد السرياني أن يحمد الله تعالى قال : شريحا لإلهنا

من بشائر حزقيال :

فصل من بشائر حزقيال من أنبياء بني إسرائيل : في كتابه [إن الذي يظهر من البداية فيكون فيه حنف اليهود كالكرمة أخرجت ثمارها و أغصانها عن مياه كثيرة و تفرعت منها أغصان مشرقة على أغصان الأكابر و السادات و بسقت فلم تلبث نار فأكلتها فكذلك غرس غرس في البدو و في الأرض المهملّة المعطلة العطشى و خرج من أغصانه الفاضلة نار فأكلت ثمار تلك حتى لم يبق منها عصا قوية و لا قضيب ينهض بأمر السلطان]

من بشائر يرقينيا :

فصل من بشائر يرقينيا من أنبياء بني إسرائيل : في كتابه أيها الناس ترجوا اليوم الذي أقوم فيه للشهادة فقد حان أن أظهر حكمي بحشر الأمم و جميع الملوك لأصب عليهم سخطي و تكبري هناك أجدد للأمم اللغة المختارة ليرفعوا اسم الرب جمعيا و ليعبدوه في ربة واحدة معا و ليأتوا بالذبايح من مغارثها تكون و معلوم أن اللغة العربية هي المختارة لأنها طبقت الأرض و انتقلت أكثر اللغات إليها حتى صار ما عداها نادرا من بشار زكريا :

فصل من بشائر زكريا بن يوحنا من أنبياء بني إسرائيل : في كتابه رجع الملك الذي ينطق على لساني و أيقظني كالرجل الذي يستيقظ من نومه و قال لي ما الذي رأيت فقلت منارة من ذهب و كفة على رأسها و أريت على الكفة سبعة سرج لكل سراج منها سبعة أفواه و فوق الكفة شجرتا زيتون إحداها عن يمين الكفة و الأخرى عن يسارها فقلت للملك الذي ينطق على لساني ما هذه يا سيدي فرد الملك علي و قال لي أما تعلم ما هذه ؟ فقلت ما أعلم فقال لي هذا قول الرب في زربايل يعني محمدا و هو يدعى باسمي و أنا أستجيب له للنصح و التطهير و أصرف عن الأرض أنبياء الزور و الأرواح النجسة لا بقوة و لا بعز و لكن بروحي بقول الرب القوي و يعني بشجرتي الزيتون الدين و الملك و زربايل هو محمد صلى الله تعالى عليه و سلم من بشائر دانيال :

فصل من بشائر دانيال من أنبياء بني إسرائيل : في كتابه : رأيت على سحاب السماء المسمى كهية إنسان جاء فانتهى إلى عتيق الإمام و قدموه بين يديه فحواله الملك و السلطان و الكرامة أن تعبد له جميع الشعوب و الأمم و اللغات سلطانه دائم إلى الأبد له يتعبد كل سلطان و يمضي ألفان و ثلثمائة ينقضي عقاب الذنوب يقوم ملك منيع

الوجه في سلطانه عزيز القوة لا تكون عزته تلك بقوة نفسه و ينجح فيما يريد و يجوز في شعب الأطهار و يهلك الأعداء و يؤتى بالحق الذي لم يزل قبل العالمين و في هذا دليل على أمرين أحدهما صدق الخبر لوجوده على حقه و الثاني صحة نبوته لظهور الخبر في صحته

من بشائر رؤيا مختصر :

فصل من بشائره في رؤيا مختصر : و هو أن يختصر رأى في السنة الثانية من ملكه رؤيا ارتاع منها و نسيها فأحضر من في مملكه من الكهنة و المنجمين و كان قد ملك الأقاليم السبعة و سألهم عن الرؤيا و تأويلهم فقالوا له اذكروا لنا حتى نذكر تأويلها لك فأمر بقتلهم إن لم يذكروها و تأويلها و كان دانيال النبي قد سباه من اليهود فاستمهل في أمرهم و رغب إلى الله تعالى في إطلاعهم على الرؤيا و تأويلها فأطلعهم الله تعالى على ذلك فأتى مختصر و قال : أيها الملك إنك كلفت هؤلاء ما لا يعلمه إلا الله و قد رغبت إليه فأطلعني عليه و رؤياك التي رأيتها أن قلبك جاش و اختلج بما يحدث بعدك في آخر الزمان فعرفك مبدي السرائر ما يكون إنك أبا الملك رأيت صنما عظيما قائما قبالتك له منظر رائع رأسه من الذهب الأبريز و صدره و ذراعه من فضة و فخذه من نحاس و ساقاه من حديد و بعض رجله من حديد و بعضها من خزف و رأيت حجرا انقطع من جبل عظيم بغير يد إنسان فضرب ذلك الصنم فهشمه حتى صار جبلا عظيما امتلأت منه الأرض كلها فهذه الرؤيا و أنا معبرها أما الصنم فهو الملوك فأنت الرأس الذهب و يقوم من بعدك من هو دونك ألين منك فأما المملكة الثالثة التي هي مثل النحاس فتسلط على الأرض كلها و أما المملكة الرابعة التي هي مثل الحديد فتكون عزيزة كما أن الحديد يهشم الجميع فكذلك هذه تسحق و تغلب الكل و أما الأرجل و الأصابع التي رأيت أن منها من خزف الفخار و منها من حديد فإن المملكة تكون مختلفة و متفرقة يكون منها أصل من جوهر الحديد و خلط من خزف الفخار فيكون بعض المملكة قويا و بعضها واهيا كسيرا لا يأتلف بعضها بعض كما لا يختلط الحديد بالخزف و أما الحجر الواقع من الجبل فإن إله السماء يرسل مملكة من عنده لأنه لم تقطع الحجر يد إنسان في زمان هذه الممالك يهلكها و يبقى إلى آخر الدهر و لا يكون لأمة أخرى مملكة و لا سلطان إلا دقه كما يدق الحجر الحديد و النحاس و الفضة و الذهب فعرفك الله العظيم ما يكون بعدك في آخر الأيام فهذا رؤياك و تأويلها

فخر مختصر على وجهه ساجدا لدانيال و قال إن إلهكم هذا هو إله الآلهة و رب الأملاك حقا و هو مبدي السرائر و جعل دانيال رأسا مؤمرا على أرض بابل و معلوم أنه لم يرسل الله تعالى سلطانا أزال به الممالك و ملأ به الأرض و دام له الأمر إلا بنبوته محمد صلى الله تعالى عليه و سلم

من بشائر أرميا :

فصل من بشائر أرميا بن برخنا من أنبياء بني إسرائيل في أيام مختصر : لما قتل أهل الرس نبهم قال ابن عباس أمر الله تعالى أن يأمر مختصر أن يغزو العرب الذين لا إغلاق لبيوتهم فيقتلهم بما صنعوا بنبيهم فأمره بذلك فدخل مختصر بلاد العرب فقتل و سبي حتى انتهى إلى قمامة فأتى بمعد بن عدنان فأمر بقتله فقال له النبي لا تفعل فإن في صلب هذا نبيا يبعث في آخر الزمان يختم الله به الأنبياء فحلى سبيله و حمله معه حتى أتى حصونا باليمن فهدهمها و قتل أهلها و زوج معدا بأجمل امرأة منهم في زمانها و خلفه بنهماء حتى نسل بها قال ابن عباس و في ذلك نزل قوله تعالى : { وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة و أنشأنا بعدها قوما آخرين }

من بشائر داود في الزبور :

فصل من بشائر داود في الزبور : سبحان الذي هيكله الصالحون يفرح إسرائيل بخالفه و بيوت صيلون من أجل أن

الله اصطقى له أمتة و أعطاه النصر و سدّد الصالحين منه بالكرامة يسبحون على مضاجعهم و يكبرون الله بأصوات مرتفعة بأيديهم سيوف ذوات شفرتين لينتقموا من الأمم الذين لا يعبدونه يوثقون ملوكهم بالقيود و أشرافهم بالأغلال و معلوم أن سيوف العرب هي ذوات الشفرتين و محمد هو المنتقم بها من الأمم و فيه [أن الله أظهر من صيقون إكليلا محمودا] و صيقون العرب و الإكليل النبوة و محمود هو محمد صلى الله تعالى عليه و سلم

و في مزمور آخر منه : [أنه يجوز من بحر إلى بحر و من لدن الأنهار إلى الأنهار إلى منقطع الأرض و أن تخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم و تلحس أعداؤه التراب تأتيه الملوك بالقرايين و تسجد و تدين له الأمم بالطاعة و الانقياد لأنه يخلص المضطهد البائس ممن هو أقوى منه و ينقذ الضعيف الذي لا ناصر له و يرأف بالضعفاء و المساكين و أنه يعطي من ذهب بلاد سبأ و نصلي عليه في كل وقت و يبارك عليه في كل يوم و يدوم ذكره إلى الأبد] و معلوم أنه لم يكن هذا إلا لحمد صلى الله تعالى عليه و سلم و في [مزمور آخر] قال داود : [اللهم ابعث جاعل السنة حتى يعلم الناس أنه بشر] أي ابعث نبيا يعلم الناس أن المسيح بشر لعلم داود أن قوما سيدعون في المسيح ما ادعوه و هذا هو محمد صلى الله تعالى عليه و سلم من بشارات المسيح في الإنجيل :

فصل من بشارات المسيح به في الإنجيل : قال المسيح عليه السلام للحواريين : [أنا ذاهب و سيأتيكم البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إلا كما يقال له و هو يشهد علي و أنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس و كل شيء أعدّه الله لكم يخبركم به] و في نقل يوحنا عنه : [إن البارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة و لا يقول من تلقاء نفسه شيئا و لكنه لما يسمع به يكلمكم و يسوسكم بالحق و يخبركم بالحوادث و الغيوب]

من هو البارقليط ؟

و في نقل آخر عنه [إن البارقليط روح الحق الذي يرسله باسمي هو يعلمكم كل شيء إني سائل أن يبعث إليكم بارقليط آخر يكون معكم إلى الأبد و هو يعلمكم كل شيء] و في نقل آخر عنه : [إن البشير ذاهب و البارقليط بعده يجي لكم الأسرار و يقيم لكم كل شيء و هو يشهد لي كما شهدت له فإني لأجيئكم بالأمثال و هو يأتيكم بالتأويل] و البارقليط بلغتهم لفظ من الحمد و قد قال النبي صلى الله تعالى عليه و سلم و أنا أحمد و أنا محمود و أنا محمد بشارات الأنبياء تثبت نبوة محمد صلى الله تعالى عليه و سلم :

فهذه من بشارات الأنبياء عن الكتب الإلهية المتناصرة بصحة نبوته المتواترة الأخبار بانتشار دعوته و تأييد شريعته و لعل ما لم يصل إلينا منها أكثر فمنهم من عينه باسمه و منهم من ذكره بصفته و منهم من عزاه إلى قومه و منهم من أضافه إلى بلده و منهم من خصه بأفعاله و منهم من ميزه بظهوره و انتشاره و قد حقق الله جميعها فيه حتى صار جليا بعد الاحتمال و يقينا بعد الارتياب

رد مزاعم مفتراة عن النبي عليه السلام :

فإن قيل : محيي الأنبياء موضوع لمصالح العالم و هم مأمورون بالرفقة و الرحمة و محمد جاء بالسيف و سفك الدماء و قتل النفوس فصار منافيا لما جاء به موسى و عيسى فزال عن حكمهما في النبوة لمخالفتهم في السيرة فعنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن الله تعالى بعث إلى كل نبي بحسب زمانه فمنهم من بعثه بالسيف لأن السيف أنجع و منهم من بعثه باللفظ لأن اللطف أنفع كما خالف بين معجزاتهم بحسب أزمانهم فبعث موسى بالعصا في زمان السحر و بعث عيسى بإحياء الموتى في زمان الطب و بعث محمدا بالقرآن في زمان القصاحة لأن الناس في بدء أمرهم يتعاطفون مع القلة ثم يتنافرون و يتحاسدون مع الكثرة و لذلك قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : [نجا أول هذه الأمة باليقين و الزهد و يهلك آخرها بالبخل و الأمل]

و الجواب الثاني : أن السيف إذا كان لطلب الحق كان خيرا و اللطف إذا كان مع إقرار الباطل كان شرا لأن الشرع موضوع لإقرار الفضائل الإلهية و الحقوق الدينية و لذلك جاء الشرع بالقتل و الحدود ليستقر به الخير و ينتفي به الشر لأن النفوس الأشرة لا يكفها إلا الرهبة فكان القهر أبلغ في إقياها من الرغبة و كانت العرب أكثر الناس شرا و عتوا لكثرة عددهم و قوة شجاعتهم فلذلك كان السيف فيهم أنفع من اللطف و الجواب الثالث : أنه لم يكن في جهاده بالسيف بدعا من الرسل و لا أول من أثنى في أعداء الله تعالى و قبل هذا إبراهيم عليه السلام جاهد الملوك الأربعة الذين ساروا إلى بلاد الجزيرة للغارة على أهلها و حاربهم حتى هزمهم بأحزابه و أتباعه

و هذا يوشع بن نون قتل نيفا و ثلاثين ملكا من ملوك الشام و أباد من مدنها ما لم يبق له أثر و لا من أهلها صافر من غير أن يدعوهم إلى دين أو يطلب منهم أتاة و ساق الغنائم و غزا داود من بلاد الشام ما لم يدع فيها رجلا و لا امرأة إلا قتلهم و هو موجود في كتبهم و محمد صلى الله تعالى عليه و سلم بدأ بالاستدعاء و حارب بعد الإباء لم يكن النبي شديدا إلا في الحق :

و روى ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء فإذا انتهك من محارم الله تعالى شيء كان أشدهم في ذلك غضبا و ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثما و قد كان صلى الله تعالى عليه و سلم أحث الناس على الصفح و التعاطف روى أسيد بن عبد الرحمن [عن فروة بن مجاهد عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقال لي يا عقبة : صل من قطعك و أعط من حرمك و اعف عمن ظلمك فهل يكون أحنى على الخلق ممن يأمرهم بمثل هذا ؟ و إنما تطلبت المصلحة بمثل هذا الاعتراض القدح في النبوات فإنهم لم يعفوا نبيا من القدح في معجزاته و الطعن على سيرته حتى قال منهم في عصرنا ما طعن به موسى و عيسى و محمد صلى الله تعالى عليه و سلم بشعر نظمه فقال :

(و فائق البحر لم يفلق جوانبه ... إذا ضاع فيه ضياع الحر في السفلى)

(و مدع يدعي الأشياء خلقته ... ما باله زال و الأشياء لم تزل)

(و آخر يدعي بالسيف حجته ... هل حجه السيف إلا حجة البطل) [

شاعر يرد على خصوم النبي :

فحضرني حين وردت هذه الأبيات إلى بعض أهل العلم فأجاب عنها فقال :

(قل للذي جاء بالكذب للرسول و رد معجزهم بالزيف و الدغل)

(و قال في ذاك أبياتا مزخرفة ليوقع الناس في شك من الملل)

(ضياع موسى دليل من أدلتهم بعد ما صار فرق البحر كالجلل)

(ليعلم الناس ان الله فائقه ... و أن موسى ضعيف تاه في السبل)
 (و المعجز الحق في فلق المياه له و جعله البر ما يحتاط بالحيل)
 (و ابن البتول فإن الله نزهه عما ذكرت من الدعوى على الجمل)
 (ما كان منه سوى طير يقدره طينا و ربي أحياء و لم يزل)
 (و قال إني بإذن الله فاعله و إذن ربي يحى الخلق لا عملي)
 (و صاحب السيف كان السيف حجته ... بعد البيان عن الإعجاز و المثل)
 (و جاء مبتدئا بالنصح مجتهدا بمعجزات لها حارت أولو التحل)
 (منها كتاب مبين نظمه عجب فيه من الغيب ما أوحى إلى الرسل)
 (فأفحم الشعراء المفلكين به لما تحداهم بالرفق في مهل)
 (و أنبع الماء عذبا من أنامله من غير ما صخرة كانت و لا وشل)
 (و شارف القوم و افاه و كلمه و قال إني من قتلي على و جل)
 (و الذئب قد أخبر الراعي بمبعثه فجاء يشهد بالإسلام في عجل)
 (و الجذع حن إليه حين فارقه حين ذات جوار ساعة الهبل)
 (و أخبر الناس عما في ضمائرهم مفصلا بجواب غير محتمل)
 (و نبأ الروم عن نصر يكون لها من بعد سبعة أعوام على جدل)
 (و الفرس أخبرها عن قتل صاحبها ... برويز إذ جاءه فيروز في شغل)
 (و إن تقصيت ما جاء النبي به طال النشيد و لم آمن من الملل)

الباب السادس عشر — في هتوف الجن بنبوته صلى الله تعالى عليه و سلم

من هم الجن ؟

و الجن من العالم الناطق المميز يأكلون و يتناكحون و يتناسلون و يموتون و أشخاصهم محجوبة عن الأبصار و إن تميزوا بأفعال و آثار إلا أن يخص الله تعالى برؤيتهم من يشاء و إنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية و ما تخيلوه من آثارهم الخفية قال الله تعالى فيما وصفه من إنشاء الخلق : { ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم } يريد بقوله : { لقد خلقنا الإنسان من صلصال } آدم أبا البشر عليه السلام

خلق الإنسان و خلق الجن :

و في الصلصال و جهان أحدهما : أنه الطين النبات و الثاني : أنه الطين الذي تسمه النار و الحمأ جمع حمأة و فيها و جهان أحدهما : أنه المنصوب القائم فيكون صفة للإنسان و الثاني : أنه المنسوب فيكون تمييزا للجنس و قوله : { والجان خلقناه من قبل } يعني من قبل آدم لأن آدم خلق آخر الخلق و في الجان و جهان أحدهما : أنه إبليس و الثاني : انه أبو الجن فأدم أبو البشر و الجان أبو الجن و إبليس أبو الشياطين

و في قوله : { من نار السموم } و جهان أحدهما : من نار الشمس و الثاني : نار الصاعق بين السماء و بين حجاب دونهما فلم يختلفوا في أن الجن يتناسلون و يموتون و منهم مؤمن و منهم كافر

و اختلف في الشياطين فزعم قوم أنهم كفار الجن يتناسلون و يموتون و زعم آخرون أنهم غير الجن و أنهم من ولد إبليس

و اختلف من قال بهذا في تناسلهم و موطنهم فذهب فريق إلى أنهم يتناسلون و يموتون و ذهب آخرون إلى أنهم كإبليس لا يموتون إلا معه و أن تناسلهم انقطع بإنظار إبليس إلى يوم يبعثون
فإن أنكر قوم خلق الجن و لم يؤمنوا بالكتب الإلهية قهرتهم براهين العقول و حجج القياس لأن الله تعالى أنشأ خلق العالم من أربعة أجرام جعلها أصولاً لما خلق من العالم الحي و هي الأرض و الماء و الهواء و النار و العالم نوعان اتفاقاً : علوي و سفلي فالعالم السفلي نوعان خلقيهما من جرمين أحدهما : من الأرض و هو ما عليها من الحيوان و الثاني : من الماء و هو ما فيه من السموك و هما هابطان لهبوط الأرض و الماء و ظاهران لظهور أصلهما و استمرار القياس فيهما

و بقي العالم العلوي جرمين : الهواء و النار و قد استقر خلق الملائكة من الهواء فافتضى معقول القياس أن يكون خلق الجن من النار لتكون الأجرام الأربعة أصولاً لخلق أجناس أربعة و لعلو الهواء كان عالمه من الملائكة علوياً و لخفائه كان خفياً لا يهبط إلا عن أمر إلهي و لا يعين إلا بمعونة إلهية و لعلو النار في أصل هابط كان لعالمه من الجن علو و هبوط و لخفاء كمونها خفي عالمها عن العيان إلا بمعونة إلهية فصار أصلاً من الأربعة محسوسين بالعيان و هما على الأرض و في الماء و أصلاً معقولين بالقياس و هما للملائكة و الجن و لو لا أن دافع ذلك عادل عن الدلائل الشرعية لما عدلنا عنها إلى هذا الاستدلال الخارج عن البراهين الشرعية
الجان مكلفون :

فإذا ثبت خلق الجن بما دللنا عليه من شرع و معقول فهم مكلفون لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم تحداهم بالقرآن بقوله تعالى : { قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً } و قال تعالى : { وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن }
و في صرفهم و جهان أحدهما : أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء برجوم الشهب و لم يصرفوا عنه بعد عيسى إلا بعد بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقالوا : ما هذا الحادث في السماء إلا لحادث في الأرض علموا به تجديد النبوة فجابوا الأرض حتى وقفوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ببطن مكة عامداً إلى عكاظ و هو يصلي القجر فاستمعوا القرآن و رأوه كيف يصلي و يقتدي به أصحابه فعلموا أنه لهذا الحادث صرفوا عن استراق السمع برجوم الشهب و هذا قول ابن عباس رضي الله تعالى عنه
السورة التي استمع لها الجن :

و حكى عكرمة أن السورة التي كان يقرأها : { اقرأ باسم ربك الذي خلق } و الوجه الثاني : أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق هداية من الله تعالى حتى أتوا نبي الله ببطن نخلة فنزل عليه جبريل بهذه الآية و أخبره بوفود الجن و أمره بالخروج إليهم فخرج و معه ابن مسعود حتى جاء الحجون عند شعب أبي ذر قال ابن مسعود فخط على خطا و قال لا تجاوزه و مضى إلى الحجون فأنحدروا عليه أمثال الحجل حتى لم أره فعلى الوجه الأول لم يعلم بهم حتى أتوه و على الوجه الثاني أعلمه جبريل قبل إتيانهم و اختلف أهل العلم في رؤيته لهم و قراءته عليهم
فحكى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم لم يرههم و لم يقرأ عليهم و إنما سمعوا قراءته حين مروا به مصلياً

و حكى عن ابن مسعود أنه رآهم و قرأ عليهم القرآن و في قوله : { فلما حضروه قالوا أنصتوا } و جهان :

أحدهما فلما حضروا قراءته القرآن قالوا : أنصتوا لسماعه
و الوجه الثاني : فلما حضروا رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قالوا أنصتوا لسماع قوله فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين و فيه وجهان :

أحدهما : فلما فرغ من الصلاة ولوا إلى قومهم منذرين به
و الثاني : لما فرغ من قراءته القرآن ولوا إلى قومهم منذرين و قالوا ما حكاها الله تعالى عنهم { إنا سمعنا قرآنا عجا
{ في فصاحته و بلاغته و الثاني عجا في حسن مواعظه
النبي كان عام الرسالة :

و في قوله { يهدي إلى الرشدا فآمنا به { وجهان : أحدهما إلى مرشد الأمور و الثاني إلى معرفة الله تعالى فثبت أن
رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم كان عام الرسالة إلى الإنس و الجن فلم يختلف أهل العلم أنه يجوز أن يبعث
إليه رسولا من الإنس

و اختلفوا في جواز بعثة رسول منهم فجوزوه قوم لقول الله تعالى : { يا معشر الجن والإنس ألم يأتيكم رسل منكم {
و منع آخرون منه و هذا قول من جعلهم من ولد إبليس و حملوا قوله : { ألم يأتيكم رسل منكم { على الذين لما
سمعوا القرآن ولوا إلى قومهم منذرين

فأما كفارهم فيدخلون النار و أما مؤمنوهم فقد اختلفوا في دخولهم الجنة و حكى سفيان عن ليث أنهم يثابون بها
الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصا منها ثم يقال لهم كونوا ترابا كالبهائم
استراق الجن للسمع في السماء :

فأما استراقهم للسمع فقد كانوا في الجاهلية قبل بعث الرسول يسترقونه و لذلك كانت الكهانة في الإنس لإلقاء
الجن إليهم ما استرقوه من السمع في مقاعد كانت لهم يقربون فيها من السماء كما قال الله تعالى : { وأنا كنا نقعد
منها مقاعد للسمع { ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة : { فمن يستمع الآن يجد له شهابا
رصدا { يعني بالشهب الكواكب المحرقة و بالرصد الملائكة

فأما استراقهم للسمع بعد بعث الرسول فقد اختلف فيه أهل العلم على قولين : أحدهما : أنه زال استراقهم للسمع
و لذلك زالت الكهانة و الثاني : أن استراقهم باق بعد بعث الرسول و كان قبل الرسول لا تأخذهم الشهب لقول
الله تعالى : { فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا { و الذي يستمعونه أخبار الأرض دون الوحي لأن الله تعالى قد
حفظ و حيه منهم لقوله تعالى : { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون { و اختلف على هذا في أخذ الشهب لهم هل
يكون قبل استراقهم للسمع أو بعده فذهب بعض أهل العلم إلى أن الشهب تأخذهم قبل استراق السمع حتى لا
يصل إليهم لا نقطاع الكهانة بهم و تكون الشهب منعا عن استراقه
الشهب تأخذ المسترقين للسمع :

و ذهب آخرون منهم إلى أن الشهب تأخذهم بعد استراقه و تكون الشهب عقابا على استراقه و فيها إذا أخذتم
قولان أحدهما : أنها تقتلهم و لذلك انقطعت الكهانة بهم و الثاني : أنها تجرح و تحرق و لا تقتل و لذلك عادوا
لاستراقه بعد الاحتراق و لولا بقاؤهم لانقطع الاستراق بعد الاحتراق و يكون ما يلقونه من السمع إلى الجن دون
الإنس لانقطاع الكهانة عن الإنس و في الشهاب الذي يأخذهم قولان : أحدهما : أنه نور يمتد لشدة ضيائه ثم يعود
و القول الثاني : أنه نار تحرقهم و لا تعود فهذا خطب الجن فيما هم عليه من نعت و حكم
هتوف الجن برسول الله :

فأما هتوفهم برسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فهو من آيات نبوته فإن كان قبل مبعثه كان من نذر آياته الصادرة عن إلهام فمن هتوفهم بنبوته ما حكاه إبراهيم بن سلامة عن إسماعيل بن زياد عن ابن جريج عن ابن العباس رضي الله عنهما أنه كان يحدث عن رجل من خثعم قال : كانت خثعم لا تحل حلالا و لا تحرم حراما و كانت تعبد أصناما فبينما نحن عند صنم منها ذات ليلة نتقاضى إليه في أمر قد شجر بيننا إذ صاح من جوف الصنم صائح يقول :

(يا أيها الركب ذوو الأحكام ... ما أنتم وطائش الأحلام)

(و مسندو الحكم إلى الأصنام)

(هذا نبي سيد الأنام ... يصدع بالحق و بالإسلام)

(أعدل ذي حكم من الأحكام)

(و يتبع النور على الإظلام ... سيعلم في البلد الحرام)

(قد طهر الناس من الآثام)

قال الخثعمي ففزعنا منه و خرجت إلى مكة و أسلمت مع النبي صلى الله تعالى عليه و سلم قصة سواد بن قارب مع رئيه من الجن :

و من بشائر هتوفهم : ما رواه عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن كعب قال : بينما عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ذات يوم جالسا إذ مر به رجل فقيل له : اتعرف هذا الماري يا أمير المؤمنين ؟ قال : و من هو ؟ قالوا : هذا سواد بن قارب من أهل اليمن و كان له رأي من الجن فأرسل إليه عمر فقال : أنت سواد بن قارب ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين فقال : أنت الذي أتاك رثيك بظهور النبي صلى الله تعالى عليه و سلم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين بينا أنا ذات ليلة بين النائم و اليقظان إذ أتاني رأي من الجن فضربني برجله و قال : قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالي و اعقل إن كنت تعقل إنه قد بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم من لؤي بن غالب يدعوا إلى الله تعالى و إلى عبادته و أنشأ يقول :

(عجبت للجن و تطلباها ... و شدها العيس بأقناها)

(تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما صادق الجن ككذباها)

(فارحل إلى الصفوة من هاشم ... ليس قدامها كأذناها)

فقلت له : دعني فإني أمسيت ناعسا و لم أرفع بما قال رأسا

فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله و قال : قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالي و اعقل إن كنت تعقل إنه قد بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم من لؤي بن غالب يدعوا إلى الله تعالى و إلى عبادته و أنشأ يقول :

(عجبت للجن و تخبارها ... و شدها العيس بأكوارها)

(تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمنو الجن ككفارها)

(فارحل إلى الصفوة من هاشم ... بين روايبها و أحجارها)

فقلت دعني فقد أمسيت ناعسا و لم أرفع بما قال رأسا

فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله و قال قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالي و اعقل إن كنت تعقل قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعوا إلى الله تعالى و إلى عبادته و أنشأ يقول :

(عجبت للجن و تجساسها ... و شدها العيس بأحلاسها)

(تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما خير الجن كأنجاسها)
(فارحل إلى الصفوة من هاشم ... واسم بعينيك إلى رأسها)
قال فأصبحت و قد امتحن الله تعالى قلبي للإسلام فرحلت ناقتي و أتيت المدينة فإذا رسول الله صلى الله تعالى عليه
و سلم و أصحابه فقلت : اسمع مقالتي يا رسول الله قال هات فأنشأت :
(أتاني نجي بين هدو و رقدة ... و لم أك فيما قد نجوت بكاذب)
(ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أنك رسول من لؤي بن غالب)
(فشمرت من ذيل الإزار و وسط ... بي الذعلب الوجاء بين السباب)
(فأشهد أن الله لا شيء غيره ... و أنك مأمون على كل غائب)
(و أنك أدنى المرسلين وسيلة ... إلى الله يا ابن الأكرمين الأطياب)
(فمرنا بما يأتيك يا خير من مشى ... و إن كان فيما جاء شيب النوائب)
(و كن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة ... سواك بمغن عن سواد بن قارب)
ففرح رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و أصحابه بمقالتي فرحا شديدا حتى روي الفرح في وجوههم قال
فوثب إليه عمر فالتزمه و قال : قد كنت أحب أن أسمع منك هذا الحديث فهل يأتيك رنيك اليوم فقال : منذ قرأت
القرآن فلا و نعم العوض كتاب الله من الجن
من بشائر هتوف الجن :

و من بشائر هتوفهم : ما رواه إبراهيم بن سلامة عن إسماعيل بن زياد عن ابن جريج عن ابن عباس أن عمر بن
الخطاب حدث يوما في مجلس بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فقال : خرجنا قبل مظهر النبي صلى الله
تعالى عليه و سلم بشهرين إلى الأبطح بمكة معنا عجل نريد ذبحه و نحن نفر فلما ذبحناه و تصاب دمه و مات إذ
صاح من جوفه صائح يا زريح يا زريح صائح يصيح بصوت فصيح نبي يظهر الحق يفيح يقول لا إله إلا الله
فصاح كذلك ثلاث مرات ثم هدأ صوته و تفرقنا و رعبنا منه فلم يلبث النبي صلى الله تعالى عليه و سلم أن ظهر
فقال رجل من القوم : لا تعجب يا أمير المؤمنين خرجت و أصحاب لي في تجارة لنا و نحن أربعة نفر نريد الشام حتى
إذا كنا ببعض أودية الشام قرمنا إلى اللحم قرما شديدا قبل مظهر النبي صلى الله تعالى عليه و سلم فإذا بطيبة قد
عرضت لنا مكسورة القرن فلم نزل بها حتى أخذناها قال : فو الله إننا تتأمر بذبحها إذ هتف هاتف فقال :

(يا أيها الركب السراع الأربعة ... خلوا سبيل الطيبة المروعة)
(فإنها لطفلة ذات دعة ... خلوا عن العضبان فقدا مي سعة)
ثم قال خلوا عنها فو الله لقد رأيت هذا الوادي و ما يمر فيه أقل من خمسين رجلا حتى كنتم به قال فأرسلناها فلما
أمسينا أخذ بأزمة رواحلنا حتى أتى بنا إلى حاضر لجب كثير الأهل فأطعمنا من الشريد ما أذهب قرمنا ثم خرجنا حتى
قضى الله تجارتنا فصحبنا رجل من يهود فلما كنا بذلك الوادي هتف هاتف فقال :
(إياك لا تعجل و خذها موبقه ... فإن شر السير سير الحقيقه)
(قد لاح نجم فاستوى في مشرقه ... يكشف عن ظلما عبوس موبقه)
(يدعو إلى ظل جنان مونقه)
فقال اليهودي : ندرون ما يقول هذا الصارخ ؟ قلنا : ما يقول ؟ قال : يخبر أن نبيا قد ظهر خلافاكم بمكة فقدمنا
فوجدنا النبي صلى الله تعالى عليه و سلم بمكة

هاتف سمعته قريش :

و من بشارت هتوفهم : ما حكاه أبو عيسى قال سمعت قريش في الليل هاتفها على أبي قبيس يقول :

(فإن يسلم السعدان يصبح محمد ... بمكة لا يخشى خلاف مخالف)

فلما أصبحوا قال أبو سفيان : من السعدان سعد بكر و سعد تميم ؟ فلما كان في الليلة الثانية سمعوه يقول :

(أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا ... و يا سعد سعد الخزرجين الغطارف)

(أجيبا إلى داعي الهدى و تمنيا ... على الله في الفردوس منية عارف)

(فإن ثواب الله للطالب الهدى ... جنان من الفردوس ذات زخارف)

فلما أصبحوا قال أبو سفيان هما و الله سعد بن معاذ و سعد بن عباد

و من بشارت هتوفهم : ما رواه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن أسماء بنت أبي بكر قالت : ما علم المشركون

من أهل مكة أين توجه رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم حين هاجر إلى المدينة حتى هتف هاتف بعد ذلك بأيام

فقال :

(جزى الله خيرا و الجزاء فريضة ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد)

(هما دخلاها بالهدى و اهتدى به ... فأفلح من أمسى رفيق محمد)

(ليهن بني كعب محل فتاتهم ... و مقعدها للمسلمين بمرصد)

و قالت أسماء ما علم المشركون من أهل مكة بوقعة بدر حتى هتف هاتف من جبال مكة و فتيان يشمرون بمكة

فقال :

(أزال الحيفيون بدرا بوقعة ... سينقض منها ملك كسرى و قيصرا)

(أصاب رجالا من لؤي و جردت ... حرائر يضربن الترائب حسرا)

(ألا ويح من أمسى عدو محمد ... لقد ذاق حزنا في الحياة و حسرا)

(و أصبح في هامي العجاج معفرا ... تناوبه الطير الجياح و تنقرا)

فعلموا بذلك و ظهر الخبر من الغد و لن كانت هذه الهتوف أخبار آحاد عمن لا يرى شخصه و لا يحج قوله

فخروجه عن العادة نذير و تأثيره في النفوس بشير و قد قبلها السامعون و قبول الأخبار يؤكد حجتها

هتوف الجن من البشائر :

فإن قيل : إن كانت هتوف الجن من دلائل النبوة جاز أن تكون دليلا على صحة الكهانة

فعنه جوابان أحدهما : أن دلائل النبوة غيرها و إنما هي من البشائر بها و فرق بين الدلالة و البشارة إخبارا و الثاني :

أن الكهانة عن مغيب و البشارة عن معين فالعيان معلوم و الغائب موهوم

الباب السابع عشر — فيما هجست به النفوس من إلهام العقول بنبوته عليه

السلام

العقل إلهي ركه الله تعالى في النفوس الناطقة فهو ينذر بالخواص الكائنة حدسا و يعلم بعد الوجود حسا فقل حادث

إلا تقدم نذيره و بحسب خاطره يكون تأثيره و لا حادث أعظم مما جدد الله تعالى بنبوته محمد صلى الله تعالى عليه و

سلم فافتضى أن تكون بشارت نبوته أشهر و شواهد آياته أظهر

هاجس كعب بن لؤي :

فمن الهواجس نبوته : أن كعب بن لؤي بن غالب كان يجمع إليه الناس في كل جمعة و كان يوم الجمعة و كان يخطب فيه الناس و يقول بعد خطبته : حرمكم عظموه و تمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم و سيخرج به النبي كريم و الله لو كنت فيه ذا سمع و بصر و يد و رجل لنصبت لنصب الخيل و لأرقلت إرقال الفحل ثم يقول :
(يا ليتني شاهد فحواء دعوته ... حين العشرة تبغي الحق خذلانا)

هاجس أبو كريب الحميري :

و من هواجس الإلهام : ما حكاه ابن قتيبة أن أبا كريب بن أسعد الحميري آمن بالنبي صلى الله تعالى عليه و سلم قبل أن يبعث بسبعمئة سنة و قال :

(شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باري النسم)

(فلو مد عمري إلى عمره ... لكنت وزيرا له و ابن عم)

هاجس تبع الأصغر :

و من هواجس الإلهام : ما حكاه عبيد الجرهمي و كان كبير السن عالما بأخبار الأمم : أن تبع الأصغر و هو تبع بن حسان بن تبع سائر يثرب فنزل في سفح أحد و ذهب إلى اليهود فقتل منهم ثلاثمائة و خمسين رجلا صبرا و أراد خرابها فقام إليه رجل من اليهود كبير السن فقال :

أيها الملك مثلك لا يقتل على الغضب و لا يقبل قول الزور أمرك أعظم من أن يطير بك برق أو تسرع بك لجاج فإنك لا تستطيع أن تخرب هذه

قال : و لم ؟ قال : لأنها مهاجر نبي من ولد إسماعيل يخرج من هذه الشية يعني البيت الحرام فكف تبع و مضى إلى مكة و معه هذا اليهودي و رجل آخر عالم من اليهود فكسا البيت و نحر عنده ستة آلاف جزور و أطعم الناس و قال :

(قد كسونا البيت الذي حرم الله ... ملاء معصدا و برودا)

و قيل إنه ملك ثلاثمائة و عشرين سنة

هاجس في مكة يوم مولد النبي :

و من هواجس الإلهام : ما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كان يهودي يسكن مكة فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم حضر مجلس قريش فقال يا معشر قريش : هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم : و الله ما نعلم قال : الله أكبر أما إذا أخطأكم فلا بأس انظروا و احفظوا ما أقول لكم و لد في هذه الليلة نبي بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنها عرف و ثن فتسارع القوم عن مجلسهم و هم متعجبون من قوله

فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا : ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمدا : فانطلق القوم إلى اليهودي فأخبروه فقال : اذهبوا بي حتى أنظر إليه فأدخلوه على آمنة قالوا : اخرجي إلينا ابنك فأخرجته و كشفوا عن ظهره فرأى اليهودي تلك الشامة فوقع مغشيا عليه فلما أفاق فقالوا له : مالك ؟ قال : ذهبت و الله النبوة من بني إسرائيل يا معشر قريش و الله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق إلى المغرب و كان في القوم الذين أخبرهم اليهودي بذلك هشام بن المغيرة و الوليد بن المغيرة و عبيد بن الحرث بن عبد المطلب و عتبة بن ربيعة فعصمه الله تعالى منهم

هاجس سمعته خديجة بنت خويلد :

و مثله : أنه كان لقريش في الجاهلية عيد يجتمع فيه النساء دون الرجال فاجتمعن فيه فوقف عليهن يهودي و فيهن خديجة فقال لمن : يا معشر نساء قريش يوشك أن يبعث فيكن نبي فأيكن استطاعت أن تكون له أرضا فلتفعل فحصبته و وقر ذلك في نفس خديجة حتى حققه الله لها فكانت أول من آمن به هاجس تاجر نصراني قدم مكة :

و مثله : أن جماعة من النصارى قدموا من الشام تجارا إلى مكة فنزلوا بين الصفا و المروة فرأوه و هو ابن سبع سنين فعرفه بعضهم بصفته من كتبهم و سمته في فراستهم فقال له : من أنت و ابن من أنت ؟ فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فقال له : من رب هذه ؟ و أشار إلى الجبال فقال : الله ربها لا شريك له

فقال له : من رب هذه ؟ و أشار إلى السماء فقال : الله ربها لا شريك له فقال له النصراني : فهل لها رب غيره ؟ فقال : لا تشككني في الله ما له شريك و لا ضد فقام بالتوحيد في صغره و فصيح النصراني يخبره و أنذر بنيوته هاجس ظهر في مكة و بصرى :

و مثله : أنه كان في كفالة جده عبد المطلب و كان أحب إليه من جميع أولاده فلما حضرته الوفاة وصى به عمه أبي طالب لأنه كان أحبا عبد الله لأبيه و أمه و أنشأ يقول :

(وصيت من كنيته بطالب ... عبد مناف و هو ذو تجارب)

(يا ابن الحبيب أكرم الأقارب ... يا ابن الذي مذ غاب غير آيب)

فقبل أبو طالب الوصية و كان قد سمع من راهب إنذارا فأنشأ يقول :

(لا توصين بلازم و واجب ... فلست بالآنس غير الراهب)

(بأن حمد الله قول الراهب ... إني سمعت أعجب العجائب)

(من كل حبر عالم و كاتب)

و مات عبد المطلب بعد ثماني سنين من مولده فتكفله عمه أبو طالب و خرج به إلى الشام في تجارة له و هو ابن تسع سنين فنزل تحت صومعة بالشام و كان عند بصرى و كان في الصومعة راهب يقال له بحيرا قرأ كتب أهل الكتاب و عرف ما فيها من الأنباء و الأمارات

فرأى بحيرا من صومعته غمامة قد أظلت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم من الشمس فنزل إليه و جعل يتفقد جسده حتى رأى خاتم النبوة بين كتفيه و سأل عن حاله في منامه و يقظته فأخبره بما فوافقت ما عنده في الكتب و سأل أبا طالب عنه فقال ابني فقال : كلا فقال ابن أخي مات أبوه و هو حمل قال : صدقت و عمل لهم و لمن معهم طعاما لم يكن يعملهم من قبل و قال : احفظوا هذا من اليهود و النصارى فإنه سيد العالمين و سيبعث نبيا إليهم أجمعين و إن عرفوه معكم قتلوه فقالوا : كيف عرفت هذا ؟ قال : السحابة التي أظلتني و رأيت خاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة على النعت المذكور و رأيت المدر و الشجر يسجدان له و لا يسجدان إلا لني

و جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و كان في رعيه الإبل قد سبقه القوم إلى ظل شجرة فلما جلس مال ظل الشجرة عليه فقال لهم : هذا من آيات نبوته و إن الروم إن رأوه عرفوه بصفته فيقتلوه ثم التفت فإذا هو بسبعة نفر قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم و قال ما جاء بكم قالوا : جئنا لأن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث فيه ناس و نحن آخر من بعث إلى طريقك هذا فقال لهم : هل خلفتم خلفكم أحدا هو خير منكم ؟ قالوا :

لا قال : أفرايتم أمرا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا : لا قال : فارجعوا فتابعوه على الرجوع و زدوهم الراهب حتى أسرع به أبو طالب

فكانت هذه البشائر من رهبان النصارى و ما تقدم من أخبار اليهود و قد توارد عليها جميعهم مع اختلاف معتقدهم و تغاير كتبهم من أوائل الشهود على تعيين النبوة فيه إما عن كتب نعت فيها فأصابوه على النعت فكان إنذارا إلهيا تواردت عليه الخواطر لأن ما هجست به النفوس من أمر كان و ما تخيلته العقول ظهر و بان لأن القلوب طلائع الأقدار و العقول مرايا الأسرار

هاجس سيف بن ذي يزن :

و من هواجس الإلهام : ما حدثنا أبو الحسن محمد بن علي بن محفل رحمه الله قال : حدثنا عمر بن حماد الفقيه قال : حدثنا عمر بن محمد ابن بحر السمرقندي قال : حدثنا أحمد بن عبد ربه الضبي قال : أخبرنا عبد الرحمن بن نوح بن عبيد قال : حدثنا عمر بن بكير قال : حدثني أحمد بن القاسم عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رحمة الله عليه قال : لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحيشة و ذلك بعد مولد النبي صلى الله تعالى عليه و سلم بسنين أتى وفود العرب و أشرافها و شعراؤها لتهنئته و مدحه و ذكر ما كان من بلائه و طلبه بثأر قومه فأثاء وفد قريش و فيهم عبد المطلب بن هاشم و أمية بن عبد شمس و عبد الله بن جدعان و أسد بن خويلد بن عبد العزى في ناس من أشرف قريش فلما قدموا عليه إذ هو في رأس قصر يقال له غمدان و هو الذي يقول فيه أمية بن أبي الصلت :

(اشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا ... في رأس غمدان دار منك محلال)

قال فاستأذنوا عليه فأذن لهم فدخلوا عليه فإذا الملك مضمخ بالعنبر يرى و يبص الطيب من مفرقه عليه بردان متزر بأحدهما مرتد بالآخر سيفه بين يديه و عن يمينه و عن يساره الملوك و أبناء الملوك و المقاول قال : فدنا عبد المطلب و استأذن في الكلام

فقال : إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فتكلم فقد أذن لك فقال عبد المطلب : إن الله أحلك أيها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا و أنبتك منبتا طابت أرومته و عزت جرثومته و ثبت أصله و بسق فرعه في أكرم موطن و أطيّب معدن و أنت أبيت اللعن ملك العرب و ربيعها الذي يخضب به و أنت أيها الملك رأس العرب الذي إليه تنقاد و عمودها الذي عليه العماد و معلقها الذي تلجأ إليه العباد سلفك خير سلف و أنت لنا منهم خير خلف فلن يحمل ذكر من أنت سلفه و لن يهلك من أنت خلفه و نحن أيها الملك أهل حرم الله و سدة بيته أشخصنا إليك الذي أهيجنا لكشف الكرب الذي فدحنا فنحن وفد التهنة لا وفد التعرية

فقال ابن ذي يزن : فأيهم أنت أيها المتكلم ؟ فقال : أنا عبد المطلب بن هاشم قال : ابن اختنا ؟ قال : نعم ابن أختكم قال : ادن فأدناه على القوم وعليه فقال : مرحبا و أهلا و ناقة و رحلا و مستاخا سهلا و ملكا رجلا يعطي عطاء جزلا قد سمع الملك مقاتلكم و عرف قرابتكم و قبل وسيلتكم فأنتم أهل الليل و أهل النهار لكم الكرامة ما أقمتهم و الحباء إذا ظعنتم قال : ثم استنهضوا إلى دار الضيافة و الوفود فأقاموا شهرا لا يصلون إليه و لا يأذن لهم بالانصراف

قال : ثم انتبه انتباهه فأرسل إلى عبد المطلب فأعلاه و أدنى مجلسه و قال : يا عبد المطلب إني مفوض إليك من سر علمي ما لو كان غيرك لم أبح له و لكن رأيته معدنه و أطلعته عليك عليه فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ فيه أمره إني أجد في الكتاب المكنون و العلم للخزون الذي اخترناه لأنفسنا و احتجبناه دون غيره خيرا عظيما و خطرا جسيما فيه شرف الحياة و فضيلة الوفاة للناس عامة و لرهطك كافة و لك خاصة

قال عبد المطلب : أيها الملك فمثلك من سر وبر فما هو فذاك أهل الوبر زمرا بعد زمر قال : إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة كانت له الإمامة و لكم به الزعامة إلى يوم القيامة فقال له عبد المطلب : أبيت اللعن لقد أتيت بخبر ما أتى بمثله وافد فلولا هيبة الملك و إجلاله و إعظامه لسألته من بشارته إياي ما ازداد به سرورا قال ابن ذي يزن هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد اسمه أحمد يموت أبوه و أمه و كفله جده و عمه قد ولدناه مرارا و الله باعته جهارا و جاعل منا له أنصارا يعز بهم أوليائه و يذل بهم أعداءه يضرب بهم الناس عن عرض و يستفتح بهم كرائم الأرض يكسر الأوثان و يحمد النيران و يعبد الرحمن و يدحر الشيطان قوله فصل و حكمه عدل يأمر بالمعروف و يفعل له و ينهى عن المنكر و يبطله

قال عبد المطلب : أيها الملك عز جدك و علا عقبك و طاب ملكك و طال عمرك فهل الملك ساري بإفصاح فقد أوضح بعض الإيضاح

فقال : ابن ذي يزن : و البيت ذي الحجب و العلامات على النصب إنك يا عبد المطلب لجده غير الكذب قال فخر عبد المطلب ساجدا فقال ابن ذي يزن : ارفع رأسك ثلج صدرك و علا أمرك فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ؟

فقال : نعم أيها الملك كان لي ابن و كنت به معجبا رفيقا فزوجته كريمة من كرائم قومي آمنة بنت وهب بن عبد مناف فأتت بغلام سميته محمدا مات أبوه و أمه و كفلته أنا و عمه بين كتفيه شامة و فيه كما ذكرت من علامة قال ابن ذي يزن : إن الذي قلت لك لكما قلت لك فاحتفظ بابنك و احذر عليه من اليهود فإنهم له أعداء و لن يجعل الله لهم عليه سيلا فاطو ما ذكرته دون هؤلاء الرهط الذين معك فإني لست آمن أن يداخلهم النفاسة و من أن تكون لك الرياسة فيبعون له الغوائل و ينصبون له الحبال و هم فاعلون و أبناءهم و لولا أنني أعلم أن الموت يحتاجني قبل مبعثه لسرت بخيلي و رجلي حتى أصير يشرب دار ملكي فإني أجد في الكتاب الناطق و العلم السابق أن يثرب استحكام أمره و أهل نصرته و موضع قبره و لولا أنني أقيه الآيات و أحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه ذكره و أوطيت أسنان العرب عقبه و لكني صارف ذلك إليك بغير تقصير ممن معك ثم أمر لكل رجل عن القوم بعشرة أعبد و عشرة إماء سود و حلتين من حلل البرود و خمسة أرطال ذهب و عشرة أرطال فضة و كرش مملوءة عنبرا و لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك

و قال له إذا حال الحول فائتني بأمره و ما يكون من خبره قال فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول قال فكان عبد المطلب كثيرا يقول : يا معشر قريش لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك و إن كان كثيرا فإنه إلى نفاق و لكن ليغبطني بما يبقى لي و لعقبى ذكره و فخره و شرفه فإذا قيل له : و ما ذاك ؟ قال : ستعلمون ما أقول لكم و لو بعد حين

هاجس خديجة زوج النبي عليه السلام : و من هو اجس الإلهام : إنه نشأ في قريش على أحسن هدى و طريقة و أشرف خلق و طبيعة و أصدق لسان و لهجة حتى سمته قريش في حديثه الأمين تأسيسا لما سيكون و كانت خديجة بنت خويلد ذات شرف و يسار و كان لها متاجر و مضاربات فلما عرفت أمانة رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و صدق لهجته أبضعتة مالا يتجر به إلى الشام مضاربا و أنفذت معه مولاهم ميسرة ليعلمه في طريقه

فنزل ذات يوم تحت صومعة راهب فرأى الراهب من ظهور كرامة الله تعالى له ما علم أنه لا يكون إلا لنبي فقال لميسرة : من هذا ؟ فقال : رجل من قريش من أهل الحرم فقال : إنه نبي فكان ميسرة يراه إذا ركب تظله غمامة

تقيه حر الشمس فلما قدم على خديجة قص ميسرة عليها حديث الراهب و ما شاهده من ظل الغمامة و ما تضاعف من ريح التجارة فتنبهت به على عظم شأنه و شواهد برهانه فرغبت خديجة في نكاحه و كان قد خطبها أشراف قريش فامتنعت و سفر بينهما في النكاح ميسرة و خافت امتناع أبيها عليه فعقرت له ذبيحة و ألبسته حبرة و غلفته بطيب و عبير و سقته حمرا حتى سكر و حضر رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و معه حمزة بن عبد المطلب و اختلف في حضور عمه أبي طالب فقال الأكثرون حضر مع حمزة و خطبها من أبيها فأجابته و زوجته و هو ابن خمس و عشرين سنة و خديجة ابنة أربعين سنة و دخل بها من ليلته

فلما أصبح خويلد و صحا رأى آثار ما عليه فقال : ما هذا العقير و العبير و الخبر ؟ فقيل : زوجت خديجة بمحمد قال : ما فعلت قيل له : قبيح بك هذا و قد دخل بها فرضي و لأجل ذلك قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم [لا يرفع إلي نكاح نشوان إلا أجزته]

و قامت خديجة رضي الله تعالى عنها بأمره حتى كفته أمور دنياه فكان ذلك عوننا من الله تعالى و لطفنا بفضل به عليه منا و إسعافا

هاجس زيد بن عمرو بن نفيل :

و من هواجس الإلهام : ما حكاها عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب و لا أراي أدركه و أنا أؤمن به و أصدقه و أشهد أنه نبي فإن طالت بك مدة فرأيتته فقرأه مني السلام و سأخبرك ما نعتته حتى لا يخفى عليك قلت هلم

قال : هو رجل ليس بالقصير و لا بالطويل و لا بكثير الشعر و لا بقليله و ليس بفارق عينيه حمرة و خاتم النبوة بين كتفيه و اسمه أحمد و هذا البلد مولده ثم يخرج قومه منها و يكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره فإياك أن تحد عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأله عنه من اليهود و النصارى و المجوس يقولون : هذا الدين وراءك و ينعونه مثل ما نعت لك و يقولون : لم يبق نبي غيره

قال عامر : فلما أسلمت أخبرت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بقول زيد و أقرأته منه السلام فرد عليه السلام و ترحم عليه و قال [قد رأيتته في الجنة يسحب الذبول]

هاجس كسرى :

و من هواجس الإلهام : ما رواه الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : بعث الله تعالى إلى كسرى ملكا و هو في بيت إيوانه الذي لا يدخل عليه فلم يرعه إلا به قائما على رأسه في يده عصا بالهاجرة من ساعته التي كان يقبل فيها فقال : يا كسرى أتسلم أو أكسر هذه العصا ؟ فقال : بجل بجل فانصرف عنه فدعا حراسه و حجابته فتغيظ عليهم فقال : من أدخل هذا الرجل ؟ فقالوا : ما دخل عليك أحد و لا رأيناه حتى إذا كان العام القابل أتاه في الساعة التي أتاه فيها فقال له كما قال ثم قال : أتسلم أو أكسر هذه العصا ؟ فقال : بجل بجل ثلاثا فخرج عنه فدعا كسرى حراسه و حجابته فتغيظ و قال لهم كما قال أول مرة فقالوا : ما رأينا أحدا دخل عليك

حتى إذا كان في العام الثالث أتاه في الساعة التي فيها فقال له كما قال ثم قال : أتسلم أو أكسر هذه العصا ؟ فقال بجل بجل فكسرها ثم خرج فلم يكن إلا قهور ملكه و انبعاث ابنه و القرس على قتله حتى قتلوه هاجس منام كسرى :

و من هواجس المنام : ما حكاها ابن قتيبة أن كسرى أبرويز بن هرمز كان سائرا ذات يوم فهوم على مركبه و طال

حتى استغفل فأيقظه بعض قواده فانتبه مذعورا لرؤيا رآها قطعها عليه الموقظ له فقال : رأيت قاتلا لي إنكم غيرتم
فغيرناكم و قتل الملك إلى أحمد

و قيل له : سلم ما بيدك إلى صاحب الهرواة إلى أن ورد عليه كتاب النعمان بن المنذر يخبر فيه أن خارجا نجم بتهامة
يخبر أنه رسول الله إله السماء و الأرض إلى أهل الأرض كافة فارتاع لذلك و أكبره و علم أنه الذي رآه في منامه و
كان يتوقعه

هاجس رقية بنت أبي ضبيعي :

و من هواجس المنام : ما رواه عروة بن مضر عن مخزوم بن نوفل عن أمه رقية بنت أبي ضبيعي بن هاشم قال :
تتابع علي قريش سنون أمحلت الضرع و أدقت العظم فيينا أنا نائمة اللهم أو مهمومة إذا هاتف يصرخ بصوت
صخب يقول يا معشر قريش إن هذا النبي المبعوث فيكم قد أظلتكم أيامه و هذا إبان نجومه فحيهلا بالحياء و
الخصب ألا فانظروا رجلا منكم وسيطا جسيما أبيض بضاً أو طف الأهداب سهل الخدين أشم العينين له فخر يكظم
عليه و سنه يهدي إليه فليخلص هو و ولده و ليهبط إليه من كل بطن رجل فليستنوا من الماء و ليمسوا من الطيب
ثم ليستلموا الركن ثم ليرتقوا أبا قبيس فليستسق الرجل و ليؤم القوم فغشم ما شتم
فأصبحت علم الله تعالى مذعورة فاقشعر جلدي و وله عقلي و اقتصصت رؤياي فو الحرم ما بقي بها
أبطحي إلا قال هذا شبيهة الحمد يعنون عبد المطلب فتتامت إليه رجالات قريش و هبط إليه من كل بطن رجل
فستوا و مسوا و استلموا ثم ارتقوا أبا قبيس و طبقوا جانبيه ما يبلغ سعيهم مهلة حتى استنوا بذروة الجبل
فقام عبد المطلب و معه رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم غلام حين أيفع أو كرب فقال : اللهم ساد الخلة و
كاشف الكربة أنت معلم غير معلم و مستول غير مبخل و هذه عبادك و إمواك بغدرات حرمك يشكون إليك
سنتهم أذهبت الخف و الظلف اللهم فامطر علينا غيثا مغدقا مريعا فو الكعبة ما راحوا حتى تقجرت السماء بمائها و
سال الوادي بشجيجة فسمعت شيوخا من قريش و أجلتها : عبد الله بن جدعان و حرب بن أمية و هشام بن المغيرة
يقولون لعبد المطلب : هنينا لك أبا البطحاء أي عاش بك أهل البطحاء و في ذلك يقول رفيقه :

(بشيية الحمد أسقى الله بلدتنا ... لما فقدنا الحيا و اجلوذ المطر)

(فجاد بالماء جوي له سبل ... سحا فعاشت به الأنعام و الشجر)

(مبارك الأمر يستسقى الغمام به ... ما في الأنام له عدل و لا خطر)

هواجس في فارس :

و من هواجس الإنذار و الإلهام و المنام : ما رواه أبو أيوب يعلى بن عمران النحلي عن مخزوم بن هاني المخزومي
عن أبيه و أتت له مائة و خمسون سنة قال : لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم أو
بعث ارتجس إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة و حمدت نار فارس و لم تحمد قبل ذلك بألف عام و
غارت بحيرة ساوة فأفرع ذلك كسرى فلبس تاجه و قعد على سريره و جمع وزراءه و مرازبته و أخبرهم برؤياه
فقال الموبدان : و أنا أصلح الله تعالى الملك قد رأيت في هذه الليلة إيلا صعبا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة و
انتشرت في بلادنا

فقال أي شيء هذا يا موبدان ؟ فقال : حادثة تكون من ناحية العرب فكتب إلى النعمان بن المنذر أن ابعث إلي

يرجل عالم أسأله عما أريد فوجه إليه عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني

فلما قدم عليه أخبره فقال : أيها الملك علم ذلك عند خال لي يسكن مشارق الشام يقال له سطيح قال : فأتته

فاسأله عما أخبرتك به ثم أحضر بجوابه فركب عبد المسيح راحلته حتى ورد على سطيح و قد أشفى على الموت و
وضع على شفير قبره فسلم عليه و حياه فلم يخبر سطيح جوابا فأنشأ عبد المسيح يقول :

(أضم أم يسمع غطريف اليمن ... يا فاضل الخطة أعيت من و من)

(أذاك شيخ الحي من آل سنن ... و أمه من آل ذئب بن حجن)

(أبيض فضفاض الردا خجر البدن ... رسول قيل العجم يسري للوسن)

فرفع سطيح رأسه و قال : عبد المسيح على جمل مشيح وافي إلى سطيح و قد أوفى به إلى الضريح بعثك ملك بني
ساسان لارتجاس الإيوان و حمود النيران و رؤيا الموبدان رأى إبلا صعبا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة و
انتشرت في بلادها ثم قال : يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة و بعث من قمامة صاحب الهرواة و فاض وادي
السمواة و غاضت بحيرة ساوة و حدثت نار فارس فليس الشام لسطيح شاما يملك منهم ملك و ملكات بعدد
الشرفات و كل ما هو آت آت ثم قضى سطيح فسار عبد المسيح على راحلته و هو يقول :

(شمر فإنك ماضي المهم شمير ... و لا يغرنك تفريق و تغيير)

(أن يمس ملك بني ساسان أفرطهم ... فإن ذا الدهر أطوار هارير)

(فرما أصبحوا يوما بمنزلة ... قهاب صولهم الأسد المهاصيم)

(منهم أخو الصرح بهرام و إخوته ... و الهرمزان و سابور و سابور)

(و الناس أولاد علالت فمن علموا ... أن قد أقل فمهجور و محفور)

(و هم بنو الأم إلا أن يروا نسبا ... فذاك بالغيب محفوظ و منصور)

(و الخير و الشر مقرونان في قرن ... فالخير متبع و الشر محذور)

فلما قدم عبد المسيح على كسرى و أخبره قال كسرى إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا قد كانت أمور فملك
منهم عشرة ملوك أربع سنين و زال ملكهم عن يزدجر الرابع عشر بعد اثنتي عشرة سنة
اعتراض على الهواجس :

فإن قيل : فهذا قول كاهن قد أبطلته النبوة فلم يقبل قوله في إثبات النبوة فعنه جوابان
أحدهما : أنه تأويل رؤيا تحققت خرج بها عن حكم الكهانة
و الثاني : أنه علمها بنقل الجن كهوف الجن كما قال الله تعالى : { وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم } فإذا سير
ما اختلف طرقه و تغاير وصفه خرج عن القلة إلى التكاثر وعن الأحاد إلى التواتر فصار الظن معلوما و التوهم
محتوما

الباب الثامن عشر : في مبادئ نسبه و طهارة مولده صلى الله تعالى عليه و

سلم

الأنبياء صفوة العباد :

لما كان أنبياء الله صفوة عباده و خيرة خلقه لما كلفهم من من القيام بحقه استخلصهم من أكرم العناصر و أمدهم
بأوكد الأواصر حفظا لنسبهم من قدح و لمنصهم من جرح لتكون النفوس لها أوطأ و القلوب لهم أصفا فيكون
الناس إلى إجابتهم أسرع و لأوامرهم أطوع
و لما تفرغ الملك عن إبراهيم و اختصت النبوة بولده انحازت إلى ولد إسحاق دون إسماعيل فصارت في بني إسرائيل

لكنهم بعد القلة و قوتهم بعد الذلة فبدأت النبوة بموسى و انختمت بعيسى
تكاثر ولد إسماعيل :

و لما كثر ولد إسماعيل و انتشروا في الأرض تميز بعد الكثرة ولد قحطان عن ولد عدنان و استولت قحطان على
الملك انحازت النبوة إلى ولد عدنان فأول من أسس لهم مجدا و شيد لهم ذكرا معد بن عدنان حين اصطفاه بختصر و
قد ملك أقاليم الأرض و كان قد هم بقتله حين غزا بلاد العرب فأنذره نبي كان في وقته بأن النبوة في ولده فاستبقاه
و أكرمه و مكّنه و استولى على قمامة بيد عالية و أمر مطاع و فيه يقول مهلهل الشاعر :

(غنيت دارنا قمامة بالأمس ... و فيها بنو معد حلولاً)

عز نزار بن معد :

ثم ازداد العز بولده نزار و انبسط به اليد و تقدم عند ملوك الفرس و اجتباه [تستشف] ملك الفرس و كان اسمه
خلدان و كان مهزول البدن فقال الملك : ما لك يا نزار ؟ و تفسيره في لغتهم : يا مهزول فغلب عليه هذا الاسم و
فيه يقول قمعة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان :

(جديسا خلفناه و طسما بأرضه ... فأكرم بنا عند الفخار فخار)

(فححن بنو عدنان خلدان جدنا ... فسماه تستشف الهمام نزاراً)

(فسني نزاراً بعدما كان اسمه ... لدى العرب خلدان بنوه خياراً)

أولاد نزار الأربعة :

و كان لنزار أربعة أولاد : مضر و ربيعة و إياد و أثمار فلعل حضرتة الوفاة وصاهم فقال : يا بني هذه القبة الحمراء
و ما أشبهها لمضر و هذا الخباء الأسود و ما أشبهه لربيعة و هذه الخادمة و ما أشبهها لأياد و هذه الندوة و المجلس
و ما أشبهها لأثمار فإن أشكل عليكم و اختلفتم فعليكم بالأفعى الجرهمي بنجران
فاختلفوا في القسمة فتوجهوا إليه فيبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلاً قد رعي فقال : إن البعير الذي رعى هذا
الكلأ لأعور و قال لربيعة : هو أزور و قال إياد : هو أتر و قال أثمار : و هو شرود فلم يسيروا قليلاً حتى لقيهم
رجل يوضع على راحلته فسألهم عن البعير فقال مضر : هو أعور قال نعم قال ربيعة : هو أزور قال : نعم و قال
إياد : هو أتر قال نعم و قال أثمار : هو شرود قال نعم و هذه و الله صفة بعيري فدلوني عليه فقالوا : و الله ما
رأيناه قال : قد وصفتموه بصفته فكيف لم تروه

و سار معهم إلى نجران حتى نزلوا بالأفعى الجرهمي فناداه صاحب البعير هؤلاء أصحاب بعيري وصفوه لي بصفته و
قالوا : لم نره فقال لهم الأفعى الجرهمي : كيف وصفتموه و لم تروه ؟

فقال مضر : رأيته يرعى جانبا و يترك جانبا فعرفت أنه أعور

و قال ربيعة : رأيته إحدى يديه ثابتة الأثر و الأخرى فاسدة الأثر فعرفت أنه أزور

و قال إياد : رأيته بعره مجتمعاً فعرفت أنه أتر

و قال أثمار : رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوزه إلى غيره فعرفت أنه شرود

فقال الجرهمي لصاحب البعير : ليسوا أصحاب بعيرك فاطلب من غيرهم ثم سألتهم من هم فأخبروه أنهم بنو نزار بن

معد فقال : أحتاجون إلي و أنتم كما أرى ؟ فدعا لهم بطعام فأكلوا و بشراب فشرّبوا و شرب فقال مضر لم أر

كاليوم حمراً أجود لولا أنها نبتت على قبر و قال ربيعة : لم أر كالיום لحماً أطيب لولا أنه ربي بلبن كلبة و قال إياد :

لم أر كالיום رجلاً أسرى لولا أنه يدعي لغير أبيه و قال أثمار : لم أر كالיום كلاماً أنفع في حاجتنا و سمع الجرهمي

الكلام فتعجب لقولهم و أتى أمه فسألها فأخبرته : أنها كانت تحت ملك لا ولد له فكرهت أن يذهب الملك فأمكننت رجلا من نفسها كان نزل بها فوطئها فحملت منه به و سأل القهرمان عن الحمر فقال من كرمه غرستها على قبر أبيك و سأل الراعي عن اللحم فقال : شاة أرضعتها بلبن كلبة لأن الشاة حين ولدت ماتت و لم يكن ولد في الغنم شاة غيرها فقيل لمضر من أين عرفت الحمر و نباتها على قبر ؟ قال : لأنه أصابني عليها عطش شديد و قيل لربيعة من أين عرفت أن الشاة ارتضعت على لبن كلبة ؟ قال : لأني شممت منه رائحة الكلب و قال لإياد : من أين عرفت أن الرجل يدعى لغير أبيه ؟ قال لأبي رأيته يتكلف ما يعمله ثم أتاهم الجرهمي و قال : صفوا لي صفتكم فقصوا عليه ما أوصاهم به أبوههم نزار فقضى لمضر بالقبلة الحمراء و الدنانير و الإبل و هي حمر فسمي مضر الحمراء و قضى لربيعة بالخباء الأسود و الخيل الدهم سمي ربيعة الفرس و قضى لأبياد بالخادمة الشمطاء و الماشية البلق و قضى لأنمار بالأرض و الدراهم مضر و خزاعة يسولون على الحرم :

و هذا الذي ظهر في أولاد نزار من قوة الذكاء و حدة الفطنة تأسيسا لتمييزهم بالفضل و اختصاصهم بوفور العقل مقدمة لما يراهم ثم تفرقت القبائل منهم فاخص و لد مضر بن نزار بالحرم فتميزوا بأنسابهم و تناصروا بسيوفهم حتى استولت قريش على الحرم بعد جرهم و خزاعة لأن جرهم كانوا جبابرة فيغوا و تجبروا حتى بعث الله تعالى عليهم الرعاف و النمل فأفناهم و أفضى أمرهم إلى عامر بن الحرث و هم القائلون :

(واد حرام طيره و وحشة ... نحن ولاته فلا تغشه)

فاجتمعت خزاعة و رئيسهم عمرو بن ربيعة بن حارثة على عامر بن ربيعة و بقية جرهم فأخرجوهم من الحرم و استولت عليه خزاعة و ولي البيت عمرو بن ربيعة فقال :

(نحن ولينا البيت بعد جرهم ... نعمره من كل باغ ملحد)

و لما انحاز عامر بن الحرث مع بقية جرهم عن الحرم عند استيلاء خزاعة عليه خرج بغزالي الكعبة و حجر الركن يلتمس التوبة و هو يقول :

(لاهم إن جرهما عبادك ... الناس طرف و هم تلادك)

فلم تقبل توبته فألقى غزالي الكعبة و حجر الركن في زمزم و دفنها و خرج ببقية جرهم و هو يقول :

(كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس و لم يسمر بمكة سامر)

(بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي و الدهور الغواير)

فلما رأى عامر بن الحرث الجرهمي ما صاروا إليه بعد الكثرة و القوة قال :

(يا أيها الناس سيروا إن قصركم ... أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا)

(كنا أناسا كما كنتم فغيرنا ... دهر فأنتم كما كنا تكونونا)

(خطوا المطى و أرخوا من أزمته ... قبل الممات و قضوا ما تقضونا)

فوليت خزاعة البيت و الحرم غير أنه كان في مضر من أمره ثلاث خلال

إحدهن : الدفع عن عرفة إلى المزدلفة كان إلى الغوث بن بزم و هو صرفه

الثانية : الإفاضة من مزدلفة إلى منى للنحر كان لزيد بن عدوان و آخر من أفضى إليه أبو سيارة

الثالثة : النسيء لشهور الحج كان للمتلمس من بني كنانة و آخر من أفضى إليه حتى جاء الإسلام : ثمانية بن عوف

فشركت مضر خزاعة في معالم الحج و إن كانت زعامة الحرم لخزاعة و قريش في أوزاع بني كنانة من مضر

زعامة الحج لقريش :

و أفضت معالم الحج من أوزاع من مضر إلى قريش فولأها منهم كعب ابن لؤي بن غالب و كان يجمع الناس في كل يوم جمعة و يخطب فيه على قريش فيأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يقول : حرمكم عظموه و تمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم و سيخرج منه نبي كريم و هو أول من فصح بالنبوة حين شاهد آثارها و عرف أسرارها من انقياد العرب إليهم تدبنا بجرمهم و إعظاما لكعبتهم و كان ذلك إلهاما هجست به نفسه و تخيلا صدق فيه حدسه لأن لكل خطب نذيرا و لكل مستقبل بشيرا و انتهضت خزاعة في الحرم إلى خليل بن الحبشية الخزاعي فكان يلي الكعبة و أمر مكة فتزوج إليه قصي بن كلاب فاشتد به قصي و كان اسمه زيد فلما هلك خليل رأى قصي أنه أولى بالولاية على الكعبة و أمر مكة من خزاعة فاستولى عليها

قصي يلي أمر الكعبة و مكة :

و اختلف في سبب استيلائه فقال قوم لأن خليلا أوصى إليه بذلك و قال آخرون بل اشتراه من آل خليل بزق من خمر و قال آخرون بل استنصر على خزاعة بأخيه لأمه رزاح بن ربيعة القضاعي حتى أجلي خزاعة عن مكة فخلصت الرئاسة لقصي فجمع قريشا و هم في أوزاع بني كنانة فمكنت بنو كنانة منهم فحاربهم بمن أطاعه حتى أفردهم منهم و جمعهم بمكة فسمي مجمعا و فيه يقول شاعرهم :

(أبونا قصي كان يدعى مجمعا ... به جمع الله القبائل من فهر)

قصي يقسم مكة بين قومه :

فلما اجتمعوا أنزلهم بطحاء مكة في الشعاب و رؤوس الجبال و قسمها بينهم أرباعا بين قومه و أنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها و كانت إليه الحجابة و السقاية و الوفادة و الندوة و اللواء و صارت سنته في قريش كالدين الذي لا يعمل بغيره فزادت القوة بجمعهم حتى عقد الولاية و جدد بناء الكعبة وهو أول من بناها بعد إبراهيم و إسماعيل و بنى دار الندو للتحاكم و التشاور و هي أول دار بنيت بمكة و كانوا بمكة و كانوا يجتمعون في جبالها

ثم بني القوم دورهم بها فتمهدت لهم الرئاسة و ظهرت فيهم السياسة فصاروا بها زعماء عبادة أنذرت بطاعة إلهية و ديانة نبوية توطئة لما جددده الله تعالى منها برسوله و تأسيسا لمبادئها فقاموا بالكعبة و نزهوا الحرم و تكفلوا بالحج فصاروا ديانا العرب و مولاة الحرم و قادة الحجيج و شاع ذلك في الأمم فحكى قوم من ديانا العرب أن جماعة من ملوك الفرس زاروا الكعبة بمكة و عظموها و حملوا إليها صنوف الثياب و أنواع الطيب و زمزموا و من معهم من الفرس عند بشر زمزم فلذلك سميت زمزم و استشهد قائل هذ بقول الشاعر :

(زمزمت الفرس على زمزم ... و ذاك في سالفه الأقدم)

من هم قريش ؟

و قريش هم ولد النضر بن كنانة بن خزيمه بن مدركة بن الياس بن مضر و قيل : بل هم بنو فهر بن مالك بن النضر فمن نسبهم إلى النضر فالأنه تفرقت قبائل بني كنانة و قيل كان يسمى قريشا و من نسبهم إلى فهر فالأن فهر في زمانه كان رئيس الناس بمكة و قصدها حسان بن عبد كلال في حمير و قبائل اليمن ليهدم الكعبة و ينقل أحجارها إلى اليمن ليبنيه بيتا باليمن يجعل حج الناس إليه فترل بنخلة و أغار على سرح مكة فسار إليه فهر في كنانة و أحلافهم من قبائل مضر فانزمت حمير و أسر الحرث بن فهر حسان بن عبد كلال فبقي في يد فهر ثلاث سنين

أسيرا بمكة حتى فدى نفسه و خرج فمات بين مكة و اليمن فعظم بهذا الحرث شأن فهر فأغزت إليه قريش حين هي مكة و منع من هدم الكعبة و كانت من أشباه عام الفيل سبب تسمية قريش :

و اختلف في تسميتهم قريشا على أربعة أقاويل أحدها : لتجمعهم بعد التفريق و القرش التجمع و منه قول الشاعر :

(إخوة قرشوا الذنوب علينا ... في حديث من دهرهم و قديم)

و الثاني : لأنهم كانوا تجارا يأكلون من مكاسيهم و القرش التكسب :

و الثالث : لأنهم كانوا يفتشون الحاجة عند ذي الخلة فيسدون خلته و القرش التفتيش و منه قول الشاعر :

(أيها السامت القرش عنا ... عند عمرو فهل له إبقاء)

و الرابع أن قريشا اسن دابة في البحر من أقوى دوابه سميت بها قريش لقوتها لأنها تأكل و لا تؤكل و تعلقو لا تعلق : قاله ابن عباس و استشهد بقول الشاعر :

(و قريش هي التي تسكن البحر ... بها سميت قريش قريشا)

(سلطت بالعلو في لجة البحر ... على ساكني البحور جيوشا)

(تأكل الغث و السمين و لا ... تترك يوما لذي الجناحين ريشا)

(هكذا في البلاد حتى قريش ... يأكلون البلاد أكلا كشيشا)

(و لهم آخر الزمان نبي ... يكثر القتل فيهم و الخموشا)

(تملأ الأرض خيله و رجال ... يحشرون المطي حشرا كميشا)

سبب تسمية مكة :

و هذا من هواجس النفوس للخبرة و آيات العقول المنذرة

فأما مكة فلها اسمان مكة و بكة و قد جاء القرآن بهما و اختلف في الاسمين هل هما لمسمى واحد أو لمسمين على قولين :

أحدهما : إنه لمسمى واحد لأن العرب تبدل الميم بالباء فيقولون ضرية لازم و لازب لقرب المخرجين

و القول الثاني : و هو أشبه أنهما اسمان لمسمين و اختلف من قال بهذا في السمي منهما على قولين أحدهما أن مكة

اسم البلد و بكة اسم البيت و هذا قول إبراهيم النخعي و القول الثاني : أن مكة الحرم كله و هذا قول زيد بن

أسلم فأما مكة فمأخوذة من قولهم تمككت المخ إذا استخرجته لأنها تمك الفاجر أي تخرجه قال الشاعر :

(يا مكة الفاجر مكى مكا ... و لا تمكى مذحجا و عكا)

و أما بكة قال الأصمعي سميت بذلك لأن الناس يبك بعضهم بعضا أي يدفع و أنشد قول الشاعر :

(إذا الشريب أخذته بكة ... فخله حتى يبك بكة)

رئاسة قريش تفضي لعبد مناف :

ثم أفضت رئاسة قريش بعد قصي إلى ابنه عبد مناف بن قصي فجاد و زاد و ساد حتى قال فيه الشاعر :

(كانت قريش بيضة فتفقأت ... فالبح خالصه لعبد مناف)

و كان اسمه المغيرة فدفعته أمه إلى مناف و كان أعظم أصنام مكة تعظيما له فغلب عليه عبد مناف و كان يسمى

القمر لجماله فاستحكمت رياسته بعد أبيه لجوده و سياسته ثم بنيه فولد له هاشم و عبد شمس توأمان في بطن فقيل

إنه ابتداءً خروج أحدهما و إصبعه ملصقة بجهة الآخر فلما أزيلت دمي موضعها فليل يكون بينهما دم
هاشم يسود قريش :

ثم ولد بعدهما نوفل ثم المطلب و كان أصغرهم فسادوا و تقدمهم هاشم لسخائه و سؤدده و كان اسمه عمرا فسمي
هاشما لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة في سنة لزية قحطة رحل فيها إلى فلسطين فاشترى منها الدقيق و قدم به
إلى مكة و نحر الجزر و جعلها ثريدا عم به أهل مكة حتى استقلوا فقال فيه الشاعر :

(يا أيها الرجل الخول رحله ... هلا نزلت بآل عبد مناف)

(الآخذون العهد من آفاقها ... و الراحلون لرحلة الإيلاف)

(و الرايشون و ليس يوجد رايش ... و القائلون هلم للأضياف)

(و الخالطون غنيهم ... بفقرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي)

(عمرو العلاء هشم الثريد لقومه ... و رجال مكة مسنتون عجاف)

هاشم سن رحلي الشتاء و الصيف :

و هاشم أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء و رحلة الصيف و أراد أمية بن عبد شمس أن يتشبه بهاشم في
صنيعة فعجز عنه فشمت به ناس كثير من قريش فقال فيه وهب بن عبد قصي :

(تحمل هاشم ما ضاق عنه ... و أعيا أن يقوم به بريص)

(أتاهم بالغرائر مقلات ... من الشام بالبر البغيض)

(فأوسع أهل مكة من هشيم ... و شاب اللحم باللحم العريض)

العداوة بين أمية و هاشم :

و نشبت العداوة بين أمية و هاشم و أراد منافرتة فكره هاشم ذلك لنسبه و قدره فلم تدعه قريش حتى نافره إلى
الكاهن الخزاعي في خمسين ناقه سود الحدق ينحرها ببطن مكة و الجلاء من مكة عشر سنين فنفر الخزاعي هاشما و
قال لأمية : تنافر رجلا هو أطول منك قاما و أعظم منك هامة و أحسن منك و سمة و أقل منك لامة و أكثر منك
ولدا و أجزل منك صفرا

فقال أمية : من انتكاث الزمان أن جعلناك حكما فأخذ هاشم الإبل فنحرها و أطعمها من حضره و خرج أمية إلى
الشام فأقام بها عشر سنين

فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم و أمية و ملك هاشم الوفادة و السقاية و استقرت له الرياسة و صارت
قريش له تابعة تقاد لأمره و تعمل برأيه و تنافرت قريش و خزاعة إليه فخطبها بما أذعن له الفريقان بالطاعة فقال في
خطبته :

خطبة هاشم :

أيها الناس نحن آل إبراهيم و ذرية إسماعيل و بنو النضر بن كنانة و بنو قصي بن كلاب و أرباب مكة و سكان
الحرم لنا ذروة الحسب و معدن الجند و لكل في كل حلف يجب عليه نصرته و إجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق
عشيرة و قطع رحم

يا بني قصي أنتم كغصني شجرة أيهما كسر أو حش صاحبه و السيف لا يصابن إلا بغمده و رامي العشيرة يصيبه
سهمه و من أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغي

أيها الناس الحلم شرف و الصبر ظفر و المعروف كنز و الجود سؤدد و الجهل سفه و الأيام دول و الدهر غير و

المرء منسوب إلى فعله و مأخوذ بعمله فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد و دعوا الفضول تجانبكم السفهاء و
أكرموا الجليس يعمر ناديتكم و حاموا الخليط يرغب في جواركم و أنصفوا من أنفسكم يوثق بكم و عليكم بمكارم
الأخلاق فإنها رفعة و إياكم و الأخلاق الدينية فإنها تضع الشرف و تهدم الجدا و إن نهضة الجاهل أهون من
حزيرته و رأس العشير يحمل أثمها و مقام الحليم عظة لمن انتفع به
فقلت قريش : رضىنا بك أبا نضلة و هي كنيته فانظروا إلى ما أمر به من شريف الأخلاق و نهي عنه من مساوئ
الأفعال هل صدر إلا عن عزارة فضل و جلالة قدر و علو همة ؟ و ما ذاك إلا لا صطفاء يراد و ذكر يشاد لأن
توالي ذلك في الآباء يوجب تنهيه في الأبناء
عبد المطلب يحل محل هاشم :

و مات هاشم بغزة من أرض الشام و هو أول من مات من ولد عبد مناف ثم مات عبد شمس بمكة فقبر بأجياد ثم
مات نوفل بسلمان من طريق العراق و مات المطلب برمان من أرض اليمن و كان هاشم قد تزوج يثرب من
الخزرج بسلمي بنت عمرو النجارية فولدت له يثرب عبد المطلب و كان اسمه شيبه الحمد و نشأ فيهم حتى مات
أبوه هاشم و انتقلت عنه الرياسة و الوفادة و السقاية إلى أخيه المطلب و وصف له شيبه يثرب فخرج فاستنزل أمه
عنه حتى أخذه منها و دخل به مكة مردفا له فقلت قريش من هذا ؟ فقال : عبدي فسمي عبد المطلب إلى أن مات
فوثب عليه عمه نوفل بن عبد مناف في ركح كان له فاغتصبه إياه و الركح الساحة فسأل عبد المطلب رجالات
قومه النصره عى عمه فقالوا : لسنا داخلين بينك و بين عمك فلما رأى عبد المطلب ذلك كتب إلى أخواله من بني
النجار يقول :

(يا طول ليلى لأشجاني و أشغالي ... هل من رسول إلى النجار أخوالي)

(بيني عديا و دينارا و مازنها ... و مالكا عصمة الجيران عن حالي)

(و كنت ما كنت حيا ناعما جذلا أمشي الغضبية سحبا لأذيالي)

(حتى ارتحلت إلى قومي و أزعجني عن ذاك مطلب عمي بترحالي)

(فغاب مطلب في قعر مظلمة و قام نوفل كي يعدو على مالي)

(أن رأى رجلا غابت عمومته و غاب أخواله عنه بلا والي)

(أنحى عليه و لم يحفظ له رحما ما أمتع المرء بين العم و الخال)

(فاستنفروا و امنعوا ضيم ابن أختكم ... لا تتخذوه و ما أنتم بخذالي)

(ما مثلكم في بني قحطان قاطبة حي لجار و إنعام بإفضال)

(أنتم كيان لمن لانت عريكته سلم لقوم و سماح الأبلج العالي)

فقدم عليه ثمانون راكبا من بني النجار و نصره على عمه نوفل و ارتجعوا منه الركح و عادوا و قد اشتد بهم عبد
المطلب فدعا ذلك نوفلا أن حالف بني عبد شمس على عبد المطلب و بني هاشم و دعا ذلك عبد المطلب على أن
حالف بني هاشم على نوفل و بني عبد شمس فقوي عبد المطلب و ضعف نوفل

و انتقلت السقاية و الوفادة و الرياسة إلى عبد المطلب و أخذ نوفل عهدا من أكاسرة العراق و صارت رحلته إليها
و أخذ عبد المطلب عهدا من ملوك الشام و أقيال حمير باليمن و صارت رحلته إليها و حفر عبد المطلب حين قوي
و اشتد بئر زمزم و أخرج منها ما كان ألقاه فيها عامر بن الحرث الجرهمي من غزالي الكعبة و حجر الركن فضرب
الغزالي صفائح ذهب على باب الكعبة و وضع الحجر في الركن

و صار عبد المطلب سيدا عظيم القدر مطاع الأمر نحيب النسل حتى مر به أعرابي و هو جالس في الحجر و حوله بنوه كالأسد فقال : إذا أحب الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء فأنشأ الله لهم بالنبوة دولة خلد بها ذكركم و رفع لها قدرهم حتى سادوا الأنام و صاروا الأعلام و صار كل من قرب إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم من آياته أعظم رياسة و تنوها و أكثر فضلا و تألها عبد المطلب ينذر نذرا خطيرا :

فحكى الزهري و يزيد بن رومان و صالح بن كيسان أن المطلب بن هاشم نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكور و رأيهم بين يديه رجالا إن ينحر أحدهم للكعبة شكرا لربه حين أعلم أن إبراهيم أمر بذبح ولده تصورا من أنه أفضل قرابة فلما استكمل ولده العدد و صاروا له من أظهر العدد قال لهم : يا بني كنت نذرت نذرا علمتموه قبل اليوم فما تقولون ؟ قالوا : الأمر لك و إليك و نحن بين يديك فقال : لينطلق كل واحد منكم إلى قدحه و ليكتب عليه اسمه ففعلوا ثم أتوا بالقداح فأخذها و جعل يرتجز و يقول :

(عاهدته و أنا موف عهده ... و الله لا يحمد شيء حمده)

(إذ كان مولاي و كنت عبده ... نظرت نظرا لا أحب رده)

(و لا أحب أن أعيش بعده)

ثم دعا بالأمين الذي يضرب بالقداح فدفع إليه قداحهم و قال : حرك و لا تعجل و كان أحب ولد عبد المطلب إليه عبد الله فضرب صاحب القداح السهم على عبد الله فأخذ عبد المطلب الشفرة و أتى بعبد الله و أضجعه بين أساف و نائلة و أنشأ مرتجزا يقول :

(عاهدته و أنا موف نذره ... و الله لا يقدر شيء قدره)

(هذا بني قد أريد نحره ... و أن يؤخره يقبل عذره)

و هم بذبحه فوثب إليه ابنه أبو طالب و كان أخا عبد الله لأبيه و أمه و أمسك يد عبد المطلب عن أخيه و أنشأ مرتجزا يقول :

(كلا و رب البيت ذي الأنصاب ... ما ذبح عبد الله بالتلعاب)

(يا شيب إن الريح ذو عقاب ... إن لنا جرة في الخطاب)

(أخوال صدق كأسود الغاب)

فلما سمعت بنو مخزوم هذا من أبي طالب — و كانوا أخواله — قالوا : صدق ابن أختنا و وثبوا إلى عبد المطلب فقالوا : يا أبا الحرث إنا لا نسلم ابن أختنا للذبح فاذبح من شئت من ولدك غيره فقال : إني نذرت نذرا و قد خرج القدح و لا بد من ذبحه قالوا : كلا لا يكون ذلك أبدا و فينا ذو روح و إنا لنفديه بجميع أموالنا من طارف و تالد و أنشأ المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم مرتجزا يقول :

(يا عجبا من فعل عبد المطلب ... و ذبحه ابنا كتمثال الذهب)

(كلا و بيت الله مستور الحجب ... ما ذبح عبد الله فينا باللعب)

(فدون ما يبغي خطوط تضطرب)

ثم وثب السادات من قريش إلى عبد المطلب فقالوا : يا أبا الحرث إن هذا الذي عزمتم عليه عظيم و إنك إن ذبحت ابنك لم تتهن بالعيش من بعده و لكن لا عليك أنت على رأس أمرك تتبت حتى نسير معك إلى كهنة بني سعد فما أمرتك من شيء فامتثله فقال عبد المطلب لكم ذلك و كانوا يرون الكهانة حقا ثم خرج في جماعة من بني مخزوم نحو

الشام إلى الكاهنة فلما دخلوا عليها أخبرها عبد المطلب بما عزم عليه من ذبح ولده وارتجز يقول :

(يا رب إني فاعل لما ترد ... إن شئت ألهمت الصواب والرشد)

(يا سائق الخير إلى كل بلد ... قد زدت في المال و أكثرت العدد)

فقالت الكاهنة : انصرفوا عني اليوم فانصرفوا و عادوا في الغد فقالت : كم دية الرجل عنكم ؟ قالوا : عشرة من

الإبل قالت : فارجعوا إلى بلدكم و قدموا هذا الغلام الذي عزمتم على ذبحه و قدموا معه عشرة من الإبل ثم
اضربوا عليه و على الإبل القداح فإن خرج القدح على الإبل فانحروها و إن خرج على صاحبكم فزيدوا في الإبل
عشرة عشرة حتى يرضى ربكم

فانصرف القوم إلى مكة و أقبلوا عليه يقولون : يا أبا الحارث إن لك في إبراهيم أسوة فقد علمت ما كان من عزمه

في ذبح ابنه إسماعيل و أنت سيد ولد إسماعيل فقدم مالك دون ولدك

فلما أصبح عبد المطلب غدا بابنه عبد الله إلى الذبح و قرب معه عشرة من الإبل ثم دعا بأمين القداح و جعل لابنه

قدحا و قال : اضرب ولا تعجل فخرج القدح على عبد الله فجعلها عشرين فضرب فخرج القدح على عبد الله

فجعلها ثلاثين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها أربعين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها خمسين

فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها ستين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها سبعين فضرب فخرج

القدح على عبد الله فجعلها ثمانين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها تسعين فضرب فخرج القدح على

عبد الله فجعلها مائة و ضرب فخرج القدح على الإبل فكبر عبد الله و كبرت قريش و قالت : يا أبا الحارث إنه قد

أنهى رضاء ربك و قد نجا ابنك من الذبح فقال : لا و الله حتى أضرب عليه ثلاثا فضرب الثانية فخرج على الإبل

فضرب الثالثة فخرج على الإبل فعلم عبد المطلب أنه قد أنهى رضاء ربه في فداء ابنه فارتجز يقول :

(دعوت ربي مخلصا و جهرا يا رب لا تنحر بني نحرا)

(و فاد بالمال تجد لي و فرا أعطيك من كل سوام عشرا)

(عفوا و لا تشمت عيوننا حزرا بالواضح الوجه المغشى بدرا)

(فالحمد لله الأجل شكرا ... فلست و البيت المغطى سترا)

(مبدلا نعمة ربي كفرا ... ما دمت حيا أو أزور القبرا)

ثم قربت الإبل و هي مائة من جملة إبل عبد المطلب فنحرت كلها فداء لعبد الله و تركت في مواضعها لا يصد عنها

أحد يتناولها من دب و درج فجرت السنة في الدية بمائة من الإبل إلى يومنا هذا و انصرف عبد المطلب بابنه عبد

الله فرحا فكان عبد الله يعرف بالذبيح

محمد ابن الذبيحين :

و لذلك قال النبي صلى الله تعالى عليه و سلم : [أنا ابن الذبيحين يعني إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام و أباه

عبد الله بن عبد المطلب] و هذا من صنع الله تعالى لرسوله لما قدره من رسالته و قضاه من آيات نبوته فما يخلو نبي

من بلوى منذرة و لا ملك من بلية زاجرة

كتاب : أعلام النبوة
المؤلف : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي

الأنبياء مبتلون

هذا سليمان بن داود عليهما السلام و قد أعطاه الله مع النبوة ملكا لا ينبغي لأحد من بعده و سأل الله تعالى الحكمة فأعطاه قلبا عليمًا و فهما سليما حتى وضع ثلاثة آلاف مثل قذبت بها أخلاق قومه و استقامت بها سيرة ملكه بعد أن سخرت له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب و سخرت له الشياطين يعملون له ما يشاء من محاريب و تمائيل و جفان كالجواب

و ذكر في سيرته أنه كان نزل في كل يوم من دقيق السميد ثلاثين كرا و من غير السميد كرا و ارتفاقه في كل سنة ستة و ثلاثين ألف ألف و ثلاثة و ثلاثين ألف ألف و ثلاثمائة ألف مثقال و كان له ألف و أربعمائة قبل متفرقة في القرى و ملك أربعين سنة كأبيه داود فابتلاه الله تعالى في أثناء ملكه بعد عشرين سنة منه ما حكاه الله تعالى في كتابه بقوله { و لقد فتنا سليمان و ألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب } و في فتنته قولان :

أحدهما : أن سليمان سبي بنت مالك غزاه في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيلوت فألقيت عليه محبتها و هي معرضة عنه تذكر لأبيها لا تنظر إليه إلا شزرا و لا تكلمه إلا تررا ثم إنما سألته أن يصنع لها تمثالا على صورته فأمر به فصنع لها فعظمته و سجدت له و سجد معها جواريه و صار صنما معبودا في داره و هو لا يعلم به حتى مضت أربعون يوما و فشا خبره في بني إسرائيل و علم به سليمان فكسره ثم حرقه ثم ذراه في الريح هذا قول شهر بن حوشب

و الثاني : إن الله تعالى قد جعل ملك سليمان في خاتمه فقال : لآصف — و هو شيطان اسمه آصف الشياطين — و كيف تصلون الناس ؟ فقال له الشيطان : أعطني خاتمك حتى أخبرك فأعطاه خاتمه فألقاه في البحر حتى ذهب ملكه و هذا قول مجاهد

و في الجسد الذي ألقى على كرسيه قولان : أحدهما : أنه شيطان الذي ألقى خاتم سليمان في البحر جلس على كرسي سليمان متشبهًا بصورته يقضي بغير الحق و يأمر بغير الصواب

و الثاني : أكثر من غشي جواريه طلبا للولد فولد له نصف إنسان فكان هو الجسد الملقى على كرسيه و زال عن سليمان ملكه فخرج هاربا إلى ساحل البحر يتضيئ الناس و يحمل سموك الصيادين بالأجر و إذا أخبر الناس أنه سليمان كذبوه إلى أن أخذ حوته من صياد قيل إنه استطعمها و قيل بل أخذها أجرا فلما شق بطنها و جد خاتمه في جوفها و ذلك بعد أربعين يوما من زوال ملكه عنه و هي عدة الأيام التي عبد فيها الصنم في داره فسجد الناس له حين عاد الخاتم إليه

و قال يحيى بن أبي عمر : وجد خاتمه بعسقلان فمشى فيها إلى بيت المقدس تواضعا لله و في ثم أناب تأويلان :

أحدهما ثم رجع إلى ملكه قاله الضحاك

و الثاني : ثم أناب من ذنبه قاله قتادة و بقي في ملكه بعد فتنته عشرين سنة استكمل بها الأربعين و هي مدة الأربعين التي زال ملكه فيها

بلوى الملك يختصر :

و أما بلوى الملوك : فإن يختصر كان ملكه طبق عمارة الأرض حتى ملك الأقاليم السبعة و دانت له ملوك الأمم و أدوا إليه خراج بلادهم فطغى قلبه و شمع أنفه فداخلته العزة و اعتقد أن أمم الخلق قد صاروا عبيدا له و خولا و أن ملوك الأرض دانت بطاعته خوفا و رهبا

فغضب الله تعالى عليه و سلبه عزة سلطانه و سطوته و أزال عنه هيئته و قدرته و جعل قلبه مثل قلوب الحيوان فانخط عن سرير ملكه و نفاه أعوانه عنهم فسكن الفلوات يأكل حشيشها و ابتل جسمه من قطر السماء حتى طال شعره و صارت أطافره كمخالب الطير حتى حال سبعة أحوال و هو في سكرة لا يدري الناس إلا أنه كنوع من الحيوان الذي في صورة البشر إلى أن استنقذه الله تعالى من كربه فثاب إليه عقله و راجعه تمييزه فرجع يبصره إلى السماء معظما لله تعالى و مستجيرا به و معترفا أن لا سلطان إلا له يؤتیه من يشاء و ينزعه ممن يشاء فطلبه قواده ليردوه إلى سلطانه حتى وجدوه فأعادوه إلى دار عزه و أجلسوه على سرير ملكه فعاد إلى خوف الله تعالى و مراقبته و إلى ما كان عليه من جميل سيرته و استناب دانيال النبي في خلافته و تدبير ملكه إلى أن مضى لسبيله بعد إحدى و خمسين سنة من ملكه و دانيال على خلافته

بلوى كسرى ابرويز :

و منهم من ملوك الفرس كسرى ابرويز : بلغ في الملك مبلغا عظيما و كان في قصره اثنا عشر ألف جارية منهم للاستماع ثلاثة آلاف جارية و باقيهن للغناء و الخدمة و كان في داره ثلاثة آلاف رجل يقومون بخدمته و كان له ألف فيل إلا فيلا و من الخيل و البغال خمسون ألف رأس منها لمركبة ثمانية آلاف و خمسمائة و أمر أن يحصى ما اجتبى من خراج بلاده سنة ثمان عشرة من ملكه فكان ستمائة ألف ألف درهم و عدد على ابنه شيرويه بعد قبضه عليه أنه قال : أمرنا في سنة ثلاثين ملكنا بإحصاء ما في بيوت أموالنا سوى ما أمرنا بعزله لأرزاق الجند و كان من الورق أربعمائة ألف بدره يكون فيها ألف ألف ألف مثقال و ستمائة ألف ألف مثقال سوى ما أفاءه الله تعالى علينا و زادنا من أموال ملوك الروم في سفن أقبلت بها الريح إلينا قسمناه في الرياح و لم تزل ترداد أموالنا إلى سنتنا هذه و هي سنة ثمان و ثلاثين من ملكنا و فيها قبض عليه ابنه حتى قتله و قد ذكر له ما جمع لأنه استطال و احتقر الناس فانظر أيها المعتبر بعقله في صنع الله تعالى و قدرته فمن يتبليه اختبارا أو يبلوه ازدجارا هل لما قضاه من دافع و فيما ابتلاه من مانع إلا بلطف منه يؤتیه من يشاء و هو القوي العزيز

طهارة مولد محمد عليه السلام :

و أما طهارة مولده فإن الله تعالى استخلص رسوله من أطيب المناكح و حماه من دنس الفواحش و نقله من أصلاب طاهرة إلا أرحام طاهرة و قد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه في تأويل قول الله تعالى { وتقلبك في الساجدين } أي تقلبك من أصلاب طاهرة من أب بعد أب إلى أن جعلتك نبيا و قد كان نور النبوة في آبائه طاهرا حكى أن كاهنة بمكة يقال لها : فاطمة بنت مر الحثعمية قرأت الكتب فمر بها عبد المطلب و معه ابنه عبد الله يريد أن يزوجه آمنة بنت وهب فرأت نور النبوة في وجه عبد الله فقالت : هل لك أن تغشاني و تأخذ مائة من الإبل ؟ فعصمه الله تعالى من إجابتها و قال لها :

(أما الحرام فالملكات دونه ... و الحل لا حل فاستبينه)

(فكيف بالأمر الذي تبغينه)

فلما تزوجت به آمنة و حملت منه رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قال لها : هل لك فيما قلت ؟ فلم تر ذلك النور في وجهه فقالت له : قد كان ذلك مرة فاليوم لا ماذا صنعت ؟ فقال : زوجني أي آمنة بنت وهب الزهرية

فقلت : قد أخذت النور الذي كان في وجهك و أنشأت تقول :

(و الآن قد ضيعت ما كان ظاهرا ... عليك و فارقت الضياء المبارك)

(غدوت علي خاليا فبدلته ... لغيري هنيا فالحقن بنسائك)

(و لا تحسبن اليوم أمس و ليتني ... رزقت غلاما منك في مثل حالكا)

و داخلها الأسف على ما فاتها و الحسرة على ما تولى عنها فحسدت آمنة على ما صار لها فأنشأت تقول :

(إني رأيت مخيلة نشأت ... فتألأت كتألؤ الفجر)

(و لما بها نور يضيء به ... ما حولها كإضاءة البدر)

(و رأيتها متبينا شرفا ... ما كل قاذح زنده يوري)

(لله ما زهرية سلبت ... ثوبك ما استلبت و ما تدري)

و أنذرت به بني هاشم فقلت :

(بني هاشم قد غادرت من أحيكم ... أمينة إذ للباه يعتلجان)

(كما غادر المصباح بعد هموده ... فتائل قد ميث له بدهان)

(و ما كل ما يحوي الفتى من بلاد ... هم بحزم و لا ما فاته لئوان)

(فاجمل إذا طالبت مرأ فإنه ... سيكفيكه جدان يعتلجان)

(و لما حوت منه أمينة ما حوت ... منه فخارا ما لذلك ثان)

(سيكفيكه إما يد منغلة ... و إما يد مبسوطة لبنان)

و هذا من آيات الله تعالى في رسوله أن عصم أباه حين كان في ظهره أن يضعه من سفاح حتى وضعه من نكاح ثم زالت العصمة بعد وضعه حتى عرض بالطلب بعد أن كان مطلوباً و رغب فيه بعد أن كان مرغوباً ثم لم يشركه في ولادته من أبويه أخ و لا أخت لانتهاء صفوتهما إليه و قصور نسبهما عليه ليكون مختصاً بنسب جعله الله تعالى للنسب غاية و لفردته بما آية فيزول عنه أن يشارك فيه و يماثل به فلذلك مات أبواه عنه في صغره فأما أبوه عبد الله فمات عنه بمكة وهو حمل و أما آمنة فماتت عنه بالمدينة و هو ابن ست سنين لأنها رحلت إليها لزيارة أخوالها من بني النجار فماتت بها عندهم

و إذا خبرت حال نسبه و عرفت طهارة مولده علمت أنه سلالة آباء كرام سادوا و رأسوا لأنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان ليس في آبائه حامل مسترذل و لا مغمور مستذل كلهم سادة قادة وهم أخص الناس بالمناكح الطاهرة حتى تخرجوا من نكاح الحارم و إن استباحه غيرهم من العرب حتى حكي أن حاجب بن زرارة و هو سيد بني تميم نكح بنته و أولدها و قد كان سماها و

دختوس باسم بنت كسرى و قال فيها حين نكحها مر تجزا :

(يا ليت شعري عنك دختوس ... إذا أتالها الخبر المرموس)

(أتسحب الذيلين أم تيس ... لا بل تيس إنما عروس)

و هذا في قريش من الفواحش و في التوراة أن لوطاً نكح بنتين له فولدتا غلامين و لهما ذرية كبيرة و لوط هو ابن أخي إبراهيم الخليل و قد تزوج إبراهيم بنت أخيه سارة بنت هاران بن تارخ فتزهرت قريش من هذه المناكح حفظاً حرمة الأرحام الدانية أن تتهك بالمناكح العاهرة فتضعف الحمية و تقل الغيرة

إجابة عن اعتراض :

فإن قيل : يشارك الأنبياء في شرف النسب و طهارة المولد غيرهم فلم يستحق بهما النبوة
قيل : هما من شروط النبوة و إن استحققتا بغيرهما فلم يتمتع أن يكون لهما في النبوة تأثير معتبر و وصف مختبر

الباب التاسع عشر : في آيات مولده و ظهور بركته صلى الله تعالى عليه و

سلم

شواهد النبوة :

آيات الملك باهرة و شواهد النبوة قاهرة تشهد مبادئها بالعواقب فلا يلتبس فيها كذب يصدق و لا منتحل بمحق و
بحسب قوتها و انتشارها يكون بشائرها و إنذارها
أصحاب القيل :

و لما دنا مولد رسول الله تعالى صلى الله عليه و سلم تعاطرات آيات نبوته و ظهرت آيات بركته فكان من أعظمها
شأننا و أظهرها برهانا و أشهرها عيانا و بيانا أصحاب القيل أنفذهم النجاشي من أرض الحبشة في جمهور جيشه إلى
مكة لقتل رجالها و سبي ذراريها و هدم الكعبة
و اختلف في سببه فذكر قومه أن إبراهيم الصباح استولى على اليمن معتزيا إلى النجاشي فبنى بصنعاء اليمن كنيسة
لنصارى و استعان في بنائها بقيصر و النجاشي حتى بناها في تشييلها و حسننها ليعدل بالعرب عن حج الكعبة إليها
فأنكرته العرب و دخل هيكلها بعض بني كنانة من قريش فأحدث فيها
فكتب إلى النجاشي يستمده بالقيل و جيش الحبشة ليغزو قريشا و يهدم الكعبة فسار بهم و أخذ أبا رغال من
الطائف دليلا إلى مكة حتى أنزله بالمغمس و مات أبو رغال بالمغمس فدفن فيه فرجعت العرب قبره فهو المرجوم
بالمغمس

و قال آخرون بل سببه أن نفرا من تجار قريش مروا ببيعة للنصارى على شاطئ البحر فنزلوا بفنائها و أوقدوا نارا
لعمل طعامهم فاحترقت البيعة فأقسم النجاشي ليسين مكة و ليهدم الكعبة فأنفذ جيشه و القيل مع إبراهيم بن
الصباح و ابن مكسوم و حجر بن شراحيل و الأسود بن مقصود
من هم رؤساء أصحاب القيل :

و كان النجاشي هو الملك و أبرهة صاحب جيشه على اليمن و أبو مكسوم وزيره و حجر و الأسود من قواده
فساروا بالجيش مع القيل حتى نزلوا بذي الحجاز و تقدمهم الأسود بن مقصود فاستاق سرح مكة فقال فيه عبد الله
بن مخزوم :

(لا هم اخز الأسود بن مقصود ... الآخذ المهجمة بعد التقليد)

(و يهدم البيت الحرام المعبود ... و المروتين و المشاعر السود)

(اخزهم يا رب و أنت معبود)

الجيش الغازي يسلب أنعام مكة :

و كان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب و قد قلد بعضها فخرج و كان وسيما جسيما إلى أبرهة و سأل في أبله
فقال له إبرهة : قد كنت أعجبني حين رأيتك و قد زهدت الآن فيك قال و لم ؟ قال : جئت لأهدم الكعبة بيتا هو
دينك و دين آبائك فلم تسألني فيه و سألتني في إبلك فقال عبد المطلب : أنا رب إيلي و للبيت رب غيري سيمنعه

منك فقال أبرهة : ما كان ليمنعه مني و رد على عبد المطلب إبله مستهزئا ليعود فيأخذها

فأحرزها عبد المطلب في جبال مكة و أتى الكعبة فأخذ حلقة الباب و جعل يقول :

(يا رب إن المرء يمنع ... حله فامنع حلالك)

(لا يغلبن صليبيهم ... و محالهم أبدا محالك)

(إن كنت تاركهم ... و كعبتنا فأمر ما بدا لك)

(فلئن فعلت فإنه ... أمر يتم به فعالك)

(اسمع بارجس من أرا ... دوا العدو و انتهكوا حلالك)

(جروا جميع بلادهم ... و الفيل كي يسوا عيالك)

(عمدوا حماك بكيلهم ... جهلا و ما رقبوا جلالك)

جيش أبرهة يتقدم صوب مكة :

و توجه الجيش إلى مكة من طريق منى و القيل معهم إذا بعث على الحرم أحجم و إذا عدل عنه أقدم فوقعوا

بالمغمس فقال أبو الطيب بن مسعود في ذلك و قيل بل قاله عبد المطلب :

(إن آيات ربنا ساطعات ... ما يماري بها إلا الكفور)

(حبس الفيل بالمغمس حتى ... مر يعوي كأنه معقور)

طيور أبايل قماجم الجيش :

و بصر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر

فقال عبد المطلب إن هذه غريبة بأرضنا ما هي نجدية و لا قمامية و لا حجازية و إنما لأشباه العاسيب و كان في

مناقيرها و أرجلها حجارة فلما أظلت على القوم ألقته عليهم حتى هلكوا فأفلت من القوم أبرهة

و رجع إلى اليمن فمات في طريقه بعد أن كان يسقط من جسده عضو عضو حتى هلك و لما تأخر القوم عنهم و

استعجم خبرهم عليهم قال عبد المطلب :

(يا رب لا نرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حماكا)

(إن عدو البيت من عاداكا ... امنعهم أن يخربوا قراكا)

و بعث ابنه عبد الله ليأتيه بخبرهم فوجد جميعهم قد شذختهم الأحجار حتى هلكوا فعاد راكضا إلى عبد المطلب و

أصحابه و أخذوا أموالهم فكانت أول أموال بني عبد المطلب فأنشأ مرتجرا يقول :

(أنت منعت الجيش و الأفيالا ... و قد رعوا بمكة الأخيالا)

(و قد خشينا منهم القتالا ... و كل أمر لهم معضالا)

(شكرا و حمدا لك ذا الجلالا)

آية الرسول من قصة الفيل :

و آية الرسول صلى الله عليه و سلم من قصة الفيل : أنه كان في زمانه حملا في بطن أمه بمكة لأنه ولد بعد خمسين

يوما من الفيل و بعد موت أبيه في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول و وافق بين شهور الروم العشرين من

شباط في السنة الثانية عشرة من ملك هرمز بن أنوشروان

و حكى أبو جعفر الطبري أن مولده كان لاثنتين و أربعين سنة من ملك أنوشروان [فكانت آيته] في ذلك من

وجهين : أحدهما أنهم لو ظفروا لسبوا و استرقوا فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجري عليه السي حملا و

وليدا

و الثاني : أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم و ما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن أو قائل بالزندقة أو مانع من الرجعة و لكن لما أراد الله تعالى من ظهور الإسلام تأسيسا للنبوة و تعظيما للكعبة و أن يجعلها قبلة للصلاة و منسكا للحج مقارنة بين عمل أبرهة و عمل الحجاج :

فإن قيل : فكيف منع الكعبة قبل مصيرها قبلة و منسكا و لم يمنع الحجاج من هدمها و قد صارت قبلة و منسكا حتى أحرقها و نصب المنجنيق عليها فقال فيها على ما حكى عنه :

(كيف تراه ساطعا غباره ... و الله فيما يزعمون جاره)

و قال راميا بالمنجنيق :

(قطارة مثل الفنيق المربد ... أرمي بها أعواد كل مسجد)

قيل : فعل الحجاج كان بعد استقرار الدين فاستغنى عن آيات تأسيسه و أصحاب الفيل كانوا قبل ظهور النبوة فجعل المنع منها آية لتأسيس النبوة و مجيء الرسالة على أن الرسول قد أندر بدمها فصار انهدام آية فلذلك اختلف حكمها في الحالين و الله تعالى أعلم

تقيب العرب الحرم و أعظموه :

و لما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى بجيش الفيل تهيؤا الحرم و أعظموه و زادت حرمة في النفوس و دانت لقريش بالطاعة و قالوا : أهل الله قاتل عنهم و كفالة كيد عدوهم فزادوهم تشريفا و تعظيما و قامت قريش لهم بالوفادة و السدانة و السقاية

و الوفادة مال تخرجه قريش في كل عام من أموالهم يصنعون به طعاما للناس أيام منى فصاروا أئمة ديانين وقادة متبوعين و صار أصحاب مثالا في الغابرين

قصة عمر بن الخطاب مع العشار :

و روى هشام بن محمد الكلبي عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه خرج في الجاهلية تاجرا إلى الشام فمر بزنابع بن روح — و كان عشارا — فأساء إليه في اجتيازه و أخذ مكسه فقال عمر بعد انفصاله :

(متى ألف زنابع بن روح ببلدة ... إلى النصف منها يقرع السن بالندم)

(و يعلم أن من لؤي من غالب ... مطاعين في الهييجا مضاريب في التهم)

فبلغ ذلك زناباعا فجهز جيشا لغزو مكة فقبل له : إنما حرم الله ما أرادها أحد بسوء إلا هلك كأصحاب الفيل فكف زناباع فقال :

(تمنى أخو فھر لقاي و دونه ... قراطبة مثل الليوث الحواظر)

(فو الله لولا الله لا شيء غيره ... و كعبته راقا إليكم معاشر)

(لأقتل منكم كل كهل معمم ... و أسبي نساء بين جمع الأباعر)

فبلغ ذلك عمر رضوان الله تعالى عليه فأجابه و قال :

(ألم تر أن الله أهلك من بغى علينا قديما في قديم المعاشر)

(و أردى أبا مكسوم أبرهة الذياتانا مغيرا كالفنيق المخاطر)

(بجمع كثير يخرج العين وسطه على رأسه تاج على رأس باكر)

(فما راعنا من ذلك العبد كيده و كنا به من بين لاه و ساخر)
(وقال سابغي البيت هدماء و لا أرى ... بمكة ماش بين تلك المشاعر)
(فرداه رب العرش عنا رداءة و لم ينجه إعظامه بالمرائر)
(فأهلكه و التابعين له معا و أسري به من ناصر و مسامر)
(و ليس لنا فاعلم و ليس لبيتنا ... سوى الله من مولى عزيز و ناصر)
(فدونك زرنا تلقى مثل الذي لقوا جميعهم من درايعين و حاسر)

و كان شأننا الفيل رادعا لكل باغ و دافعا لكل طاغ و قد عاصر رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في زمن نبوته و بعد هجرته جماعة شاهدوا الفيل و طير الأبايل منهم : حكيم بن حزام و حاطب بن عبد العزى و نوفل بن معاوية لأن كل واحد من هؤلاء عاش مائة و عشرين سنة منها ستين سنة في الجاهلية و ستين سنة في الإسلام حمل الرسول و ولادته عليه السلام :

و لما حملت آمنة بنت وهب برسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم حدثت أنها أتيت فقيلا لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع على الأرض فقولى : أعيزه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمدا و رأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام

قالت أم عثمان بن العاص : شهدت ولادة آمنة برسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و كان ليلا فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور و إنني أنظر إلى النجوم تدنو و إنني أقول لتقعن علي و لما وضعته تركت عليه في ليلة ولادته جفنة فانقلبت عنه فكان من آياته إن لم تحوه و أرسلت إلى جده عبد المطلب أن قد ولد لك غلام فأتته فانظر إليه فأتاه و نظر إليه و حدثته بما رأت حين حملت به و ما قيل لها فيه و ما أمرت أن تسميه فقيلا إن عبد المطلب أخذه فدخل به على هبل في جوف الكعبة فقام عنده يدعو و يشكر بما أعطاه ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها و قال قد رأى فيه سمات الجد و ترسم فيه أمارات السؤدد و أن محمدا لن يموت حتى يسود العرب العجم و أنشأ يقول :

(الحمد لله الذي أعطاني ... هذا الغلام الطيب الأردان)

(أعيزه بالواحد المنان ... من كل ذي عيب و ذي شنان)

(حتى أراه شامخ البنيان)

قدوم المرضعات إلى مكة :

و لم يزل موفور البركة على كل لائذ به و كافل له فروى جهم بن أبي الجهم عن عبد الله بن جعفر قال : لما ولد رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قدمت حليلة بنت الحرث بن عبد العزى تلتمس الرضعاء في سنة شبية قالت و معنا شارف و الله ما يبض لنا بقطرة من لبن و معي بني لي منه و ما نجد في ثديي ما نعلله إلا أنا نرجو الغيث و كانت لنا غنم فنحن نرجوها

فلما قدمنا مكة لم يبق منا امرأة إلا عرض عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فلم تقبله و كرهناه ليطمه فأخذ كل صواحي رضعاء و لم أجد غيره فأخذته و أتيت به رحلي فوالله إن هو إلا ثبت في الرحل و أمسيت فأقبل ثدياي باللبن حتى أرويته و أرويت أخاه لبركة تصل إلى الناقة :

و قام أبوه إلى شارفنا تلك ليمسها بيده فإذا هي حافل فحلبها ما رواي من لبنها و روى الغلمان فقال : يا حليلة و الله لقد أصبنا نسمة مباركة

رجوع مرضعة النبي إلى بلدها :

ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا فركبت أتانى و حملته معي فو الذي نفس حليلة بيده لقد طقت بالركب حتى إن النسوة ليقلن : يا حليلة أمسكي عنا أهذه أتانك التي خرجت عليها ؟ قلت : نعم فقلت : و الله إني لأرجو من الله أن أكون قد حملت عليها غلاما مباركا قالت : فكان الله يريدنا به في كل يوم خيرا و إن غنما لتعود من الرعي بطانا حفلا و تعود غنم الناس خماسا جياعا شق صدر النبي عليه السلام :

قالت : فيينا هو يلعب خلف البيوت و أخوه في بهم لنا إذ أتاني أخوه يشتد فقال : إن أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثوبان أبيضان فأخذهما فأضجعهما و شقا بطنه فخرجت أنا و أبوه فوجدناه قائما قد انتفع لونه فلما رأنا أجهش إلينا باكيا قالت : فالتزمته أنا و أبوه و قلنا له : ما لك ؟ فقال : جاءني رجلان فأضجعاني فشقا بطني و صنعوا بي يلم رداه كما هو

قال أنس بن مالك : جاءه جبريل فصرعه فشق بطنه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ثم غسله ثم لأمه ثم أعاده مكانه قال أنس : قد كنت أنظر إلى أثر المحيط في صدره حليلة ترجع الطفل محمدا إلى أهله :

ثم إن زوج حليلة قال لها : يا حليلة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقه بأهله قبل أن يظهر به ذلك فاحتملته حليلة حتى قدمت به على أمه آمنه فقالت أمه : ما أقدمك به يا ظئر قالت : قد قضيت الذي علي و تخوفت الأحداث عليه فأدبته إليك كما تحبين

قالت : ما هذا شأنك فاصدقني فأخبرتها حليلة بحاله و قالت : تخوفت عليه الشيطان فقالت أمه : كلا و الله ما للشيطان عليه سبيل و إن له لشأنا و إني رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور بصرى و وقع حين ولدته و إنه لو اضع يده بالأرض رافع رأسه في السماء دعيه فانطلقى راشدة و في هذا الخبر من آياته ما تدعن النفوس بصحة نبوته

صيانة الله لحمد صلى الله عليه و سلم و هو غلام :

و روى محمد بن إسحق قال حدثني بعض أصحابنا : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قال : لقد رأيته و أنا غلام يقع بمكة مع غلمان قريش نحمل حجارة على أعناقنا و قد حملنا أزرنا فوطأنا على رقابنا إذ دفعني دافع ما أراه و قال : اشد عليك إزارك فشددت إزاري و هذا من نذر الصيانة ليكون عليها ناشئا و لها ألفا صيانة الله لحمد و هو يافع :

[و روى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم يقول : ما هممت بشيء مما كان في الجاهلية يعملون به غير مرتين كل ذلك يحول الله تعالى بيني و بين ما أريد

فإني قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت إلى غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها ما يسمر الشباب فقال : أدخل فخرجت أريد ذلك حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالدفوف و المزامير فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان بن فلان تزوج فلانة ابنة فلان فجلست أنظر إليهم فضرب الله على أذني فمتم فما أيقظني إلا مس الشمس قال : فجئت صاحبي فقال : ما فعلت ؟ فقلت : ما صنعت شيئا و أخبرته الخبر قال ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك فقال : افعل فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت و دخلت مكة تلك الليلة فجلست أنظر فضرب الله على أذني فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر

ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته]

فهذه أحوال عصمته قبل الرسالة و صده عن دنس الجهالة فاقضى أن يكون بعد الرسالة أعظم و من الأدناس أسلم كفى بهذه الحالة أن يكون من الأصفياء الخيرة إن أمهل و من الأتقياء البررة إن أغفل و من أكبر الأنبياء عند الله تعالى من أرسل مستخلص الفطرة على النظرة و قد أرسله الله تعالى بعد الاستخلاص و طهره من الأدناس فانفتحت عن قهم الظنون و سلم من ازدراء العيون ليكون الناس إلى إجابته أسرع و إلى الانقناد له أطوع قريش ترغب في تجديد بناء الكعبة :

ولما نشأ رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في قريش على أحمد هدى و صيانة و أكمل عفاف و أمانة سموه الأمين بعد اختباره و قدموه لفضله و وقاره و تشاوروا في هدم الكعبة و بنائها لقصر سمكها و كان فوق القامة و سعة حيطانها و كان يتهافت فأرادوا تجديدها و تعليتها و خافوا من الإقدام على هدمها و كان للكعبة كنز وجدوه عند دويك مولى لبني مليد بن خزاعة و أخذته قريش منه و قطعت يده و اقموا به الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أن يكون قد تولى أخذه و أودعه عند دويك فنافروه إلى كاهنة من كهان العرب فسجعت عليه من كهانتها : أن لا يدخل مكة عشر سنين بما استحل من حرمة الكعبة فكان يجول حول مكة حتى استوفى العشر

حية عظيمة منعت الهدم :

و كان يظهر في الكعبة حية يخاف الناس منها لا يدنو منها أحد إلا اخزألت و فتحت فهاها فتوقوها إلى أن علت ذات يوم على جدار الكعبة فسقط طائر فاخبطها فقالت قريش : إنا لرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا و كان البحر قد قذف سفينة على ساحل جدة لرجل من تجار الروم و كان بمكة نجار من القبط فهاهم تسقيف الكعبة بخشب السفينة لا تبني الكعبة إلا بمال طيب :

فلما أزمعوا على هدمها قام أبو وهب بن عمير و كان خال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ذا شرف و قدر فأخذ حجرا من الكعبة فوثب الحجر من يده حتى عاد في موضعه فقال : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيائنا من كسبكم إلا طيبا و لا تدخلوا فيها مهر بغي و لا بيع ربا و لا مظلمة أحد من الناس و تصورت قريش أن عود الحجر من يد أبي وهب إلى موضعه أن الله تعالى قد كره هدمها فهايوه بدء هدم الكعبة :

و قال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول و قام عليها و هو يقول : اللهم لا نريد إلا الخير ثم هدم الركنين فتربض الناس به تلك الليلة و قالوا : ننظر فإن أصيب لم نهدم و إن لم يصب هدمناها و قد رضي ما صنعنا فأصبح الوليد من ليلته و عاد إلى عمله و تحاصت قريش الكعبة فكان شق البيت لبني عبد مناف و زهرة و ما بين الركن الأسود و الركن اليماني لبني مخزوم و تيم و قبائل انضمت إليه من قريش و كان شق الحجر و الحطيم لبني عبد الدار و بني عبد العزى و بني عدي و كان ظهر الكعبة لبني جهم و بني سهم حتى انتهوا إلى الأساس فأفضوا إلى حجارة خضر قيل إنها كانت على قبر إسماعيل فضرخوا المعول بين حجرين فلما تحركا انفضت مكة بأسرها فكفوا و انتهوا إلى أصل الأساس

بدء بناء الكعبة :

و جمعت كل قبيلة حجارة ما هدمت و بنوا حتى انتهوا إلى ركن الحجر فتنازعت القبائل فيمن يضع الحجر في

موضعه من الركن فأقبلوا حتى مكثوا أربع ليال أو خمسا ثم اجتمعوا في المسجد فمشاوروا فقال أبو أمية بن المغيرة — وكان أمين قريش في وقته — : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول رجل يدخل من باب هذا المسجد فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : هذا محمد وهو الأمين فقالوا : قد رضينا به لما قد استقر في نفوسهم من فضله وأمانته فلما وصل إليهم أخبروه فقال : ائتوني ثوبا فأنتوه بثوب فأخذ الحجر و وضعه فيه بيده وقال : ليأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب و ليرفعوه جميعا ففعلوا فلما بلغ الحجر إلى موضعه وضعه فيه بيده فكان هذا الفعل من مستحسن أفعاله وآثاره و الرضاء به من أمارات طاعته و كان ذلك بعد عام القحار بخمس عشرة سنة و رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يومئذ ابن خمس و ثلاثين سنة فكان ذلك تأسيسا لما يريد الله تعالى به من كرامته و توطئة لقبول ما تحمله من رسالته و الله أعلم بمغيب ما استأثر من علمه

الباب العشرون — في شرفه أخلاقه و كمال فضائله صلى الله تعالى عليه وسلم

فضائل محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة قبل النبوة :
المهيأ لأشرف الأخلاق و أجمل الأفعال المؤهل لأعلى المنازل و أفضل الأعمال لأنها أصول تقود إلى ما ناسبها و وافقها و تنفرد مما باينها و خالفها و لا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى و عباده تبعث على مصالح الخلق و طاعة الخلق فكان أفضل الخلق بها أخص و أكملهم بشروطها أحق بها و أمس و لم يكن في عصر الرسول و ما داني طرفيه من قاربه في فضله و لا دانا في كماله خلقا و خلقا وقولا و فعلا و بذلك و صفه الله تعالى في كتابه بقوله : { وإنك لعلى خلق عظيم }
فإن قيل : فليست فضائله دليلا على نبوته و لم يسمع بني احتج بها على أمته و لا عول عليها في قبول رسالته لأنه قد يشارك فيها حتى يأتي بمعجز يخرق العادة فيعلم المعجز أنه نبي لا بالفضل
قيل : الفضل من أماراتها و إن لم يكن من معجزاتها و لأن تكامل الفضل معوز فصار كالمعجز و لأن من كمال الفضل اجتناب الكذب و ليس من كذب في ادعاء النبوة بكامل الفضل فصار كمال الفضل موجبا للصدق و الصدق موجبا لقبول القول فجاز أن يكون من دلائل الرسل
كمال خلق النبي صلى الله عليه وسلم :

فإذا وضح هذا فالكمال المعتبر في البشر يكون من أربعة أوجه :

أحدها : كمال الخلق و الثاني : كمال الخلق و الثالث : فضائل الأقوال و الرابع : فضائل الأعمال

فأما الوجه الأول في كمال خلقه بعد اعتدال صورته فيكون بأربعة أوصاف :

أحدها : السكينة الباعث على الهيبة و التعظيم الداعية إلى التقدير و التسليم و كان أعظم مهيب في النفوس حتى ارتاعت رسل كسرى من هيئته حين أتوه مع ارتياضهم بصولة الأكاسرة و مكاثرة الملوك الجابرة فكان في نفوسهم أهيب و في أعينهم أعظم و إن لم يتعاضم بأهبة و لم يتطاول بسطوة بل كان بالتواضع موصوفا و بالوطاء معروفا و الثاني : الطلاقة الموجبة للإخلاص و المحبة الباعثة على المصافاة و المودة و قد كان محبوبا و لقد استحكمت محبة طلاقته في النفوس حتى لم يقله مصاحب و لم يتباعد منه مقارب و كان أحب إلى أصحابه من الآباء و الأبناء و شرب البارد على الظمأ

و الثالث : حسن القبول الجالب لمائلة القلوب حتى تسرع إلى طاعته و تدعن بموافقته و قد كان قبول منظره

مستوليا على القلوب و لذلك استحكمت مصاحبتة في النفوس حتى لم ينفر منه معاند و لا استوحش منه مباعد إلا من ساقه الحسد إلى شقوته و قاده الحرمان إلى مخالفته
و الرابع : ميل النفوس إلى متابعته و انقيادها لموافقته و ثباته على شدائده و مصابرتة فما شذ عنه معها من أخلص و لا ند عنه فيها من تخصص

و هذه الأربعة من دواعي السعادة و قوانين الرسالة و قد تكاملت فيه فكمّل لما يوازيها و استحق ما يقتضيها
كمال أخلاق النبي صلى الله عليه و سلم :
و أما الوجه الثاني في كمال أخلاقه فيكون بست خصال :

إحداهن رجاحة عقله و صحة وهمه و صدق فراسته و قد دل على وفور ذلك فيه صحة رأيه و صواب تدبيره و حسن تألفه و أنه ما استفعل في مكيدة و لا استعجز في شديدة بل كان يلحظ الإعجاز في المبادي فيكشف عيوبها و يحل خطوبها و هذا لا ينتظم إلا بأصدق وهم و أوضح جزم
ثباته في الشدائد عليه السلام :

و الخصلة الثانية ثباته في الشدائد و هو مطلوب و صبره على البأساء و الضراء و هو مكروب و محروب و نفسه في اختلاف الأحوال ساكنة لا يجوز في شديدة و لا يستكين لعظيمة أو كبيرة و يقدر على الخلاص و هو بالشر لا يزداد إلا اشتدادا و صبرا و قد لقي بمكة من قريش ما يشيب التواصي و يهد الصياصي و هو من الضعف يصابر صبر المستعلي و يثبت ثبات المستولي

و روى حماد بن سلمة [عن ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قال : لقد أخفت في الله و ما يخاف أحد و لقد أوذيت في الله و ما يؤذي أحد و لقد أتت علي ثلاثون من بين يوم و ليلة و مالي و لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال]

و روى عبد الرحمن بن زيد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : ما شبع آل محمد من الشعر يومين حتى قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم

و من صبر على هذه الشدائد في الدعاء إلى الله تعالى امتنع أن يريد به الدنيا و قد زويت عنه و ما ذاك إلا لطلب الآخرة و مستحيل ممن كذب في ادعائه إليها أن يستوحشها أو كذب على الله تعالى أن يثاب بها زهده في الدنيا عليه السلام :

و الخصلة الثالثة زهده في الدنيا و إعراضه عنها و قناعته بالبلاغ منها فلم يمل إلى نضارتها و لم يله خلواتها
و روى سفيان الثوري [عن حبيب بن أبي ثابت عن خيشمة بن عبد الرحمن قال : قيل لرسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم إن شئت أعطيت خزائن الأرض ما لم يعط أحد قبلك و لا يعطاه أحد بعدك و لا يقضك في الآخرة شيئا قال : اجمعوها لي في الآخرة فنزلت : { تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا }]

و روى هلال بن أبي خباب [عن عكرمة عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه دخل على رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و هو على حصير قد أثر في جسمه فقال له : يا رسول الله لو اتخذت فراشا أوطأ من هذا فقال : ما لي و للدنيا و الذي نفسي بيده ما مثلي و مثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من النهار ثم راح و تركها]

و روى حميد بن بلال بن أبي بردة قال : أخرجت إلينا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا و إزارا غليظا و

قالت : قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في هذين

هذا و قد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار العراق و من أقصى اليمن إلى شجر عمان و هو أزهد الناس فيما يقتني و يدخر و أعراضهم عما يستفاد و يحتكر لم يخلف عينا و لا دينا و لا حفر نورا و لا شد قصرا و لم يورث ولده و أهله متاعا و لا مالا ليصرفهم عن الرغبة في الدنيا كما صرف نفسه عنها فيكونوا على مثل حاله في الزهد فيها و روى أبو سلمة [عن أبي هريرة قال : جاءت فاطمة عليها السلام الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه تريد الميراث فمنعها فقالت : من يرثك ؟ قال : ولدي و أهلي فقالت : فلا ترث رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بنته ؟ فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم يقول : إنا لا نورث ما تركنا فهو صدقة فمن كان رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم يعوله فأنا عوله و من كان رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ينفق عليه فأنا أنفق عليه]

و حث رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم على الزهد في الدنيا و الإعراض عن التلبس بما ليكون عوناً على السلامة من تبعاتها و صرف النفوس عن شهواتها

و روى عبد المطلب بن حاطب [عن أبي موسى الأشعري : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قال : من أحب دنياه أضرب آخرته فأثروا ما يبقى على ما يفي] و روى [عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : حب الدنيا رأس كل خطيئة]

و روى أبو حكيم [عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت و ماروت]

و روى عمرو بن مرة [عن أبي جعفر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود و هو يسعى لدار الغرور]

و روى عوف [عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم إنما مثل الدنيا كمثل الماشي على الماء هل يستطيع الذي يمشي على الماء أن لا تبتل قدماه ؟ !]

و هذه الدواعي و الوصايا ما اقتدى به خلفاؤه في زهده و انتقلوا بالأمر من بعده فكان أبو بكر رضوان الله عليه يتخلل عبادة له و هو خليفة فسمي : ذا الخلالين

و كان عمر رضي الله تعالى عنه يلبس مرقعة من صوف فيها رقاع من آدم و يطوف في الأسواق على عاتقه درة يؤدب بها الناس و يمر بالوى فيلقطه و يلقيه في منازل الناس حتى ينتفعوا به و يطوف وحده في الليل عسا و يتطلع غوامض الأمور تجسساً ليأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر

و كان عثمان رضي الله تعالى عنه يقوم الليل كله يختم القرآن في ركعة و جاد بماله و فدى الخلق بنفسه و قال : إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد و أشرب كما يشرب العبد

و اشترى علي رضي الله تعالى عنه و هو خليفة قميصاً بثلاثة دراهم و قطع كفه من موضع الرسغين و قال : الحمد لله الذي هذا من ريشه و لم يزل يأكل الخشن و يلبس الخشن و فرق الأموال حتى رش بيت المال و نام فيه و قال : يا صفراء يا بيضاء غري غيري

و حقيق بمن كان في الدنيا بهذه الزهادة حتى اجتذب أصحابه إليها أن لا يتهم بطلبها و يكذب على الله تعالى في ادعاء الآخرة بما و يقنع في العاجل و قد سلب الآجر بالميسور النزر و رضي بالعيش الكدر

و قد روى الزهري [عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم يقول في شهر رمضان : قلبي غداك المبارك و قالت : ربما لم يكن إلا قمرتين] و روى عبد الله بن مسلمة [عن مالك بن أنس أنه بلغه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم دخل المسجد فوجد أبا بكر و عمر رضي الله تعالى عنهما فسألهما فقال : ما أخرجكما فقالا : أخرجنا الجوع فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : و أنا أخرجني الجوع فذهبوا إلى أبي الهيثم بن التيهان فأمر له بحنطة أو شعير عنده يعمل و قام فذبح لهم شاة فقال له نكب عن ذات الدر و استعذب لهم ماء علق على نخلة ثم أوتوا بذلك الطعام فأكلوا منه و شربوا من ذلك الماء فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : لتسألن عن نعيم هذا اليوم ثم ملكوا الدنيا فرفضوها و اقتنعوا بالبلاغة فيها]

تواضعه عليه السلام :

و الخصلة الرابعة تواضعه للناس و هم اتباع و خفض جناحه لهم و هو مطاع يمشي في الأسواق و يجلس على التراب و يمتزج بأصحابه و جلسائه فلا يتميز عنهم إلا بإطرافه و حياته : فصار بالتواضع متميزا و بالتذلل متعززا و لقد دخل عليه بعض الأعراب فارتاع من هيئته فقال خفف عليك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة و هذا من شرف أخلاقه و كريم شيمه فهي غريزة فطر عليها و جبلة طبع بها و لم تندر فتعد و لم تحصر فتحد حلمه و وقاره عليه السلام :

و الخصلة الخامسة حلمه و وقاره عن طيش يهزه أو خرق يستفزه فقد كان أحلم في النفار من كل حليم و أسلم في الخصام من كل سليم و قد مني بجفوة الأعراب فلم يوجد منه نادرة و لم يحفز عليه بادرة و لا حليم غيره إلا ذو عسرة و لا وقور سواه إلا ذو هفوة فإن الله تعالى عصمه من نزع الهوى و طيش القدرة بهفوة أو عثرة ليكون بأمته رؤوفا و على الخلق عطوفا قد تناولته قريش بكل كبيرة و قصدته بكل جريرة و هو صبور عليهم و معرض عنهم و ما تفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم و لا أراذلهم دون عظمائهم بل تمالأ عليه الجلة و الدون فكلموا كانوا عليه من الأمر و ألح كان عنهم أعرض و أفصح حت قهر فغفا و قدر فغفر و قال لهم حين ظفر بهم عام الفتح و قد اجتمعوا إليه : ما ظنكم بي ؟ قالوا : ابن عم كريم فإن تعف فذاك الظن بك و إن تنتقم فقد أسأنا فقال : بل أقول كما قال يوسف لأخوته { لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين } قال صلى الله تعالى عليه و سلم : [اللهم قد أذقت أول قريش نكالا فأذق آخرهم نوالا]

و أته هند بنت عتبة و قد بقرت بطن عمه حمزة و لاكت كبده فصفح عنها و أعطها يده لبيعتهما فإن قيل : فقد ضرب رقاب بني قريظة صبرا في يوم أحد و هم نحو سبعمائة فأين موضع العفو و الصفح ؟ و قد انتقم انتقام من لم يعطفه عليهم رحمة و لا داخلته لهم رقة

قيل إنما فعل ذلك في حقوق الله تعالى و قد كانت بني قريظة رضوا بتحكيم سعد بن معاذ عليهم فحكم أن من جرت عليه الموسى قتل و من لم تجر عليه استرق فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم هذا حكم الله من فرق سبعة أرقعة فلم يجز أن يعفو عن حق و جب لله تعالى عليهم و إنما يختص عفوه بحق نفسه حفظه عليه السلام للعهد :

و الخصلة السادسة حفظه للعهد و وفاؤه بالوعد فإنه ما نقض لحافظ عهدا و لا أخلف لمراقب وعدا يرى الغدر من كبار الذنوب و الإخلاف من مساوئ الشيم فيلتزم فيها الأغلظ و يرتكب فيهما الأصعب حفظا لعهد و وفاء بوعده حتى يبتدئ معاهدوه بنقضه فيجعل الله تعالى له مخرجا كفعل اليهود من بني قريظة و بني النضير و كفعل

قريش بصلح الحديبية فجعل الله تعالى له في نكتهم الخيرة فهذه ست خصال تكاملت في خلقه فضله الله تعالى بها على جميع خلقه

فضائل أقوال النبي عليه السلام :

و أما الوجه الثالث في فضائل أقواله فمعتبر بشماني خصال :

إحداهن ما أتى من الحكمة البالغة و أعطي من العلوم الجملة الباهرة و هو أمة أمية لم يقرأ كتابا و لا درس علما و لا صحب عالما و لا معلما فأتى بما بهر العقول و أذهل الفطن من اتقان ما أبان و إحكام ما أظهر فلم يعثر فيه بزلل في قول أو عمل و جعل مدار شرعه على أربعة أحاديث أو جز بها المراد و أحكم بها الاجتهاد

أحدها : قوله : [إنما الأعمال بالنيات و إنما لكل امرئ ما نوى]

و الثاني قوله : [الحلال بين و الحرام بين و بين ذلك أمور مشتهيات و من يحم حول الحمى يوشك أن يقع فيه]

و الثالث قوله : [من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه]

و الرابع قوله : [دع ما يريبك إلى ما لا يريبك]

و قد شرع من تقدم من حكماء الفلاسفة سننا حملوا الناس على التدين بها حين علموا أنه لا صلاح للعالم إلا بدين ينقادون له و يعملون به فما راق لها أثر و لا فاق لها خبر و هم ينبوع الحكم و أعيان الأمم و ما هذه الفطرة في الرسول إلا من صفاء جوهره و خلوص مخبره

و الخصلة الثانية حفظه لما أطلعه الله تعالى عليه من قصص الأنبياء مع الأمم و أخبار العالم في الزمن الأقدم حتى لم يعزب عنه منها قليل و لا كثير و هو لا يضبطها بكتاب يدرسه و لا يحفظها بعين تحرسه و ما ذاك إلا من ذهن صحيح و صدر فسيح و قلب شريح و هذه الثلاثة آلة ما استودع من الرسالة و حمل من أعباء النبوة فجدير أن يكون بها مبعوثا و على القيام بها محثوثا

و الخصلة الثالثة إحكامه لما شرع بأظهر دليل و بيانه بأوضح تعليل حتى لم يخرج منه ما يوجب معقول و لا دخل فيه ما تدفعه العقول و لذلك قال صلى الله تعالى عليه و سلم :

[أوتيت جوامع الكلم و اختصرت لي الحكمة اختصارا] لأنه نبه بالقليل على الكثير فكف عن الإطالة و كشف عن الجهالة و ما تيسر ذلك إلا و هو عليه معان و إليه مفاد

و الخصلة الرابعة ما أمر به من محاسن الأخلاق و دعا إليه من مستحسن الأدب و حث عليه من صلة الأرحام و ندب إليه من التعطف على الضعفاء و الأيتام ثم ما نهى عنه من التباغض و التحاسد و كف عنه من التباعد فقال :

[لا تقاطعوا و لا تدابروا و لا تباغضوا و كونوا عباد الله إخوانا] لتكون الفضائل فيهم أكثر و محاسن الأخلاق بينهم أنشر و مستحسن الآداب عليهم أظهر و تكون إلى الخير أسرع و من الشر أمتع فيتحقق فيهم قول الله تعالى : { كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر } فلزموا أوامره و اتقوا زواجره فتكامل بهم صلاح دينهم و دنياهم حتى عز بهم الإسلام بعد ضعفه و ذل بهم الشرك بعد عزه فصاروا أئمة أبرارا و قادة أحيارا و الخصلة الخامسة وضوح جوابه إذا سئل و ظهور حججه إذا جودل لا يحصره عي و لا يقطعه عجز و لا يعارضه خصم في جدال إلا كان جوابه أوضح و حججه أرجح أنه أبي بن خلف بعظم نحر من المقابر قد صار رميما ففركه حتى صار كالرماد ثم قال : يا محمد أنت تزعم أنا و آباءنا نعود إذا صرنا هكذا لقد قلت قولا عظيما ما سمعناه من غيرك { من يحيي العظام وهي رميم } فأنطق الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه و سلم ببرهان نبوته فقال : { يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم } فانصرف مبهورا و لم يجر جوابا و لما قال عليه الصلاة و السلام

[لا عدوى و لا طيرة قال له رجل يا رسول الله إنا نرى النقبة من الجرب في مشفر البعير فيعدو سائرته قال : فمن أعدى الأول ؟ و أسكته]

و الخصلة السادسة أنه محفوظ اللسان من تحريف في قول و استرسال في خبر يكون إلى الكذب منسوبا و للصدق مجانباً فإنه لم يزل مشهوراً بالصدق في خبره فاشياً و كثيراً حتى صار بالصدق مرقوماً و بالأمانة مرسوماً و كانت قريش بأسرها تتيقن صدقه قبل الإسلام فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه فمنهم من كذبه حسداً و منهم من كذبه عنادا و منهم من كذبه استبعاداً أن يكون نبياً أو رسولا و لو حفظوا عليه كذبه نادرة في غير الرسالة لجعلوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة و من لزم الصدق في صغره كان له في الكبر ألزم و من عصم منه في حق نفسه كان في حقوق الله تعالى أعصم و حسبك بهذا دفعاً لجاحد ورداً للمعانيد

و الخصلة السابعة تحرير كلامه في التوخي به إبان حاجته و الاقتصار منه على قدر كفايته فلا يسترسل فيه هذراً و لا يحجم عنه حصراً و هو فيما عدا حالي الحاجة و الكفاية أجهل الناس صمتاً و أحسنهم سمناً و لذلك حفظ كلامه حتى لم يختل و ظهر رونقه حتى لم يعتل و استعذبه الأفواه حتى بقي محفوظاً في القلوب مدوناً في الكتب فلن يسلم الإكثار من ذل و لا الهذر من ملل

أكثر أعراي عنده الكلام فقال : يا أعراي كم دون لسانك من حجاب ؟ قال شفتاي و أسنني فقال صلى الله تعالى عليه و سلم : [إن الله يكره الانعاق في الكلام فنصر الله و جه امرئ قصر من لسانه و اقتصر على حاجته] و الخصلة الثامنة أنه أفصح الناس لساناً و أوضحهم بياناً و أوجزهم كلاماً و أجزهم ألفاظاً و أصحهم معاني لا يظهر فيه هجنة التكلف و لا يتخلله فيهقة العسف و قال صلى الله تعالى عليه و سلم : [أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون و قال : إياك و التشادق و لما نزل عليه قوله تعالى : { في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه } بنى مساجد قباء فحضر عبد الله بن رواحة فقال : يا رسول الله قد أفلح من بنى المساجد قال : نعم يا ابن رواحة قال : و لم يبت لله إلا ساجد قال : يا ابن رواحة كف عن السجع] فما أعطي شيئاً شراً من طلاقة في لسانه من جوامع كلام النبي عليه السلام الموجز :

فمن كلامه الذي لا يشاكل في إيجازه قوله صلى الله تعالى عليه و سلم : [الناس بزمانهم أشبه] و قوله [ما هلك امرؤ عرف قدره] و قوله : [لو تكاشفتهم ما تدافتم] و قوله : [السعيد من وعظ بغيره] و قوله : [حبك للشيء يعمي و يصم] و قوله : [العقل ألوف مألوف] و قوله : [العدة عطية] و قوله : [اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع] و قوله : [أفضل الصدقة جهد المقل] و قوله : [اليد العليا خير من اليد السفلى] و قوله [ترك الشر صدقة] و قوله : [الخير كثير و قليل فاعله] و قوله : [الناس كمعادن الذهب] و قوله : [نزلت المعونة على قدر المؤنة] و قوله : [إذا أراد الله بعبده خيراً جعل له و اعظاً من نفسه] و قوله : [أدي الأمانة إلى من ائتمنك و لا تخن من خانك] و قوله : [المؤمن غر كريم و الفاجر خب لئيم] و قوله : [الدنيا سجن المؤمن و بلاؤه و جنة الكافر و رجاؤه]

من كلام الرسول الذي لا يشاكل فصاحة :

و من كلامه الذي لا يشاكل في فصاحته قوله صلى الله تعالى عليه و سلم : [إياكم و المشاورة فإنها تميم الغرة و تحيي القرة] و قوله : [لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً و الصدقة مغرماً] و قوله : [رحم الله عبداً قال خيراً فغنى أو سكت فسلم] و قوله : [اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع و نفس لا تشبع و قلب لا يخشع و عين لا تدمع] و قوله : [هل يطمع أحدكم إلا غنى مطغياً أو فقراً منسياً أو مرضاً مفسداً أو هماً مفنداً أو الدجال

فهو شر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى و أمر [وقوله : [ثلاث منجيات و ثلاث مهلكات فأما المنجيات فخشية الله تعالى في السر والعلانية و الاقتصاد في الغنى والفقر و الحكم بالعدل في الرضا والغضب و أما المهلكات فشح مطاع و هوى متبع و إعجاب المرء بنفسه [وقوله : [و تقبلوا لي بستم أتعلم لكم الجنة قالوا : و ما هي يا رسول الله ؟ قال إذا حدث أحدكم فلا يكذب و إذا وعد فلا يخلف و إذا ائتمن فلا يخن غضوا أبصاركم و احفظوا فروجكم و كفوا أيديكم [وقوله [في بعض خطبه : إلا أن الأيام تطوى و الأعمار تفتى و الأبدان في الشرى تبلى و إن الليل و النهار يتراكمضان تراكمض البريد يقربان كل بعيد و يخلقان كل جديد و في ذلك عباد الله ما ألقى عن الشهوات و رغب في الباقيات الصالحات [وقوله [في بعض خطبه و قد خاف من أصحابه فطرة : أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب و كأن الحق فيها على غيرنا و جب و كأن الذي يشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون نبوئهم أجدانهم و نأكل تراثهم كأننا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة و أمنا كل جائحة طوبى لمن شغلته آخرته عن دنياه طوبى لمن شغله عييه عن عيوب الناس [و هذا يسير من كثير و لا يأتي عليه إحصاء و لا يبلغه استقصاء و غمنا ذكرنا مثالا ليعلم أن كلامه جامع لشروط البلاغة و معرب عن نهج القصاحة و لو مزج بغيره لتمييز بأسلوبه و لظهر فيه آثار التنافر فلم يلتبس حقه من باطله و لبان صدقه من كذبه هذا و لم يكن متعاطيا للبلاغة و لا مخالطا لأهلها من خطباء أو شعراء أو فصحاء و إنما هو من غرائز فطرته و بداية جبلته و ماذا إلا لغاية تراد و حادثة تشاد

فإن قيل : إذا كان كلامه مخالفا غيره لكلام غيره في البلاغة و القصاحة حتى لم يكن فيه مساجلا أيكون له معجزا ؟ قيل له : لو كان هكذا و تحدى به صار معجزا و لا يكون مع عدم التحدي معجزا

فضائل أفعاله

و أما الوجه الرابع في فضائل أفعاله فمختبر بشماني خصال :
إحدهن حسن سيرته و صحة سياسته في دين ابتكر شرعه حتى استقر و تدبير أحسن وضعه حتى استمر قتل به الأمة عن مألوف و صرفهم به عن معروف فاذعنت به النفوس طوعا و انقادت خوفا و طمعا و شديد عادة منتزعة إلا لمن كان مع التأيد الإلهي معانا بحزم صائب و عزم ثاقب و لئن كان مأمور بما شرع فهي الحجة القاهرة و لئن كان مجتهدا فيها فهي الآية الباهرة و حسبك بما استقرت قواعده على الأبد حتى انتقل عن سلف إلى خلف يزداد فيهم حالوته و يشتد فيهم جدته و يرويه نظاما لأعصار تنقلب صروفها و يختلف مألوفها أن يكون لمن قام به برهانا و لمن ارتاب به بيانا

و الخصلة الثانية أن جمع بين رغبة من استمال و رهبة من استطاع حتى اجتمع القرينان على نصرته و قاموا بحقوق دعوته رغبا في عاجل و رهبا من زائل و نازل لاختلاف الشيم و الطباع في الانقياد الذي لا ينتظم بأحدهما و يستديم إلا بهما فلذلك صار الدين بهما مستقرا و الصلاح بهما مستمرا

الخصلة الثالثة انه عدل فيما شرعه من الدين عن غلو النصرارى في التشديد و عن تقدير اليهود في التقصير إلى الوسط بينهما [و خير الأمور أوسطها] لأنه العدل بين طرفي سرف و تقصير فليس لما جاوز العدل حظ من رشد و لانصيب من سداد و قد قال صلى الله تعالى عليه و سلم [إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق فشر السير الحقة و إن المنبت لا أرضا قطع و لا ظهرا أبقى]

و الخصلة الرابعة أنه لم يمل بأصحابه إلى الدنيا كما رغب اليهود و لا في رفضها كما ترهبت النصرارى و أمرهم

فيها بالاعتدال أن يطلبوا منها قدر الكفاية و يعدلوا عن احتيجان و استزادة و قال لأصحابه [خيركم من لم يترك ديناه لآخرته و لا آخرته لديناه و لكن خيركم من أخذ من هذه و هذه] و هذا صحيح لأن الانقطاع إلى أحدهما اختلال و الجمع بينهما اعتدال و قال صلى الله تعالى عليه و سلم : [نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة] و إنما كان كذلك لأن منها يتزود لآخرته و يستكثر فيها من طاعته و لأنه لا يخلو تاركها من أن يكون محروما مضاعفا أو محروما مراعى و هو في الأول كل و في الثاني مستدل

[أثني على رجل يبحر عند رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و قالوا : يا رسول الله كنا إذا ركبنا لا يزال يذكر الله تعالى حتى ننزل و إذا نزلنا لا يزال يصلي حتى نرفع فقال فمن كان يكفيه علف بغيره و إصلاح طعامه قالوا : كلنا قال : فكلكم خير منه]

و الخصلة الخامسة تصديه لمعالم الدين و نوازل الأحكام حتى اوضح للأمة ما كلفوه من العبادات و بين لهم ما يحل و ما يحرم من مباحات و محظورات و فصل لهم ما يجوز و يمتنع من عقود و مناكح و معاملات حتى احتاج اليهود في كثير من معاملاتهم و مواريتهم لشرعه و لم يحتج شرعه إلى شرع غيره ثم مهد لشرعه أصولا تدل على الحوادث المغفلة و يستنبط لها الأحكام المعللة فأغنى عن نص بعد ارتفاعه و عن التباس بعد إغفاله ثم أمر الشاهد أن يبلغ الغائب ليعلم بإنذاره و يحتج بإظهاره فقال صلى الله تعالى عليه و سلم [بلغوا عني و لا تكذبوا علي فرب مبلغ أوعى من سامع و رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه] فأحكم ما شرع من نص و تنبيه و عم بما أمر من حاضر و بعيد حتى صار لما تحمله من الشرع مؤديا و لما تقلده من حقوق المة موفيا لتلايكون في حقوق الله زلل و لا في مصالح الأمة خلل و ذلك في برهة من زمانه لم يستوف تطاول الاستيعاب حتى أوجز و أنجز و ما ذاك إلا بديع معجزهم

الخلصة السادسة انتصابه لجهاد الأعداء و قد أحاطوا بجهاته و أحذقوا بجنبااته و هو في قطب مهجور و عدد محقور فزاد به من قل و عز به من ذل و صار يأتخانه في الأعداء محنورا و بالرعب منه منصورا فجمع بين التصدي لشرع الدين حتى ظهر و انتشر و بين الانتصاب لجهاد العدو حتى قهر قهر و انتصر و الجمع بينها معوز إلا لمن أمده الله بمعونته و أيده بلطفه و المعوز معجز

الخلصة السابعة ماخص به من الشجاعة في حروبه و النجدة في مصابرة عدوه فإنه لم يشهد حربا في فراع إلا صابرا حتى انجلت عن ظفر أو دفاع و هو في موقفه لم يزل عنه هربا و لاحاز فيه رغبا بل ثبت بقلب آمن و جأش ساكن قد ولي عنه أصحابه يوم حنين حتى بقي يازاء جمع كثير و جم غفير في تسعة من أهل بيته و أصحابه على بغلة مسبوقة إن طلبت غير مستعدة لهرب و لا طلب و هو ينادي أصحابه و يظهر نفسه و يقول : [إني عباد الله أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب] فعادوا أشذا و أرسلوا و هوازن تراه و تحجم عنه فما هاب حرب من كائنه و لا انكفأ عن مصالوة من صابره و قد عضده الله تعالى بأنجاد و نجاد فأنجازوا و صبر حتى أمده الله بنصره و ما لهذه الشجاعة من عديل

و لقد طرق المدينة فرع فانطلق الناس نحو الصوت فوجدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم قد سبقهم إليه فتلقوه عائدا على فرس عري لأبي طلحة الأنصاري و عليه السيف فجعل يقول : [يا أيها الناس لم تراعوا بل تراعوه] ثم قال لأبي طلحة : [إنا وجدناه بحرا] و كان الفرس يبطى فما سبقه فرس بعد ذلك و ما ذاك إلا عن ثقة من أن الله تعالى سينصره و أن دينه سيظهره تحقيقا لقوله تعالى : { ليظهره على الدين كله } و تصديقا لقول رسوله صلى الله تعالى عليه و سلم : [زويت لي الأرض فرأيت مشارقها و مغاربها و سيبلغ ملك أمي ما زوي لي

منها] و كفى بهذا قياما بحقه و شاهدا على صدقه

الخصلة الثامنة ما منح من السخاء و الجود حتى جاد بكل موجود و أثر بكل مطلوب و محلول و مات و درعه مرهونة عند يهودي على أصع من شعير لطعام أهله و قد ملك جزيرة العرب و كان فيها ملوك و أقبال لهم خزائن و أموال يقتنونها زخرا و يتباهون بها فخرا و يستمتعون بها أشرا أو بطرا و قد حاز ملك جميعهم فما اقتنى ديناراً و لا درهما لا يأكل إلا الخشن و لا يلبس إلا الخشن و يعطي الجزل الخطير و يصل الجم الغفير و يتجرع مرارة الإقلال و صبر على سغب الاختلال و قد حاز غنائم هوازن و هي من السبي ستة آلاف رأس و من الإبل أربعة و عشرون ألف بعير و من الغنم أربعون ألف شاة و من الفضة أربعة آلاف أوقية فجاد بجميع حقه و عاد خلوا روى أبو وائل [عن مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : ما ترك رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم ديناراً و لا درهما و لا شاة و لا بعيراً و لا أوصى بشيء]

و روى عمرو بن مرة [عن سويد بن الحارث عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : ما يسرني أن لي أحد ذهباً أنفقته في سبيل الله أموت يوم أموت و عندي منه دينار إلا أن أعدده لغريم] و كان صلى الله تعالى عليه و سلم إذا سئل و هو معمم وعد و لم يرد و انتظر ما يفتح الله فروى حماد بن زيد [عن المعلى بن زياد عن الحسن أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله تعالى عليه و سلم يسأله فقال : اجلس سيرزقك الله ثم جاء آخر ثم آخر فقال لهم اجلسوا فجاء رجل بأربع أواق فأعطاه إياها و قال : يا رسول الله هذه صدقة فدعا الأول فأعطاه أوقية ثم دعا الثاني فأعطاه أوقية ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية و بقيت معه أوقية واحدة فعرض بها للقوم فما قام أحد فلما كان الليل وضعها تحت رأسه و فراشه عبأوه فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلّي فقالت له عائشة : يا رسول الله حل بك شيء قال لا قالت : فجاء أمر من الله قال لا قالت : إنك صنعت منذ الليلة شيئاً لم تكن تفعله فأخرجها و قال : هذه التي فعلت بي ما ترين إني خشيت أن يحدث أمر من أمر الله و لم أمضها] و روى الزهري [عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه و سلم أنه قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن ترك ديناً فعلي و من ترك مالا فلورثته] فهل مثل هذا الكرم و الجود كرماً و جوداً !! أم هل لمثل هذا الإعراض و الزهادة إعراضاً و زهداً !! هيهات هل يدرك شأؤ من هذه شذور من فضائله و يسير من محاسنه التي لا يحصى لها عدد و لا يدرك لها أمد لم تكمل في غيره فيساويه و لا كذب بها ضد يناويه و لقد جهد كل منافق و معاند و كل زنديق و ملحد أن يزري عليه قول أو فعل أو يظهر بمفوة في جدل أو هزل فلم يجد إليه سبيلاً و قد جهد جهده و جمع كيدته فأبي فضل أعظم من فضل تشاهده الحسدة و الأعداء فلم يجدوا فيه مغمراً لثالب أو قاذح و لا مطعناً لجراح أو فاضح فهو كما قال الشاعر :

(شهد الأنام بفضلته حتى العدى ... و الفضل ما شهدت به الأعداء)

و حقيق لمن بلغ في الفضائل غايتها و استكمل لغايات الأمور آلتها أن يكون لزعامته العالم مؤهلاً و للقيام بمصالح الخلق موكلاً و لا غاية بعد النبوة أن يعم به صلاح أو ينحسم به فساد فافتضى أن يكون لها أهلاً و للقيام بها مؤهلاً و لذلك استقرت به حين بعث رسولا و نهض بحقوقها حين قام به كفيلاً فناسبها و ناسبته و لم ينهل لها حين أتته و كل متناسبين متشاكلان و كل متشاكليين مؤتلفان و كل مؤتلفين متفقان و الاتفاق وفاق و هو أصل كل انتظام و قاعدة كل النّام فكان ذلك من أوضح الشواهد على صحة نبوته و أظهر الأمارات في صدق رسالته فما ينكرها بعد الوضوح إلى مفوض و الحمد لله الذي وفق لطاعته و هدى إلى التصديق برسالته

الباب الحادي والعشرون : في مبدأ بعثته و استقرار نبوته صلى الله تعالى

عليه و سلم

لكل مقدور نذير أو بشير :

إن الله تعالى جعل لكل مقلود من الأمور إذا دنا نذيرا أو بشيرا يظهر بهما مبادئ ما أخفاه و يشعر بجلولهما قدره و قضاه ليكونا تعذيرا و تحذيرا تستيقظ بهما العقول و يزدجر بهما العقول و يزدجر بهما الجهول لطفًا بعباده من فجأة الأمور المذهلة أن تصدم بواد لا تستدرك لتكون النفوس في مهلة من استدفاع خطبها و حل صعبها انتشر في الأمم أن الله تعالى سيبعث نبيا :

و لما دنا مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بالنبوة رسولا و إلى الخلق بشيرا و نذيرا انتشر في الأمم أن الله تعالى سيبعث نبيا في هذا الزمان و أن ظهوره قد قرب و أن فكانت كل أمة لها كتاب يعرف ذلك من كتابها و التي لا كتاب لها ترى من الآيات المنيرة ما تستدل عليه بعقولها و تنبيه عليه بمواجس فطرها إلهاما أعان به الفطن اللبيب و أنذر به الحازم الأريب هذا و رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم غافل عنها و غيره عالم أنه مراد بها و مؤهل لها لم يشعر بها حتى نودي و لا تحققها حتى نوجي ليكون أبعد من التهمة و أسلم من الظنة فيكون برهانه أظهر و حجاجه أقهر و كان مع تميزه عن قومه بشرف أخلاقه و كرم طباعه لم يعبد معهم صنما و لا عظم وثنا و كان متدينا بفرائض العقول في قول جميع الفقهاء و المتكلمين : من توحيد الله تعالى و قدمه و حدوث العالم و فنائه و شكر المنعم و تحريم الظلم و وجوب الإنصاف و أداء الأمانة كيف كان تعبد محمد صلى الله تعالى عليه و سلم قبل البعثة :

و اختلف أهل العلم هل كان قبل مبعثه بشريعة من تقدم من الأنبياء ؟ فذهب أكثر المتكلمين و بعض الفقهاء من أصحاب الشافعي و أبي حنيفة إلى أنه لم يكن متعبدا بشريعة من تقدمه من الأنبياء لأنه لو تعبد بها لتعلمها و لعمل بها و لو عمل بها لظهرت منه و لو ظهرت لا تبعه فيها الموافق و نازعه فيها المخالف و ذهب بعض المتكلمين و أكثر الفقهاء من أصحاب الشافعي و أبي حنيفة إلى أنه كان متعبدا بشريعة من تقدمه من الأنبياء لأنهم دعوا إلى شرائعهم من عاصرهم و من يأتي بعدهم ما لم تنسخ نبوة حادثة فدخل الرسول صلى الله تعالى عليه و سلم في عموم الدعاء قبل مبعثه لأن الله تعالى لا يخلي زمانا من شرع متبوع و لا متدينا من تعبد مسموع

و اختلف من قال بهذا فيما كان متعبدا به من الشرائع المقدمة فذهب بعضهم إلى أنه كان متعبدا بشريعة جده إبراهيم عليهما السلام لقوله تعالى : { ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه } لأنه كان في الحج و العمرة على مناسكه

و ذهب آخرون إلى أنه كان متعبدا بشريعة موسى فيما لم تنسخه شريعة عيسى عليهم السلام لظهور شريعته في التوراة و دروس ما تقدمها من الشرائع مع قول الله تعالى : { إنا أنزلنا التوراة فيها هدى } و ذهب آخرون إلى أنه كان متعبدا بشريعة عيسى عليه السلام لأنها كانت ناسخة لشريعة موسى فسلم قبل مبعثه من حرج في دينه و قدح في يقينه و هذا من أمارات الاصطفاء و مقدمات الاجتباء الخلاء في غار حراء :

و لما وجد الأمر في النبوة و دنا وقتها حبب الله إلى رسوله الخلاء بعد أربعين سنة من عمره حين تكامل فهاه و اشتد قواه ليكون متهيئا لما قدر له و متأهبا لما أريد له فكان يتخلى في غار حراء في ذوات العدد من الليالي [و قيل]

شهرها في السنة على عادة كانت لقريش في التبرز بالجاورة بحراء و يعود إلى أهله إلى أن استدام الخلاء في الغار لما أراد الله تعالى به فكان يؤتى بطعامه و شرابه فيأكل منه و يطعم المساكين برهة من زمانه و هو غافل عن النبوة و إن كان في الناس موهوما و عند أهل الكتب معلوما ليكون ابتكار البديهة بها مانعا من التصنع لها فلا ينسب إلى اختراعها و لو تصنع و اخترع لظهرت أسبابهما و تمت شواهدهما و لم يخف على من عاداه أن يتداوله و على من والاه أن يتأوله و حسبك بهذا وضوحا أن يكون بعيدا من التهمة بهما سليما من الظنة فيهما فلم يزل صلى الله تعالى عليه و سلم على خلوته إلى أن أظهر الله تعالى له أمارات نبوته فأيقظه بها بعد الغفلة و بشره بها بعد المهلة ثم بعثه بها رسولا بعد البشرى على تدريج ترتبت فيها أحواله ليتوطأ لتحمل أنقائها و يعلم لوازم حقوقها حتى لا تهجأ بغتة فينهل و لا يخفى عليه حقوقها فينكل و كان ذلك من الله لطفا به و إنعاما عليه و داعيا لأمنته في الاقبياد إليه فسبحان من لطيف عبادته منعم على خلقه تدرج أحوال محمد إلى أن وصل إلى النبوة :

تدرجت إليه أحواله في النبوة حتى علم أنه مبعوث و رسول مبلغ ترتب تدرجه على ستة أحوال نقل فيهن إلى منزلة بعد منزلة حتى بلغ غايتها الرؤيا الصادقة :

فالمنزلة الأولى الرؤيا الصادقة في منامه بما سيؤول إليه أمره فكان ذلك إذكارا بها ليروض لها نفسه و يختبر فيها حواسه فيقوم بها إذا بعث و هو عليها قوي و بما ملي روى الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنه أنها قالت : أول ما ابتدئ به رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تحيء مثل فلق الصبح حتى فجأه الحق و اختلف في هذه الرؤيا هل كانت قبل انقطاعه إلى الخلوة بحراء ؟

فحكى عن عروة عن عائشة أنه حبب إليه الخلاء بعد الرؤيا و ذهب قوم إلى أن الرؤيا جاءت به بعد خلوته لأنه خلا على غفلة من أمره و قد روت برة بنت أبي تحراه : أن الله تعالى لما أراد كرامة رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بالنبوة كان لا يمر بشجر و لا حجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله فكان يلتفت عن يمينه و شماله و خلفه فلا يرى أحدا فاحتمل أن يكون ذلك قبل رؤيا المنام فيكون كالمتهوف الخارجة عن أعلام الوحي إلى إعجاز النبوة و احتمل أن يكون بعد الرؤيا فيكون تصديقا لها و تحقيقا لصحتها تطهيره من الأرجاس و الأدناس :

و المنزلة الثانية ما ميز به عن سائر الخلق من تقديسه عن الأرجاسه و تطهيره من الأدناس ليصفو فيصطفى و يخلص فيستخلص فيكون ذلك إنذارا لأمر و تنبيها على العقابة و هو ما رواه [عن عروة بن الزبير عن أبي ذر الغفاري قال : سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم عن أول نبوته فقال : يا أبا ذر أتاني ملكان و أنا بطحاء مكة فوقع أحدهما على الأرض و الآخر بين السماء و الأرض فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال هو هو قال : فزنه برجل من أمته فوزنت برجل فرجحته ثم قال زنه بعشرة فوزنت بعشرة فرجحتهم ثم قال : زنه بمائة فوزنت بمائة فرجحتهم ثم قال زنه بألف فوزنت بألف فرجحتهم فجعلوا يثرون علي في كفة الميزان فقال أحدهما للآخر لو وزنته بأمته رجحها ثم قال أحدهما لصاحبه : شق بطنه فشق بطني ثم قال : شق قلبه فشق قلبي فأخرج منه مغمز الشيطان و علق الدم ثم قال اغسل بطنه غسل الإناء و اغسل قلبه غسل للملاءة ثم دعا بالسكينة فأدخلت قلبي ثم قال : خط بطنه فخاط بطني فما هو أن وليا حتى كأنما أعين الأمر]

و روى أنس بن مالك قال : [لما حان أن ينبأ رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم كان ينام حول الكعبة و كانت قريش تنام حولها فأتاه جبريل و ميكائيل فقال : بأيهم أمرنا ؟ فقالا : أمرنا بسيلهم ثم ذهبوا وجاءا من القابلة و هم ثلاثة فالفوه و هو نائم فقلبه لظهره و شقوا بطنه ثم جاءوا بماء زمزم فغسلوا ما كان في بطنه من شك أو ضلالة أو جاهلية ثم جاءوا بطست من ذهب قد ملئت إيماناً و حكمة فملئ بطنه و جوفه إيماناً و حكمة] و هذا موافق لحديث أبي ذر في المعنى و إن خالفه في الصفة فتوارد في الرواية و هو إنذار بالنبوة البشرية بالنبوة :

و المنزلة الثالثة البشرية بالنبوة من ملك أخبره بها عن ربه و اختصت بشراه بالإشعار و تجردت عن تكليف و إنذار لم يسمع بها و حيا و لا رأى معها شخصا و إنما كان حساسا بالملك اقترن بآية دلت و أمارة ظهرت اكتفى بها عن مشاهدته و استغنى بها عن نطقه ليعلم أنه من أنبياء الله تعالى فيتأهب لوحيه و يعان يأمهاله فيكون على البلوى أصبر و للنعمة أشكر

روى الشعبي و داود بن عامر أن الله تعالى قرن إسماعيل بنوثة رسوله صلى الله تعالى عليه و سلم ثلاث سنين يسمع حسه و لا يرى شخصه و يعلمه الشيء و لا ينزل عليه القرآن فكان في هذه المدة مبشرا بالنبوة و غيره مبعوث إلى الأمة فاحتمل أن يكون إمهاله فيها معونة للرسول و احتمل أن يكون نظرا للأمة و احتمل أن يكون لأوان للصلحة و ليس يمتنع أن يكون لجميعها فإنه أعلم بسر ما أخفى و أعرف بمعنى ما أظهر نزول جبريل بالوحي :

و المنزلة الرابعة أن نزل عليه جبريل بوحي ربه حتى رأى شخصه و سمع مناجاته فأخبره أنه نبي الله و رسوله و اقتصر به على الإخبار و لم يأمره بالإنذار ليعلمها بعد البشرية عيانا و يقطع بها يقينا فيكون معتقده بها أوثق و علمه بها أصدق فلا يعترضه وهم و لا يخالجه ريب

روى الزهري [عن عائشة رضي الله تعالى عنها : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم لما فاجأه الحق أتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد أنت رسول الله قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم فجئت لركبتي و أنا قائم ثم رجعت ترجف بوادري ثم دخلت على خديجة فقلت زملوني زملوني حتى ذهبت عني ثم أتاني فقال يا محمد أنا جبريل و أنت رسول الله ثم قال : اقرأ قلت : ما اقرأ قال فأخذني فغطني ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد و قال : { اقرأ باسم ربك الذي خلق } فأتيت خديجة فقلت لقد أشفقت على نفسي فأخبرتها خبري فقالت : ابشر فو الله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم و تصدق الحديث و تؤدي الأمانة و تحمل الكل و تقري الضيف و تعين على نوائب الحق ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل و كان ابن عمها و خرج في طلب الدين و قيل قرأ التوراة و الإنجيل و تنصر و قالت اسمع من ابن أخيك فسألني فأخبرته خبري فقال : هذا الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام يعني جبريل عليه السلام ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك قلت أو مخرجي هم ؟ قال نعم إنه لم ينجي رجل قط بما جئت به إلا عودي و لن يدركني يومك لأنصرك نصرنا مؤزرا ثم كان أول ما نزل علي من القرآن بعد اقرأ : { ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرا غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم * فستبصر و يبصرون }

و نزل عليه ذلك ليزداد ثباتا و لنفسه استبصارا و لنعمة ربه شكرا]

و روى أن خديجة قالت لرسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم : [و هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا إذا أتاك ؟ يعني جبريل عليه السلام قال : نعم قالت فأخبرني به إذا جاءك فجاءه جبريل فقال لها يا خديجة هذا جبريل قد جاء

قالت : قم فاجلس على فخذي اليسرى فجلس عليها فقالت هل تراه ؟ قال نعم قالت : فتحول على فخذي اليمنى إليها فقالت هل تراه ؟ قال : نعم قالت فتحول في حجرها فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم قال : فحسرت و ألفت حمارها و هو جالس في حجرها فقالت هل تراه ؟ قال : لا قالت يا ابن عمي أثبت و أبشر فو الله إنه لملك و ما هو بشيطان]

و آمنت به فكانت أول من أسلم من جميع الناس و استظهرت خديجة بما فعلته من هذا في حق نفسها لا في حق الرسول و لا استظهارا عليه و اكتفى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في تصديق جبريل بما عينته خديجة من آياته المعجزة و كان ما نزل به جبريل في هذا الحال مقصورا على إخباره بالنبوة ليعلم أن الله تعالى قد اصطفاها لها فينقطع إليه و يوقف نفسه على ما يؤمر به و ينزل عليه فيكون لأوامره متبعا و لما يراى به متوقعا و أذن له في ذكره و إن لم يؤذن له في إنذاره لقول الله تعالى : { وأما بنعمة ربك فحدث } أي بما جاءك من النبوة فكان يذكرها مستسرا

النبي يؤمر بالإنذار :

و المنزلة الخامسة أن أمر بعد النبوة بالإنذار فصار به رسولا و نزل عليه القرآن بالأمر والنهي فصار مبعوثا و لم يأمر بالجهر و عموم الإنذار ليختص بمن أمنه و يشهد بمن أجابه فنزل عليه قول الله تعالى : { يا أيها المدثر * قم فأندر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر } فتمت نبوته بالوحي و الإنذار و إن كان على استسار و كان ذلك في يوم الإثنين من شهر رمضان

قال هشام بن محمد أول ما تلقاه جبريل فقال ليلة السبت و ليلة الأحد ثم ظهر له برسالته في يوم الاثنين و روى أبو قتادة [عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم عن صوم يوم الإثنين فقال : ذاك يوم ولدت فيه و أنزل علي فيه النبوة]

و اختلف في أي إثنين كان من شهر رمضان فقال أبو قلابة : كان في الثامن عشر منه و قال أبو الخلد : كان في الرابع و العشرين منه و هو ابن أربعين سنة في قول الأكثرين لأربعين سنة مضت من عام الفيل و زعم قوم أنه كان ابن ثلاث و أربعين سنة قال هشام بن محمد و ذلك لعشرين سنة من ملك كسرى أبرويز و قال غيره لست عشرة سنة من ملكه [ثم روي أن جبريل عليه السلام نزل عليه في يوم الثلاثاء ثاني النبوة و هو بأعلى مكة فهم بعقبة في الوادي فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل منها ليريه كيف الطهور فتوضأ مثل وضوئه ثم قام جبريل فصلى و صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم بصلاته فكانت هذه أول عبادة فرضت عليه ثم انصرف جبريل فجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم إلى خديجة فتوضأ لها حتى توضأت و صلى بها كما صلى به جبريل فكانت أول من توضأ بعده و صلى و استسر بالإنذار من يأمنه]

أول من أسلم :

و اختلف في أول من أسلم بعد خديجة على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أول من أسلم من الذكور و صلى و هو ابن تسع سنين و قيل ابن عشر و هذا قول جابر بن عبد الله و زيد بن أسلم

و روى يحيى بن عفيف عن أبيه عفيف قال : جئت في الجاهلية إلى مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب فلما طلعت الشمس و تحلقت في السماء أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء و استقبل الكعبة فقام مستقبليها فلم يلبث أن جاء غلام فقام عن يمينه فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب و ركع الغلام و المرأة فخر

الشاب ساجدا فسجدا معه فقلت للعباس يا عباس أمر عظيم هل تدري من هذا؟ قال العباس : نعم هذا محمد بن عبد الله ابن أخي و هذا علي بن أبي طالب ابن أخي و هذه خديجة زوجة ابن أخي و هذا حدثني أن رب السماء أمره بهذا الذي تراهم عليه و أيم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحدا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة و القول الثاني : [أن أول من أسلم و صلى أبو بكر رضي الله تعالى عنه و هذا قول ابن عباس و أبي أمامة الباهلي و روى أبو أمامة عن عمرو بن عنبسة السلمي قال أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم و هو نازل بعكاظ فقلت يا رسول الله من تبعك على هذا الأمر؟ قال : تبعتني عليه رجلان حر و عبد أبو بكر و بلال] قال : فأسلمت عند ذلك فلقد رأيته إذ ذاك ربع الإسلام و قال الشعبي سألت ابن عباس من أول الناس إسلاما فقال أما سمعت قول حسان بن ثابت :

(إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا)

(خير البرية أتقاه و أعلها ... بعد النبي و أوفاه بما حملا)

(الثاني التالي المحمود مشهده ... و أول الناس منهم صدق الرسلا)

و القول الثالث : إن أول من أسلم زيد بن حارثة و هذا قول عروة بن الزبير و سليمان بن يسار و جعل أبو بكر يدعو إلى الإسلام من يتق به لأنه كان تاجرا ذا خلق و معروف و كان أنسب قريش و أعلمهم بما كانوا عليه من خير و شر حسن التأليف لهم و كانوا يكثر غشيانه فأسلم على يديه عثمان بن عفان و طلحة بن عبد الله و الزبير بن العوام و سعد بن أبي وقاص و عبد الرحمن بن عوف فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم حين استجابوا له بالإسلام و صلوا فصاروا مع من تقدم ثمانية نفر هم أول من أسلم و صلى و قيل : إنه أسلم معهم سعيد بن العاص و أبو ذر ثم تبع الناس في الإسلام و رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم على استساراه بالدعاء و إن انتشرت دعوته في من من أصحاب من قريش الإندار للعموم بعد الخصوص :

و المنزلة السادسة : أن أمر أن يعم بالإنذار بعد خصوصه و يجهر بالدعاء إلى الإسلام بعد استساراه فأنزل الله تعالى عليه : { فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين } فجهر بالدعاء قال ابن إسحق [ذلك بعد ثلاث سنين من مبعثه و أمر أن يبدأ بعشيرته الأقربين فقال تعالى : { و أنذر عشيرتك الأقربين } و أخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين } قال ابن عباس فصعد رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم الصفا فهتف يا صباحاه يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف حتى ذكر الأقرب فالأقرب من قبائل قريش فاجتمعوا إليه و قالوا مالك قال : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أما كنتم تصدقوني؟ قالوا : بلى ما جربنا عليك كذبا قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب : تبأ له أهذا جمعنا ثم قام فأنزل الله تعالى : { تبأ يدا أبي لهب و تبأ } إلى آخر السورة [

قال ابن إسحق و لم يكن في قريش في دعائه لهم مبالغة له و لكن ردوا عليه بعض الرد حتى ذكر أهتهم و عابوا و سفه أحلامهم في عبادتها فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه و تظاهروا بعداوتة إلا من عصمه الله تعالى منهم بالإسلام و هم قليل مستحقرون فصار بعموم الإنذار و الجهر بالدعاء إلى التوحيد و الإسلام عام النبوة مبعوثا إلى كافة الأمة فأكمل الله تعالى بذلك نبوته و تم به رسالته فصعد بأمره و قام بحقه و جاهد بأنذاره و عم بدعائه و جاهد في الله حق جهاده حتى خصم قريشا حين جادلوه و صابروهم حين عاندوه و جمعهم غفيرا و جمعهم كثيرا إلى أن علت كلمته و ظهرت دعوته و كابد من الشدائد ما لم يثبت عليها إلا معصوم و لا يسلم منها إلا منصور و كل هذه آيات تنذر

بالحق و تلائم الصدق لأن الله لا يهدي كيد الخائنين و لا يصلح عمل المفسدين

ما شرع من الدين بعد التوحيد :

فأما ما شرعه من الدين فالشرع بعد التوحيد يشتمل على قسمين : عبادات و أحكام فأما العبادات فلم يشرع منها مدة مقامه بمكة إلا الطهارة و الصلاة حين علمه جبريل الوضوء و الصلاة و كانت فرضا عليه و سنة لأمته لقول الله تعالى : { يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه } فكان هذا حكمها في حقه و حقوق أمته إلى أن فرضت الصلوات الخمس بعد إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وذلك في السنة التاسعة من نبوته فصارت الصلوات الخمس فرضا عليه و على أمته و لم يفرض ما سواها من العبادات حتى هاجر إلى المدينة و صارت له بالإسلام دارا و صار أهلها أنصارا

أول ما فرض في المدينة من العبادات :

فأول ما فرض بالمدينة من العبادات بعد فرض الصلوات الخمس بمكة صيام شهر رمضان في الثانية من الهجرة في شعبان و فيها حولت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة و فرض فيها زكاة الفطر و شرع فيها صلاة العيد و كان فرض الجمعة قد تقدم في أول الهجرة بدلا من صلاة الظهر ثم فرضت زكاة الأموال بعد ظهور القوة و سد الخلة ثم الحج و العمرة

و أما الأحكام فما أوجبه قضايا العقول من تحريم القتل و الزنا كان مشروعا بمكة مع ظهور إنذاره و ما تردد في قضايا العقول بين فعله و تركه كف عن الحكم فيه بتحليل أو تحريم أو حظر أو إباحة أو استحباب أو كراهة فلم يحلل بمكة حلالا و لا حرم بها حراما حتى هاجر منها فحلل بعد الهجرة و حرم و أباح و حظر لأنه كان بمكة مغلوبا باستيلاء قريش عليها و كانت دار شرك لا ينفذ فيها أحكامه فلم يحلل و لم يحرم حتى صار بالمدينة في دار إسلام تنفذ فيها أحكامه فبين ما حلل و حرم و بين ما أباح و حظر و بين ما يصح من القول و يفسد و لذلك كان بمكة مسالما و بالمدينة محاربا فكانت الحكمة موافقة لأفعاله و التوفيق معاضدا لأقواله و إن كان مأمورا بها كما قال الله تعالى : { وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى } لكن لحسن قيامه بها و موافقة الصواب في مواضعها تظهر آثار حكيمته في صحة حزمه و صدق عزمه

فهذه جملة متفقة في أعلام نبوته و قاعدة مستقرة في ترتيب رسالته و أحكام شريعته فأما أحكام جهاده في حروبه و غزواته فسنذكره في كتاب نفرد في سيرته نوضح به مواقع أعلامه و مبادي أحكامه و بالله تعالى التوفيق

[تم بحمد الله]